الوحدة الإسلامية

تأليف الأستاذ
محمد أبو زهرة

دار الرائد العربي

الوحدة الإسلامية

تأليف الأستاذ
محمد أبو زهرة

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص.ب ٦٥٨٥

الوحدة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي رسول الوحدانية ، وجامع الإنسانية وعلى آله وصحبه أجمعين .

١ — أما بعد فقد روي في الصحاح أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد قال : « بدأ الإسلام غريبا وعاد غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » ، وأي غربة للإسلام أكثر من أن تتوزع أقاليم الأرض أهله ولا جامع يجمعهم ، وأن تمزقهم الجنسية والعنصرية ، ويقول خاتم النبيين « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » ، وأي غربة أشد من أن تحارب جماعة إسلامية أخرى من غير أي جريمة دينية ، بل أي غربة للاسلام أقوى من أن يستنصر أمير مسلم بأعداء الله وأعداء الإسلام وينسى قوله تعالى ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ .

إن الفرقة بين المسلمين هوّنت أمرهم ، وجعلتهم حجة على الإسلام ، ومبادئه ،

حتى لقد قال الأعداء ، لو كان الإسلام خيراً ، ما كان أهله على هـذه الحال من الخلل والاضطراب والبعدعن أسباب القوة،وقد تحكموا فينا ، فإن حاولنا أن نجتمع خذّلونا، أو خذلنا الرؤساء الذين يوالونهم ، ويستمدون القوة منهم ويسيرون في مسارهم ويدورون حول قطبهم،وأي غربة للإسلام أشد من أن من يدعو إلى الوحدة الإسلامية تكون دعوته غريبة وصوته منكرا، كأنه يهاجم الإسلام ، وفي كل الأحوال تكون دعوته صرخة في واد .

٢ - لقد نادى الإمام جمال الدين الأفغاني بضرورة إنشاء جامعة دولية إسلامية ، وما كانت لدعوته استجابة ، إلا حث الشعب الإسلامي عليها ، وإنهاض الأمة الإسلامية للاتجاه نحوها . وطوّف في أرض الإسلام ما طوّف يحرض ويجمع، وما دخل إقليما إسلامياً إلا أيقظ أهله ، وأزال الغمة،وحاول بعث الهمة ولكن لا يلبث حكام المسلمين أن يخرجوه من أرض الإسلام حتى ألجؤوه إلى دار الكفر ، فظن أنه يستطيع أن ينادي من أرض غير إسلامية ليجمع الأمة الإسلامية ، زاعماً أن أهـل أوروبا أحرار ، كما يوهمون المسلمين، فاتخذ منبره هنالك في مجلة العروة الوثقى. ولكن ضاقت صدورهم حرجاً بها، فألغوها بعد بضعة أعداد، فأخذ يطوف،وقد أعطاه الله قوة روحية مؤثرة، فأراد أعداء الإسلام، أو أعداء الوحدة الإسلامية أن يمنعوه فلم يجدوا الا أن يلجئوه الى ما كان يسمى دار الخلافة الإسلامية في ملك آل عثمان،فاستضافه من كان يسمي نفسه أمير المؤمنين، وهو سلطان آل عثمان ، فدخل القسطنطينية وكانت السجن لذلك الحكيم،فانقطع صوته الذي كان يدوي ويعلن صوت الحق في وسط جلجلة الباطل ، ومنع شخصه من التجوال في الأقاليم الإسلامية وبثّت حوله العيون .

٣ - ولعل الزمن لم يكن مواتيا لدعوة الإمام جمال الدين ، وإن حاول التنبيه والإيقاظ وحسبه ذلك شرفاً ، فالأمة كانت خاملة، وأعداء الإسلام هم المتحكمون في مصاير المسلمين ، وهم يحولون بين كل داع للوحدة ودعوته ، ولا يريدون للمسلمين إلا أن يكونوا قوما بورا .

والآن قد حالت الحال ، وكَفَّ أعداء الإسلام أيديهم ، وإن كانوا لم يكفوها،إلا بعد أن كان لهم من المسلمين من لا يزالون يتبعونهم نفسياً وعقليا . وليس للإسلام فيهم إلا الاسم الإسلامي ، وذكره في تعدادهم وكان للتحكم في الإسلام أثره في قلوبهم ، وقد كانوا يُدْنُونَهم ، ويقربونهم زلفى إليهم .

ومهما يكن من هؤلاء الذين خلّفهم عدو الإسلام في أرضه ، وكانوا هم المخلفين الذين يتكلمون في اعلاء شأن من كانوا يتحكمون ، وخفض الحقائق الإسلامية ، وتمجيد الشرائع غير الإسلامية .

ومهما يكن أمر هؤلاء، فإن في المسلمين يقظة ابتدأ نورها خفيفا،وسينبثق نوراً وهاجا ، ولذلك لا نيأس من أن تعود الوحدة الإسلامية، كما بدأت قوية، تجعل من المسلمين جماعة واحدة تقف أمام الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وغيرهما من الكتل التي تتجمع،وليس فيها للإسلام مكان،وإن الجماعة الإسلامية ستكون مصدر خير للإنسانية ، كما كانت في عصر النبي ﷺ وعصر الراشدين من بعده ، بل عصر الملوك الذين كانوا يحكمون المسلمين ، وهم مجتمعون ، سواء كان الحكم ، كما جاء في القرآن والسنة ، أم خالفوه في مناهج قلت أو كثرت.

٤ ــ ولا يصح لنا أن نسكت ، لأن السكوت تخاذل ورضا بغير المقرر الثابت في الإسلام ، وما دام القرآن قائما ، والسنة النبوية تروى، فإن الوحدة ممكنة لتوافر أسبابها ، وموانعها ليس من المستحيل إزالتها ، ولقد قال النبي ﷺ : « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله تعالى وسنتي ، وفي رواية الترمذي وعترتي » .

وإن الطريق لواضح ، وإن كانت فيه عقبات فهي من المسلمين أنفسهم ، كما قال ﷺ « تركتكم على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها » فالطريق واضح لا يضل فيه الساري .

وإنا إذا اتجهنا إلى الكتابة في الوحدة الإسلامية، كما يجب على كل مكلف أن يتكلم فيها بالقلم واللسان والمواجهة ، والانتقال واللقاء ، إذا اتجهنا إلى ذلك يجب أن ندرس كيف تكونت بتوفيق الله للنبي ﷺ ، وتأليف الله لأهل الإيمان ابتداء ، كما قال تعالى : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ، مـــا ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ، يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

٥ – وإن الرجوع إلى أصل تكون الجسم ، هو السبيل لجمعه إذا تفرقت أعضاؤه بحيث يوضع كل عضو في موضعه ، فيكون التلاؤم الأصلي، والتناسق الوجودي، فيجب أن نبين كيف كونت الوحدة ابتداء، ولقد تتبعنا في بحث الوحدة أسباب الفرقة والانقسام ، ويظهر أنها قديمة من بعد عصر أبي بكر وعمر ، ففي عصر ذي النورين عثمان ظهرت الفتن الطاحنة الهادمة ، وفي عهد إمام الهدى علي ظهر البغي مع الفتن .

وبذلك وجدت نابتة الفرقة ، وتغلغلت في المجتمع الإسلامي، وتحقق قول النبي ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري «ستكون فتن النائم فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم » ونمت بذور الفرقة في عهد ملوك بني أمية حتى ان الإمام زيدا يقول ، لو علقت في الثريا ، وقطعت إربا على أن تجتمع أمة محمد ﷺ أو كما قال ثالث الشهداء من عِتْرة محمد ﷺ .

ولقد وجدنا أن العصبية العربية ، ثم الشعوبية ، ثم الانحياز الاقليمي ثم إحياء اللغات القديمة والملوك الذين أقاموها حرباً بين المسلمين، كانوا من أسباب الفرقة وقد حاولنا أن نعالج هذا .

دعونا إلى إحياء اللغة العربية ، وجعلها لغة الثقافة والتفاهم الإسلامي ،

ودعونا إلى توحيد السياسة والحرب بانشاء جامعة إسلامية ، ودعونا إلى محو العنصرية بين المسلمين .

وإذا كان الناس يرون ذلك مستحيلا اليوم، فإنه بالايمان والعزيمة، والرغبة في حياة عزيزة كريمة يقرب البعيد ، ويتحقق المستحيل ، اللهم هيء لنا من أمرنا رشدا .

محمد أبو زهرة



الوحدة الإسلامية

تكوينها، قيامها، انقسامها، طريقة جمعها

١) الوحدة الإسلامية حقيقة ثابتة بمقتضى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، فلا يعرف الإسلام الفرقة بالألوان أو بالعناصر والأجناس ، أو باللغات والثقافات ، وقد كانت حقيقة ثابتة في الوجود ، كما هي مقررة في النصوص ، في عهد النبي ﷺ ، وعهد الراشدين ، وما والاه من العهود التي قاربته في عهد ملوك بني أمية ، وبني العباس ، وإن كانت العصبية الاقليمية أو الشعوبية كما سميت في التاريخ الإسلامي ، قد أخذت تتخلل إلى الجماعات الإسلامية ، وكانت في الوجود وراء العصبية العربية التي انبعثت من مراقدها في العهد الأموي ، فكانت العصبية الجنسية وراء العصبية العربية وكلتاهما جاهلي في معناه ، ناف للحقائق الاسلامية ، والوصايا المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

والآن قد صار المسلمون إلى افتراق ، وفي بعض الأحيان يكون بأسهم بينهم شديداً ، ووالى كثير منهم من لا يوّد للإسلام وأهله إلا خبالا .

فكان لا بد من جمع المتفرق ، ولم الشعث ، واتباع ما أمر به القرآن ، وقرره النبي ﷺ في وصاياه ، وإعادة أمر المسلمين ، كما ابتدأوا جماعة واحدة يتضافرون كالبنيان المرصوص ، ولا يخذل بعضهم بعضاً ، وأن يبتدأ بأقرب الخطوات ، ثم التي تليها من غير موافاة ولا قصور .

وان الفكرة الباعثة لانشاء مجمع البحوث الإسلامية كانت الاتجـــاه إلى الوحدة العلمية الإسلامية ، وهو الغرض الأسمى من وجوده ، وإذا لم يتحقق هدفه كاملاً ، فإنه لم يتخلف عن السير وإن كان بطيئاً،وإن القصد إلى الهدف أمر حسن ، وإن لم تتحقق الإصابة إلى الآن .

وإذا كانت الوحدة الإسلامية في الناحية العلمية هدف المجمع ، فمن الحق عليه أن ندرس الوحدة التي يمكن تحققها في هذا الزمان ، وإذا لم تكن هي الكاملة ، فهي طريق إلى الجمع الكامل .

ومن أجل هذا تقدمنا بهذا البحث ليلقى في المؤتمر الإسلامي الجامع،ونرجو أن يكون البحث نواة لغرس يؤتي أكله في حينه ، وعندما يتـكامل نمـــوه في إبّانه .

ونحن في بحثنا ، لا نأمل أن تعاد الآن الخلافة الإسلامية كما ابتدأت وارفة الظلال على الجماعة الإسلامية ، وإن كان يجب أن يكون غرضاً مقصوداً ، وهدفاً منشوداً .

وإنما نكتفي بالحد الأدنى من الوحدة ، ونبني عليه ما بعده من أدوارها ، حتى يصل المسلمون إلى أعلى مدارجها ، في أمر جامع لهم ، تحت أي شكل من الأشكال ..

وإنا نقسم البحث إلى أربعة عناصر :

الأول : تمهيد في بيان مقاصد الإسلام في وحدة الإنسانية ، وبيان أن محمداً ﷺ مبعوث للناس كافة .

والثاني : في تكوين الوحدة الإسلامية في عهد النبي ﷺ ، وقيامها في عهد الراشدين ومكان الخلافة في الإسلام .

والثالث : في اسباب التفريق بعد الاجتماع ، وفي هذا تبين أسبابه، وما كان يرمي اليه المفرقون .

والرابع : في بيان الوحدة الممكنة الآن .



تمهيد

١ – ينظر الإسلام إلى الإنسانية على أنها وحدة ، لا فرقة فيها بالأجناس أو الألوان، أو الأقاليم ، فإن توزعت الأرض بنى آدم، فقد جمعتهم الانسانية، فكلهم لآدم وحواء خلقوا من نفس واحدة ، ومن طينة واحدة، وقد خاطب الله تعالى الناس بهذه الحقيقة ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ .

فهذا النص القرآني الكريم يوجه التالين له ، والمستمعين إليه إلى أن هنا رحما يجب وصلها بين بني الإنسان ، شرقيهم وغربيهم ، وأبيضهم وأسودهم ، وأصفرهم ، ومتمديهم ، وحضرهم ، وجاهلهم وعالمهم ، والمتكامل منهم والناقص .

وان الاختلاف في الألوان واللغات آية من آيات الله تعالى في الكون، وقد أنشأها سبحانه من خلق السموات والأرض ، وخلق الأكوان ، والتباين فيما خلق من ظل ومن حرور ، وأرض خصبة هادئة ، وأرض قاسية غليظة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ .

وإذا كانت الأرض قد توزعت أبناء آدم ، وفرقت بينهم أجواؤها ، وأحوالها ، وتباينت الألسنة، وأشكال المعايش، فان الأخوة ثابتة بحكم الإسلام وبما جاء به القرآن ، والتعارف واجب وإذا فرقت الأرض فالمعاني الإنسانية تقرب،وتجمع، ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك:﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير ﴾ .

وان التعارف هو تثبيت الوحدة الجامعة ، وتأليف القلوب المتفرقة هو أساس العلاقة،هذا وان التعارف بلا ريب يقتضي المساواة والكرامة الإنسانية التي أعطاها الله تعالى للإنسان بمقتضى كونه إنسانا ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ ..

وان التعارف الإنساني يوجب أن يفيض أهل كل إقليم بفائض خيرهم على أهل الإقليم الذي شحت أرضه بمثل ما عند الإقليم الذي يكون عنده فائض الخير .

فالإقليم الذي يكثر فيه القمح لا يرمي في البحار ، ويغالي في الأسعار ، بل يفيض به على من ليس عنده قمح ، ومن عنده مواد الكساء يفيض بها على من ليس عندهم هذه المادة ، وإذا كانت الأرزاق في أرض الله تعالى متباينة ، فإنها بحكم الإنسانية الموحدة تتلاقى ثمراتها وتجتمع عند أهل كل إقليم، وحينئذ يكون التباين خيراً ليتوافر للجميع الخير العميم ، ولذلك ورد في بعض الآثار المنسوبة للنبي ﷺ أنه قال : « الناس بخير ما تباينوا، فإن اتفقوا هلكوا ».

وان التعارف يوجب التعاون في رفع الحق ، وخفض الباطل ، وسيادة الفضيلة والمساواة العادلة بين بني الانسان،وأن يدفع الظلم عن كل بني الإنسان، وأن يقف أهل كل اقليم أنفسهم لمساندة الضعيف في أي أرض من أرض الله ،

حتى لا يُفسِد الظلم أهل الأرض ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾.

٢ – وان القرآن إذ ينص على الوحدة الانسانية مع تفرق الأقاليم والعناصر، ينص على الوحدة في الفطرة الانسانية، فليس لأهل اقليم منزع فطري غير منزع الآخر، بل أصل النزوع النفسي واحد، فيه أسباب الاستقامة والانحراف واحدة، فليس الاختلاف ناشئاً من طبائع مختلفة، بل هو من فطرة واحدة، فلا يقال طبيعة الزنجي غير طبيعة الأبيض، ولا طبيعة الأصفر غير طبيعة الأسود، بل الطبائع في أصلها واحدة، ولكن يكون الاختلاف من التوجيه، والتوجه، لا من أصل الفطرة، فهي واحدة ولذلك قال الله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ .

وان هذا النص الكريم يدل على وحدة الانسانية في الغرائز والمنازع، وأصل الفطرة ومنازعة الأهواء الجامحة والشهوات الدافعة، وإن الاتحاد في ذلك يؤدي لا محالة إلى الاختلاف، والتنازع، إذ أنه لو كان الحاكم هو العقل وحده ما اختلفوا، إنما تحكم الأهواء والشهوات، وسيطرتها على بعض النفوس فكان لا بد فيها من التنازع بين الخير الذي يدعو إليه العقل، والشر الذي يدفع اليه داعي الهوى والشهوة، ولهذه المنازعات في داخل النفوس، وبين الناس كان بعث النبيين ولقد صرحت آية أخرى بأن الوحدة النفسية في أصل تكوينها يترتب عليها الاختلاف لا محالة، فقال تعالى : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة، فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ .

ونرى من هذا أن النص يشير إلى أن الوحدة يترتب عليها الاختلاف،

فانه إذا كانت كل النفوس متحدة في وجود المنازع وأنها مستعدة للخير والشر، فانه لا محالة يترتب الاختلاف والتنازع بل التناحر، فمن الوحدة النفسية كان الاختلاف، ولقد قال تعالى: ﴿ ونفس وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها ﴾، وقال تعالى: ﴿ وهديناه النجدين ﴾. وهكذا يصرح القرآن بوحدة النفس الانسانية في منازعها واتجاهاتها، وانما التربية، والبيئات الاجتماعية، والتوجيهات هي التي توجد الاختلاف بين المجتمعات، فلا يقال هذه نفس حر، وتلك نفس عبد، ولا يقال هذه نفس زنجي، وتلك نفس أبيض، ولا يقال هذه نفس بدوي، وتلك نفس حضري، فالنفوس واحدة وإنما يكون الاختلاف بسبب البيئات والمجتمعات.

ويظلم الحقائق، والانسانية من يجعل لفريق نفساً، وللآخر نفسا.

٣ – وإن الإسلام لا يعد أهل جيل أمة واحدة، بل يعد الأجيال كلها أمة واحدة، تتحد في معارضة الأنبياء، والاستجابة لهم، لأن النفس البشرية واحدة في الماضي والحاضر والانسان ابن الانسان، كما كان يقرر بعض أساتذتنا الأجلاء (ض).

ولقد ذكر القرآن تلك الوحدة النفسية في الأجيال كلها، فقال تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿ يا أيها الرسل، كلوا من الطيبات، واعملوا صالحا، اني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون ﴾، وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين، إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾.

فهذا النص الكريم كالنص الذي تلوناه آنفا يدل على وحدة الأقوام في صدودها عن الحق أن قامت دلائله، وايمان كثيرين به، وقد ظهرت أماراته كالضوء، فمشوا فيه، وهم يعلمون.

الرسالة المحمدية للكافة :

٤ ـ إن الانسانية أمة واحـــدة كما قرر القرآن الكريم معجزة الوجود الكبرى وان وحدة الانسانية ثابتة لا في جيل واحد ، بل الأجيال كلهـــا متحدة في نفوس المنحرفين ، ومتحدة في نفوس المهتدين ، فالناس أولاد الناس منهم من ضل وغوى ، ومنهم من آمن واهتدى ، والانبعاث إلى الهداية واحد في الأجيال كلها ، وإلى الغواية في الأجيال أيضاً ، والله تعالى هو العليم بذات الصدور ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ومن سلك سبيل الضلالة وصل إلى غايتها.

وإن الرسالة المحمدية كانت للناس كافة لا لأقليم ، ولا لجنس ، ولا لفريق من الناس ، بل كانت عامة في دعوتها ، وعامة في هدايتها .

خوطب بها الناس جميعاً في إبان نزول الوحي ، وخوطبت بها الأجيال كلها من بعد محمد إلى يوم الدين ، فدين محمد هو الدين الخالد إلى يوم القيامة ، ومحمد ﷺ آخر لبنة في صرح النبوة ، وهو خـــاتم النبيين ، ولا وحي من السماء من بعده ، فيه ختمت الرسالة ولم يبق للناس إلا الكتاب الخالد ، الذي هو سجل الرسالات ، والسنة النبوية ، وهما الحجة الباقية إلى يوم زوال الأرض ، ومن عليها ، وليس للناس من بعد النبي ﷺ إلا فهم وتدبر في الكتاب والسنة والبناء عليهما ، من غير أن يخرج من دائرتهما بل يدور حول محورهما ، وبهدايتهما.

ولقد وردت النصوص بعموم الدعوة المحمدية ، وجاءت أعمال النبي ﷺ بذلك ، وإن طبيعة الهداية المحمدية أن تكون عامة لا خاصة ؛ لأن المبادىء الإسلامية هي الفطرة الإنسانية ، والفطرة عامة لا خاصة ، ويقول الله تبارك وتعالى في وصف الحقائق الإسلامية ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فلا تبديل لخلق الله تعالى لاختلاف إقليم عن إقليم ، ولا جنس عن جنس ، ولا عنصر عن عنصر ، بل كلمات الله تعالى عامة في حكمها وفي موضوعها ، فلا تبديل فيها ولا تغيير بل فيها الشمول الكامل ، والعموم الذي لا يتخلف ، ولا يخرج عنه بخصوص إلا إذا استمد التخصيص من نص عام يجيز قاعدته ، ويؤكد معناه .

ولقد صرح القرآن الكريم بعموم الرسالة المحمدية، فقال عزّ من قائل : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾ .

وإن هذين النصين يدلان بصريح العبارة على عموم الرسالة المحمدية التي خوطب بها الناس وكلف أن يقوم محمد بها عامة لا يخص اقليما ، ولا جنساً ، ولا لوناً ، ولا عنصراً .

ويقول تعالى آمراً نبيه: ﴿قل يا أيها الناس،إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾ وإن أوصاف الرسول الكريم في القرآن الكريم تدل على عموم رسالته ، فالله تعالى يقول في محكم آياته : ﴿ يا أيها الناس ، قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيراً لكم ، وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيما ﴾ ، فالرسول جاء بالحق ، والحق هو الأمر الثابت الدائم الذي لا تختلف فيه العقول ، والأمر به لا يكون إلا عاماً .

ويقول سبحانه وتعالى في مخاطبة أهل الكتاب بالدعوة المحمدية ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير ﴾ .

وإذا ذكر العرب على أن الدعوة فيهم ابتداء،ذكر أنها للناس كافة انتهاء، فالله تعالى يقول : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ ثم يقول من بعد ذلك ما يدل على عموم الدعوة والرسالة : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ ولتنذر أم القرى ، ومن حولها ﴾ .

٥ – ولقد صرح القرآن الكريم بأن رسالة محمد ظاهرة على ما سبقها من الرسالات وأنها الخالدة دون ما سبقها ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجدا يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾.

وان هذا النص الكريم يدل على أمور ثلاثة :

أولها : أن دين محمد هو الدين الحق، بعد أن بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا حق عند أهل العصور التي جاءت بعد الرسالة المحمدية، وبعد أن يبلغوها إلا دين محمد لأنه الحق، وأن ديانة موسى وعيسى قد انتهت ، وما لأحد أن يستمسك بها إلا فيما قررته رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال عليه السلام : « لو كان موسى حياً ، ما وسعه إلا أن يتبعني » .

ثانيها : أن الرسالة المحمدية هي الظاهرة بمقتضى الأمر الأول على الديانات كلها ، لأنها الحق الثابت الباقي وحدها بعد أن جاء بها الرسول الأمين محمد ﷺ ، وهي في زمانها هي وحدها الحق .

ثالثها : أن أصحاب النبي ﷺ هم الذين حملوا أمانة التبليغ للكافة من بعده ، فهم أشداء في دعوة الحق ، متراحمون فيما بينهم ، وأن الدعاة بالدعوة الإسلامية بتوجيه الرسول ﷺ هم الذين يتولون نشرها للأقرب فالأقرب ، وأنها بين أيديهم كزرع أخرج شطأه، والله يؤازره ، حتى يستغلظ ويقوى ويثبت في الوجود ، وقد استوى على سوقه .

٦ - والقرآن الكريم قد ذكر الله تعالى فيه بأن هدايته عامة ، لا تخفى فقد وصفه الله تعالى بأنه ﴿ هدى للعالمين ﴾ ، ووصفه سبحانه بأنه يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فقال تعالى : ﴿ ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ﴾.

ويقول سبحانه في وصف الهداية المحمدية : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ .

ويلاحظ هنا أن الخطاب في شأن القرآن وبنصه كان للناس ، وهذا نص شامل لكل من يتصف بالانسانية ، وبأنه ناس، فلا يختص بعربي دون أعجمي ولا بأحمر أو أبيض ، دون الأسود والأصفر ، إذ أن الجميع ناس من الناس .

ويقول تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، الذي له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ .

وهكذا نجد التصريح من القرآن الكريم بعموم الرسالة المحمدية ، وببيان القرآن في الهداية وهو حجة النبي ﷺ وسجل شريعته ، فهو ما كان إلا للناس كافة .

النبي عربي ونزلت الشريعة في العرب :

٧ - ومع عموم الرسالة المحمدية ، فإن المبعوث رحمة للكافة كان عربياً ، تطبيقاً للقاعدة الكريمة التي قررها القرآن الكريم ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، فقد كان المخاطبون الذين حمّلوا هذه الرسالة العامة العرب ولقد قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ﴾ .

وأن النبي ﷺ بعث في العرب الأميين ، كما قال تعالى فيما تلونا : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ، يتــلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ .

ولقد كان القرآن ، لأن النبي محمداً ﷺ عربي ، وبعث في العرب ، كان القرآن عربياً ، فقد قال تعالى: ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ، أو يحدث لهم ذكرا ﴾

وقال تعالى فيه : ﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ، ومن بينـنـا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ﴾ ، وقال تعــالى في القرآن الكريم : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وإنه لفي زبر الأولين ، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل مبين ، ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ، ما كانوا به مؤمنين ﴾ .

فهذا يدل على أن القرآن نزل بالعربية لكي يفهمه العرب ، وأنه لا يفهمه الأعجمون لأنه بلسان عربي مبين . ولقد قــال تعالى في ذلــك أيضاً : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ .

لقد ذكر سبحانه أنه أنزل القرآن عربياً لكي يفهمه العرب فوق أن النبي عربي ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي ، قــل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهــو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

وهكذا نجد الرسالة المحمدية أخذت الصفة العربية ، ولكنهــا ليست مقصورة على العرب بل هي للناس كافة ، وذلك لأن ابتداءها عربي ، وغايتها

عامة شاملة ، لأنها جاءت لإصلاح بني الإنسان أياً كانت لغتهم وأياً كان لونهم أو جنسهم .

ولكنها في ابتداء الدعوة اتجهت إلى العرب ، ليكون منهم الرعيل الأول الذي يحمل أعباء الرسالة المحمدية ، ولذلك عندما أمر الله تعالى نبيه بأن يصدع بما يؤمر به وأن يعرض عن المشركين قال له عز من قائل : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

فالدعوة ابتدأت موضعية في دائرة ضيقة ، ثم اتسعت دائرتها ، حتى شملت العرب ، ابتدأت في أسرة النبي ﷺ ، وهم عشيرته الأقربون ، ثم اتسعت دائرتها ، حتى شملت قريشاً ، وانبثق نورها إلى ما حول أم القرى من الأرض العربية حتى إذا تجاوبت أصداؤها في ربوعها ما بين جاحد مخالف ، ومؤمن موافق ، اتجه النبي ﷺ إلى خارج الديار العربية ، فأرسل الكتب إلى الملوك ليمكنوه من أن يدعو أقوامهم إلى الإسلام ويبلغوهم الرسالة التي حملها الله تعالى محمداً ﷺ ، فأرسل إلى كسرى في فارس ، وإلى هرقل في بلاد الروم ، وإلى المقوقس في مصر ، وإلى غيرهم يدعون بدعاية الإسلام ، وأن يخلوا له طريق الدعوة ، لتسير إلى أقوامهم ، فمن استجاب لها واهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ولكن منهم من أجاب مترفقاً في الرفض ، ومنهم من خشن فيه ، ومنهم من قتل من أسلم من رعيته ، فكان حتماً على النبي ﷺ أن يحمي التابعين للرسالة المحمدية من أن يفتنوا في دينهم ، ولقد جرد لذلك جيشاً لملاقاة الروم ، لأنهم قتلوا من أسلم من أهل الشام .

وخلاصة القول في هذا المقام تستبين من قول النبي ﷺ عندما خاطب عشيرته إذ قال ﷺ : « إني لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة » .

العرب حملة الرسالة المحمدية إلى الناس كافة :

٨ – اختص الله تعالى العرب بأن يكونوا هم المبلّغين – التبليغ الأول بعد وفاة النبي ﷺ ، على أن يعلنوها للناس كافة ، وينشروها بينهم ، ويشقوا الطريق لرفع الظلم عن المظلومين ، المرهقين من حكامهم الطاغين ولكنهم لم يختصوا بموضوعها ، بل هي للناس كافة ، واختصاصهم اختصاص في عبء التبليغ الأول ، لأنهم تلقوا عن الرسول ﷺ ، وهم الذين شافهوه ، وعاينوه ، فكان أول واجب للتبليغ يقع عليهم .

وذلك لأن الشريعة المحمدية كما ذكرنا إلى الناس كافة ، وليس من المعقول، ولا من طبائع الأشياء أن يخاطب صاحب الرسالة محمد ﷺ وحده بها الناس، بحيث يذهب إلى أهل كل إقليم ، وكل جنس ، يذهب اليهم في ربوع ديارهم وأن يخاطبهم بلغاتهم المختلفة وأن يبعثر جهوده في الناس قاطبة إقليماً إقليماً، وجنساً جنساً ، وقد يتضافرون جميعاً ضده متألبين على دعوته ، وبمكاثرتهم له يقضون على الدعوة في مهدها ، ولا تخرج إلى أي مسار في سيرها .

إنما المعقول أن تبتدىء دعوته بعدد من الناس يكونون حواريه وصفوته المختارة من بين من بعث اليهم ، حتى إذا أشربوا الدعوة حملوها لمن وراءهم ، كما قال تعالى . ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون ﴾ .

لذلك كانت الدعوة المحمدية التي بعث صاحبها محمد ﷺ في العرب ابتداء ، وسار بها الدعاة بأمر النبي ﷺ انتهاء ، وابتدأت في أضيق دائرة حتى كان المؤمنون الأشداء في دينهم ، وإن كانوا قليلاً ، لأنهم بقوة إيمانهم يصبرون على الدعوة والجهاد في سبيلها ، ويصابرون المعاندين ، ويتحملون الأذى في سبيلها ، غير وانين ولا مقصرين، والدعوات لا تأخذ طريقهابكثرة أتباعها ، ولكن بقوة إيمان الدعاة ، وإخلاصهم وقوة أخلاقهم .

وما زالت الدعوة من بعد ذلك تسير في الطريق ، حتى حملتهـــا الجموع المتكاثرة ، ولكن الصبر دائمـاً يكون في الصدمة الأولى ، كما قال محمد ﷺ.

ولقد تجاوزت الدعوة أرض العرب إلى الفرس وما وراءهم، والشام، ومصر وما وراءها حاملة النور والهداية، والقوة التي تقف في وجوه الظالمين تأطـُرهم إلى الحق أطـْرا ، ثم عمّت الرسالة المحمدية ووصلت إلى الـــكافة في مشارق الأرض ومغاربها ، وأفاضت بمبادىء الحق والعدل على العالم كالغيث ، فنهل منه من نهل ، وأصاب خصب النفوس وجدبها .

الله أعلم حيث يجعل رسالته :

٩ ـ لماذا اختص الله تعالى العرب بأن يكون في أرضهم مشرق النور الذي انبعث إلى كافة الخليقة؟ ونقول في الإجابة عن ذلك : ان هذا اختيار الله تعالى العليم الخبير ، وما كان لنا أن نعلل اختيار الله تعالى فهو لا يسأل عما يفعـــل ، ولكن نلتمس الحكمة ، ونتعرف المآلات التي ظهرت في الماضي وكانت تظهر آناً بعد ان .

ونقول ابتداء ان أرض العرب كانت مهداً للنبوة الأولى ، فقد قال الثقات من المؤرخين ان إدريس عليه السلام ، وقد كان صديقاً نبياً ، وهو أقدم من نوح ظهر بدعوته في أرض العرب ، وعاش بها ، ونوح عليه السلام قالوا إن دعوته كانت بالبلاد العربية ، ويرجح ابن جرير أنه دفن في البلاد العربية .

وهود، وصالح، وشعيب ، كل أولئك كانوا عرباً، وبثوا دعوتهم في البلاد العربية، وموسى عليه السلام لم يبعث إلا في أرض عربية، فإذا كان قد ربّي في قصر فرعون ، وعاش في جنبات مصر وخصبها ، فإنه لم ينزل عليه الوحي إلا في أرض مدين، ولم يتلق كلماته إلا فيها ولما استنقذ الله تعالى به بني إسرائيل كان مأواهم في سيناء، حيث مشارف الأراضي العربية .

وإذا كانت رسالة الكافة التي حملها محمد ﷺ ، قد كان مهبطها في البلاد العربية ، وفي أوسط ديارهم وأكرمها عند الله تعالى ، فإن ذلك لم يكن بدعا بين الرسالات الإلهية ، وخصوصاً أن مهبط دعوته كان في مكة التي بها حرم الله الآمن في الجاهلية والإسلام ، وهي بناء أبي الأنبياء ، ابراهيم وأبي العرب من ولد عدنان .

لذلك نقول إن أرض العرب فيها آثار النبيين التي تدعو إلى الاعتبار وفيها العبر وفيها المثلات لأنها أرض الرسالات الإلهية التي بعث بها النبيون الذين دعوا الى الله تعالى مبشرين ومنذرين .

١٠ – وان العرب في طبيعة أرضهم ، وفي طبيعة نفوسهم ، ما يجعلهم أصلح الناس لحمل عبء الرسالة المحمدية بمبادئها العامة الشاملة .

فأرضهم لا مطمع فيها لمتحكم أو مسيطر أو كما كانت إبان الدعوة المحمدية وهي لم يغلب عليها قوي ، وإذا كانت فيهم عيوب ، فإنها لا تتعلق بالنفس العربية ، وإنما تتعلق بالمعرفة التلقينية ، إذ كانت أمة أمية ، وعرفوا في في التاريخ باسم الأميين ، وقد عبر القرآن الكريم عنهم بذلك التعبير .

ولم تَجر على نفوسهم الذلة التي يفرضها حكم الطغاة من الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة كما قال تعالى حكاية عن بلقيس : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون ﴾.

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتمرسوا بظلم الملوك هي التي حملت رسالة العزة وهي أرض الحرية والشجاعة ، ولا يمكن أن ينقل إلى الناس وبين العزة والكرامة والإقدام إلا الذين أبوا ذل الملوك والذين تحملوا شدائد أرضهم وقسوة الحياة فيها .

وأنه لا ينقل دين الكرامة الإنسانية والعمل الصالح إلا الأحرار الذين يأبون الدنية ، ويرضون ببذل النفوس في دفعها وليس ذلك إلا في العرب وأرض العرب .

ولذلك ما ان انطلقوا بالإسلام وخرجوا من ديارهم دعاة بدعوته إلى الحق إلا شقوا طريق النور والحرية والعدالة فكانوا يهدون إلى الحق من غير موناناة، ولا فرار من شدة أو بَأس ، ولا يتركون الشدة إلى الدعة والرخاء ، لأنهم تحملوا آلام الصحراء ، وعاشوا في حرورها .

وترى لو تصورنا أن تكون النبوة العامة الشاملة في غير أرض العرب ، أتكون في أرض القياصرة حيث يتطامن العامة لحكم القيصر ،ويديثون نفوسهم بالصغار، حتى يحسبوه من طينة غير طينتهم ، وحيث لا يحكم فيهم إلا الهوى وحيث العنصرية الجاثمة على النفوس لهوى الحكام ، والخروج عن مبادىء المساواة الانسانية .

وإذا لم تكن أرض الرومان صالحة لدعوة الكافة إلى دين تمحى فيه العصبية والعنصرية والتعصب للجنس واللون والقومية ، أفتكون أرض فارس هي أرض النبوة، حيث فرض كسرى الذلة على الشعب ،وتوزعتهم سيادة الاشراف إذا تزايلت أو وهنت سلطة الملك ، وانتقل الشعب من الذل والهوان الملكي إلى ذل الارستقراطية ، وهوان الناس في ظلها .

وهم في الحالين قد لانت نفوسهم ، وضعفوا وهانوا واستكانوا ، وما كان هذا الشعب في ذلته هو الذي يحمل الدعوة إلى العزة والكرامة الإنسانية التي قررها الإسلام في قوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ .

لا يمكن أن يحمل عبء الدعوة إلى الحق والعزة والكرامة من أمات الظلم والتحكم نَخْوتَهم وألفوا الخضوع المطلق للحاكم ، ورضوا بالحياة الدون ، والمنزل الهون ، فإنه لا يدعو إلى العزة إلا الأعزاء ، ولا إلى الكرامة إلا الكرماء .

١١ - وهل يتصور أحد أن تكون أرض الفراعنة هي التي تدعو إلى إسقاط حكم الفراعنة ، وبيان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . ومـــا انتقلوا من حكم الفراعنة إلا إلى حكم لا يقل عنه طغياناً وعتواً وفساداً، انتقلوا إلى حكم اليونان ، ثم إلى حكم الرومان ، فهم يسارعون في الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع إلى قطاع ومن جانب إلى جانب وينفضون رؤوسهم على من يحاول أن يبث فيهم روح العزة والكرامة قال لهم فرعون : أنا ربـــكم الأعلى فصدقوه ، وقال لهم أليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي فلم يكذبوه ، وقال لهم أليس لكم من إله غيري ، فقالوا أنت الإله .

إن موسى عليه السلام بعث في غير أرض مصر . ولما دعا فرعون وملأه إلى دخول الحق ما آمن معه إلا قليل وخرج باليهود ناجياً بهم ، وكانوا قد تمرسوا بالذل في أرض فرعون ، وهانت نفوسهم ، وماتت الهمة عندهم .

١٢ - ولو تجاوزنا شرقي الجزيرة العربية وشمالها وغربها ، واتجهنا إلى ما وراء ذلك حيث خراسان، وحيث البراهمة في الهند فإننا لا يمكن أن نتصور أيضاً أن تكون الهند صالحة لأن ترعرع فيها المبادىء التي أتى بها الاسلام من مساواة بين الناس ومحو الطبقات بينهم ، وأن يكونوا سواسية كأسنان المشط كما قرر الإسلام ، وكما دعا إلى ذلك محمد ﷺ ، فإن الديانة البرهمية كانت تجعل الناس طبقات ، طبقة العلماء البراهمة ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الاله براهمـــا ، وطبقة الجند ، ويزعمون أنهم خلقوا من ساعديه ، وطبقة الزراع والتجار ويزعمون أنهم خلقوا من ساقيه ، وطبقة الخدم، ويزعمون أنهم خلقوا من قدمه ووراء ذلك أنجاس الناس الذين ينجس لمسهم كل شيء .

وقد ارتضى الشعب تلك الطبقية ، وتغلغلت في نفسه ؛ لأنه حسبها ديناً واجب الاتباع وأوامر واجبة الطاعة فهـــل كان يتصور أن هؤلاء هم الذين يدعون إلى مبادىء المساواة ، والعدل الاجتماعي ، وأن الجميع سواء أمام الله

تعالى وأمام القوانين والنظم التي شرعها الله تعالى ، والناس أمامها سواء،وقد يتفاضل الناس فيما بينهم ، ولكن معاملة القانون لهم واحدة ، فمن أساء فعليه إساءته ، ومن أحسن فلنفسه ، وما ربك بظلام للعبيد .

العرب أصلح الناس لتلقي الرسالة إلى الكافة :

١٣ – العرب هم الذين يستطيعون تعميم الرسالة إلى الأجناس كلها ، وإلى الأقاليم في شتى الأرض لأن الرسالة العامة رسالة محمد ﷺ لا يمكن أن تعم كل بقاع الأرض في الأجل القصير الذي عاشه ، فلا بد أن يحمل تبعة التبليغ من بعده قوم شداد، وليسوا غلاظاً لكن أقوياء متراحمون ، وقد توافرت عدة عناصر فجعلتهم المختارين لتحمل عبء التبليغ بالرسالة العامة : أولها – أن العرب لم يخنعوا ولم يذلوا الملك ، أو طاغية كما ذكرنا ، بل كانت الحرية طبعاً فيهم ، ولم تتكون فيهم تقاليدالطاعة للحكام التي كانت في غيرهم وصحراؤهم عودتهم قوة النفس والجلد ، وتحمل الشدائد ، مع ضمير نقي خالص وقوة شكيمة ، وان الحضارات وترفها تولد في النفس رخاوة لا يكون معها قدرة على التحمل والصبر على الشدائد .

وثانيها – أن الأرض العربية إبان ذاك لا مطمح فيها لمستعمر كما أشرنا ، ولا يستطيع مسيطر أن تستغرق سيطرته جميع العرب ، فكانت الأرض العربية حصناً يمنع الغزاة ، وكانت النفس العربية حصناً آخر لمبادىء الحرية والمساواة والعدل ، ولم تركن النفوس بذل الملكية ، ولا بطغيان الاشراف واعتبر ذلك بحال العرب مع الدولتين اللتين كانتا تصاقبانهم ، فما استطاعت واحدة من الدولتين أن تتغلغل في داخل الأرض العربية وما تجاوز سلطانهما نفوذاً على بعض الأطراف العربية كنجران ، في الجنوب ، وغسان في الشمال.

وثالثها – أن العرب فيهم قوة شكيمة وقوة خلق طبعتها فيهم أرضهم وامتاز العربي بالسماحة والجود، وحسن تأت للأمور إذا وجد الموجه، ووجد

القائد الحكيم ، فإن العربي أنِفٌ وإن أبلغ كلمة في وصف العربي قول الإمام عمر رضي الله عنه إذ يقول : « مثل العرب مثل جمـــل أنف فليعلم قائده أين يقوده ».

وبذلك اجتمع في العربي قوة في النفس تقاوم ، ولا تستسلم ، وصفاء نفس وقوة مدارك ، احتفظوا بها في جاهليتهم ، كما حافظوا عليها في إسلامهم ، وذلك مع صدق النفس ، والصدق في القول ، وصدقهم في القيام بالعمل الذي يوجهون إليه .

وكانوا مع ذلـك ذوي أنفة ، لا يطيقون أن يعيشوا في ذلة ، بل يتبعون في هداية ورشد مختارين غير مجبرين ، ولقد جاءت رسالة محمد ﷺ ، فهذبت نفوسهم وبدت سجاياهم ، وشقوا بها طريق النور في وسط الظلمات .

١٤ – انّ الدعوة الاسلامية تحمل في مغزاها ، أمرين جليلين ، والعرب أصلح الأقوام في عصر الرسالة المحمدية لحملها .

أولهما : العقيدة الاسلامية وهي عقيدة التوحيد، وأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

ثانيهما : الشريعة الإسلامية التي تقوم على مبادىء العدل والمساواة، والعزة والحرية ، والكرامة الإنسانية ، وقد أشرنا فيما مضى من قولنا إلى أن أصلح الناس في عصر البعثة المحمدية لتلقي مبادىء الحرية والعزة والكرامة والمساواة هم العرب الذين لم يرهقهم ذل الطاعة للطغاة ، بل اقتضى مطلب العربي أن يعيش حراً في خبائه آمناً في سربه ، لذته في أن يستقبل الحر ، ويستبرد بالظل والريح ، وما دام عنده قوت يومه فعنده الدنيا بحذافيرها .

ولم يكن العربي قد خضع لعادات أهل الحضارات من رخاوة في العيش أورثتهم رخاوة في الجسم والنفس ولم يكن عندهم تقاليد وعادات حضرية تقف محاجزة بين الدعوة وتغلغلها في النفوس ، وسيطرتهـــا على القلوب ،

فنفوسهم على الفطرة أو أقرب إليها ، فهي كالصفحة البيضاء صالحة لأن تخط فيها خطوط العدل والمساواة والحرية بكل ضروبها ، ومثل البدوي والحضري المحكوم بالملوك والطغاة أو من يتشبه بهم ، كمثل صفحتين إحداهما خالية بيضاء تسر الناظرين تخط فيها خطوط الشريعة السماوية من غير محو وإزالة أولاً ، وهي متقبلة لكل ما يرسم ، والأخرى صفحة مملوءة بالرسوم المختلفة لا يرسم فيها الجديد النقي إلا بعد محو وإزالة ، وبعدهما تبقى مغبرة. حتى يصقلها الزمان ، ويمحو منها ما أبقاه الماضي السحيق ، وما كان له من أثر عميق .

تلك مثل الصفحة العربية ، وهذه مثل الصفحة الرومانية أو الفارسية أو المصرية أو الخراسانية وإن الجزء الأول ، وهو العقيدة ، وقد ذكرنا أنها الوحدانية : وحدانية الله سبحانه وتعالى والإيمان به سبحانه ، ونقول إن العرب في عصر البعثة المحمدية كانوا أصلح الناس قاطبة لحمل دعوة التوحيد لذات الله تعالى وصفاته ، لأن الشرك كان يعم النفوس ، فالرومان كانوا على مقربة من عبادة التماثيل ، ولما دخلت النصرانية أرضهم شوهوها قبل أن يدخلوا فيها فعبدوا الثالوث المقدس في زعم النصارى . ولم يعرفوا الله إلا وله ولد ، ومعهما روح القدس ، ومثلهم في ذلك أهل مصر ومن وراءها من غرب افريقية .

والفرس كانوا يعبدون النار ، ويتصورون أن المعبود في النار المشتعلة .

وكان من ورائهم في مشارق الأرض الديانة البرهمية التي آل أمرها إلى أن كانت تعبد كرشنو ، على أنه مولود براهماً ، وذلك مع ما ذكرنا من أن الطبقية متغلغلة في اعتقادهم على أنها جزء من الدين لا ينفصل عنه .

والبوذية التي انبعثت من البرهمية ، وفارقتها، وخلصت إلى مبدأ المساواة وهجرت الطبقية وقامت على الزهد المانع لما تتقاضاه الفطرة وتتطلبه، ولكن آل أمرها إلى وثنية ، فقد صار بوذا يعبد فيها على أنه ابن الإله ، كما كان الأمر بالنسبة لكرشنو .

ويلاحظ أن هذه الديانات كانت في بلاد لها حضارة وفيها تقاليد،فالعقائد فيها راسخة ثابتة عميقة في النفوس متغلغلة في أجزائها ، والقلوب مملوءة بها ، لا سبيل لتغييرها بيسر ، بل إنها تأشبت في النفس واستغرقتها ، وتحتاج لإخراجها منها إلى زمان قد يمتد ، لأن الزمان قد ثبتها ، فتحتاج إلى زمان لإزالتها .

١٥ والنفس العربية كانت أقرب إلى الاستجابة لدعوة التوحيد من غيرها من الذين ذكرناهم ، وذلك لأن العرب وإن كانوا وثنيين ، كانوا أقرب إلى التوحيد من الفرس والرومان والمصريين ، والبراهمة وغيرهم .

إذ أنهم لم يكن لهم عقيدة ثابتة مستقرة ، كما لم يكن لهم عادات وتقاليد في نظم الحكم لا تتسع للحرية والنظم الاجتماعية التي جاء بها القرآن ، بل كانت عقائدهم في الأوثان غير متغلغلة في أعماق نفوسهم ، كعقائد النصارى في الثالوث ، وعقائد الفرس في النار ، وعقائد الصابئة في النجوم ، وعقائد البراهمة في براهما ، وكرشنو ، وعقائد البوذيين في بوذا ، بل كان الغشاء الذي يغشي صفحة الاعتقاد في نفوسهم واهٍ غير صفيق،وغير ملاصق للنفوس، بحيث يصعب فصله عنها .

وذلك فوق أنهم يؤمنون بأن الله تعالى خالق كل شيء وحده ، وأنه الفاعل المختار، وأنه الرزاق ذو القوة المتين، وكانوا إذا حزبهم أمر لا يلجؤون إلا اليه ، وإذا مسهم مرض لا يدعون غيره ، كما قال الله تعالى ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره، مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾، ويقول تعالى : ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم ، إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس

إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم ، فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

ويقول سبحانه وتعالى آمراً نبيه بمخاطبة العرب المشركين : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون، فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ، قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلاّ أن يهدى ، فمالكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم الا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون ﴾ وإن هذه الآيات الكريمات تدل على أن العرب كانوا يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض ، وهو المدبر ، وهو المنجي عند مشارفة النفس إلى التهلكة ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه لا أحد من شركائهم ، وهم الأوثان في قدرته أن يفعل ما يفعل الله الحكيم العليم ، وأنهم يتجهون اليه وحده في شدائدهم ، وما ينتابهم من كوارث .

ويدل أيضاً على أن عقائدهم في الأوثان تصيب صفحة النفوس ، ولا تتغلغل فى أعماقها ، ولذلك قال الله تعالى عنهم : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ .

وعقيدة الوحدانية في كالها تتضمن عناصر ثلاثة ، وهي وحدة التكوين والخلق ، فالله وحده الخالق المدبر لكل شيء ، ووحدة الذات فلا يماثله في ذاته وصفاته أحد « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، والعنصر الثالث من الوحدانية ألا يعبد سواه سبحانه وتعالى .

والعنصران الأولان ثابتان عند العرب ، فهم يذعنون لإرادة الله وحده في الخلق والتكوين ويعلمون أنه لا شيء يشابه ذاته الكريمة .

ولكن مع إقرارهم بوحدانية الخلق والتكوين والذات والصفات يشركون في العبادة مع الله تعالى الأوثان ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ولكنهم يقولون مع ذلك : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

١٦ – وعلى ذلك نقرر أن العرب دون غيرهم من معاصريهم كانوا يعرفون الله سبحانه ، ويعرفون أنه وحده الخالق ، الفعال لما يريد ، وأن ذاته الكريمة منزهة عن مشابهة الحوادث وأن صفات الذات العلية منزهة عن أن تكون كصفات الناس أو الأشياء ، وإذا كانوا منحرفين إلى الوثنية فان ذلك في العبادة .

ومن السهل أن تثبت لمن يعرف الله بطلان عبادة غيره ، فان ذلك أسهل بلا ريب من حمل من لا يعرف الله تعالى على الايمان به . لأن الأول لا يحتاج إلا إلى خطوة واحدة وهي بطلان عبادة الأوثان مع الله الخالق المدبر السميع البصير ، وأن هذا يؤيده الحس لأن الحجر لا ينفع ولا يضر .

أما الآخر ، فانه يحتاج إلى السير في خطوتين : إحداهما – أن تعرفه بالله تعالى وأنه وحده الخالق ، لا الشمس ولا النجم ولا النار ، وليس لواحد من هذه الأشياء قدرة على الخلق والتكوين ، وليس ذلك سهلاً على الواعظ المرشد ، ودخوله إلى العقول الجاحدة أشد صعوبة والخطوة الثانية إثبات وحدانية المعبود ، وليست في صعوبة الاولى ، وتقرر هنا أن الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة ، أو يقولون إن لله ولداً ، لا يعرفون ذات الله تعالى ، ولكي يقنعهم المرشد إلى وحدانية الله تعالى يحتاج أولاً إلى التعريف بالله تعالى وصفاته ، وتلك خطوة ، ويحتاج ثانياً إلى نفي البنوة ، ثم يثبت الوحدانية

وإن العرب كانت فيهم بقية من الحنيفية ديانة ابراهيم ، وقد وصلتهم به الكعبة ومناسك الحج ، فان البيت الحرام الذي كان مثابة للناس وأمناً قد بناه ابراهيم وابنه اسماعيل ، وقامت مناسك الحج على أساس من شريعة ابراهيم عليه السلام ، فكانت بذلك لها نوع من الاستمرار ولقد كانوا يقومون بالاحرام ، كما فرض في شريعة ابراهيم على تحريف في بعض ألفاظه ، ليقاربوا بهذا التحريف القليل بين ما أثر عن ابراهيم عليه السلام ، وما اعتراهم من انحراف في الاعتقاد توجه بهم إلى الشرك .

وإذا كانت الأصنام قد أحاطت بذلك المعبد الذي هو أول بيت وضع للناس كما قال الله تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ . فان هذه الأصنام لم تقطع العلاقة النفسية بينهم وبين ابراهيم عليه السلام ، وإن انحرفت بها عقولهم وأفكارهم وحادوا عن الجادة المستقيمة بها .

وإن ابراهيم أبو الأنبياء هو أبو اسماعيل الذي يعتز به العرب ، وأبو إسحاق ومن جاء من ذريته من الأنبياء ، فكان الاتصال النسبي موجداً لهم عزة ، وملقياً في نفوسهم بالتأثر إلى حد بعقيدته ، وقد كانت عقيدة التوحيد الخالصة ملته ، وقد ذكرهم القرآن بذلك ، فقال تعالى ﴿ ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

وأخيراً إن العرب بوجود الاعتراف بالخالق المنزه عن مشابهة الحوادث ، وبانفرادهم بمعرفته مع وجود الوثنية فيهم ، عن غير اعتقاد جازم وعلم قاطع بل على أنه وهم وظن ، لم يستغرق النفوس ، ولم يصل إلى أعماقها ، إن العرب بهذه الحال التي كانوا عليها ، كانوا أقرب الناس لفهم عقيدة التوحيد التي هي الدعامة الأولى للإيمان ، فلا إيمان بغيرها ، وذلك مع استعدادهم لكل مبادىء الاسلام ، فلا غرابة إذا انبثق نور الإسلام في أرض العرب ، وهبط الوحي بين ظهرانيهم ، الله أعلم حيث يجعل رسالته .

تكوين الوحدة الإسلامية
في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

١٧ – في التمهيد بينا أن دين محمد كان دين الانسان في كل بقاع الأرض ، وأن العرب قد انبعث فيهم نور الاسلام لأنهم كانوا أكثر الناس قابلية لمبادئه ، وأصلحهم لحمل أعباء التبليغ بعد محمد ﷺ .

وأن صاحب الرسالة الالهية هو خاتم النبيين محمد ﷺ، فلا بد أن تكون دعوته متضمنة معنى الوحدة الاسلامية ، وأن يكون خطابه للناس كافة لا للعرب وحدهم وإن كان بلسان قومه العرب، وأول من تلقى الدعوة العرب أنفسهم ، وكانوا أول المخاطبين بها كما قال عليه السلام في خطابه لعشيرته الأقربين « إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة » .

ولنقرأ قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾، وانك لتجد النص الكريم يخص ويعم، يخص العرب بأن الرسول الكريم ﷺ من أنفسهم وأوسطهم وأعلاهم شرفا ، وأنه عليه السلام يعز عليه أن يضلوا بالاستمرار على وثنيتهم ، وأنه حريص على أن يؤمنوا ، ويرفع عنهم جبت الجاهلية ويعم المؤمنين أجمعين بأنهم أهل رحمته ورأفته ، لا فرق بين عجمي وعربي ، ولا أبيض، ولا أسود، ولا أحمر ولا أصفر ، لأن الجميع ينطبق عليهم وصف الإيمان ، فالرحمة والرأفة بكل مؤمن .

وإن أول من أجابوا دعوة النبي ﷺ كانوا من أجناس مختلفة، لا من العرب وحدهم، روى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: «أول من أظهر الاسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وخديجة وبلال، وأبو بكر، وعمّار، وأمه سمية، وصهيب، والمقداد بن الأسود»، وليست رواية الإمام أحمد في بيان أول الناس إسلاما، إنما هي في بيان أول من أظهر الإسلام وأعلنه جهرة أمام قريش مصابرا لأذاهم،

ويلاحظ أن أولئك يمثلون عناصر انسانية مختلفة، ففيهم الرجال والنساء، وفيهم الأشراف والضعفاء، وفيهم الأحرار، ومن كتب الله تعالى عليهم الرق، وفيهم العربي والحبشي الأسود، والرومي من بني الأصفر، فيهم بلال الحبشي وفيهم صهيب الرومي الذي قال فيه محمد ﷺ: «صهيب سابق الروم.»

وورد في بعض الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: «كل نبي بعث في قومه خاصة، وبعثت الى كل أحمر وأسود، وإن بلالاً أول ثمار الحبشة، وإن صهيبا أول ثمار الروم».

وعندما هاجر ﷺ إلى المدينة التقى بأول ثمار فارس سلمان الفارسي الذي قال فيه ﷺ «سلمان منا آل البيت»

فمحمد عليه السلام لا يكتفي بإعلان الوحدة في شكلها الاسلامي العام، بل يعمل على إدماج الناس بعضهم مع بعض بالموالاة، فكان سلمان بحكم الموالاة لمحمد من آل البيت.

وهكذا نجد عموم الدعوة في الواقع المحسوس، ولا يكتفى بالقول المكتوب، أو الخطاب المسموع، بل يكون العمل هو الميزان الثابت.

١٨ - والنبي ﷺ لم يحقق الوحدة بدعوته فقط، بل ثبّتها وأكّدها وقوّاها طول حياته عليه السلام بعد البعث وذلك أولاً - باتصاله عليه السلام بالدول المختلفة، ولقد ذكر ابن القيم للدعوة المحمدية خمس مراتب:

أولاها : النبوة ، وثانيتها : إنذار عشيرته الأقربين ، وثالثتها : إنـذار قومه ، والرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله ، وهم العرب قاطبة ، ويقول ابن القيم : الخامسة : إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والانس إلى آخر الدهر ، وأقام ﷺ ثلاث سنين يدعو إلى الله تعالى مستخفياً ، ثم نزل عليه ﴿ فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ﴾ فأعلن رسول الله ﷺ الدعوة وجاهر بها قومه فقابلوه بالعداوة واشتد الأذى عليـه وعلى المسلمين ، حتى أذن لهم بالهجرة .

ولنشر بكلمات مبينة لهذه المراتب ، وصلتها بالوحدة الإسلامية الجامعة:

فأولها . النبوة – كما سمى ابن القيم المرتبة الأولى ، وهي التي أعلم فيهـا محمد ﷺ مبعثه من الله تعالى لخاصته ، وصفوة أصدقائه ، من أمثال أبي بكر ، ومن دخلوا معه في دين الله تعالى ، من ذوي الثقة بالنـبي ﷺ الذين أدركوا موضع الحق في دعوته عليـه الصلاة والسلام ، وكان لهم من نفوسهم الطاهرة المخلصة ما أدركوا الحق بمجرد التنبيه إليه ، وبيان نوره بين أيـديهم من غير تلكؤ ، بل كان يكفي لأمثالهم أن ينبهوا إلى أن ما هم عليه من عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع ليعلموا الهدى من الضلال ، والحق من الباطل ، وكان هؤلاء الذين استجابوا للحق لذات الحق ، مُطـَّرحين الباطل الذي علموا بطلانه.

وكانوا يستخفون بعبادتهم ، وبما أخلصوا به لله تعالى ، وكانوا يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، واسمه عبد مناف ، ويقول علماء السيرة الشريفة أن عدتهم لم تكن قد تجاوزت الأربعين أو ذرّفت نحوها .

وكان يتمثل في هؤلاء الأربعين أو من دونهم عدداً الذين آمنوا بالحق بمجرد انبلاجه المجتمع الإسلامي المؤتلف فكان فيهم قرشيون من كل بطون قريش ، وكان فيهم الأعاجم ، فكان صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وكان فيهم الاشراف كأبي بكر وعثمان وطلحة بن عبدالله ، وكان فيهم الضعفـاء الذين اختبرهم الله تعالى بالرق الذي استذل أجسامهم ، ونفوسهم أعلى من نفوس الأحرار

كصهيب وبلال ، وعمار بن ياسر وأمه سمية الذين أوذوا في الله ، من بعد ، حتى كان النبي ﷺ إذا مر عليهم يقول: « صبراً آل ياسر فان موعدكم الجنة ».

أولئك كانوا المجتمع الأول للإسلام،وهو مجتمع صغير يصور المجتمع الكبير بعد أن دخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً أفواجا،وبعد أن شرقت الدعوة الإسلامية وغربت .

وأولئك هم الذين كانوا هم الأبدال الأطهار الذين كان علو الاسلام بايمانهم .

١٩ – المرتبة الثانية من مراتب الدعوة ، جاءت بعد الأولى ، وكان فيها عدد المؤمنين ينموقليلاً ويقوى كثيراً،وقد مكث الاستخفاء كما يقول ابن القيم نحو ثلاث سنـــين ، الدعوة في كِنّ ساتر ، وخلايا تتولد فيها النفوس ، حتى إذا قوي الاسلام في خليته الأولى بقوة النفوس ، أمر الله تعالى نبيه بأن يصدع بالحق ، ليشق بنوره ظلمات الجاهلية فقال عز من قائل ،﴿ فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك ، وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

وقد ابتدأ النبي ﷺ فدعا عشيرته الأقربين استجابة لقوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ،وتوكل على العزيز الرحيم ، الذي يراك حين تقوم ، وتقلبك في الساجدين ، إنه هو السميـع العليم ﴾ .

وإنّ هذا النص الكريم مع ما سبق يدل على أمرين :

– أحدهما – أنه تكونت جماعة الحواريين الذين كانوا يستخفون بعبادتهم ولا يستعلنون وان كانوا مستيقنين مذعنين مؤمنين ، أخـذ يتجه إلى الاقرب فالأقرب من المتصلين ، لتكون الدعوة سارية بسنة التدرج فتكون للأقرب فالأقرب ، وتتسع دائرتهـا شيئـاً فشيئاً ، حتى تعم العالم كله .

الأمر الثاني : أن الابتداء بالعشيرة لا ينفي أن الأولين هم قوام الدعوة ، وإن كان فيهم ضعفاء ، ولذا قال سبحانه : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ وكررها في الآيات الثانية ، والآيات الأولى ليبين سبحانه أن دعوة الأشراف لا تنسى الضعفاء ، وأنه يجب تأليف القلوب عامة ، وتقريب النفوس كما قال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

والمرتبة الثالثة قريبة من المرتبة الثانية ، لأنها لقومه ، والقوم هو الأسرة الأوسع كما أن العشيرة هي الأسرة الأقرب ، وبذلك ، تتدرج الدعوة من الأسرة الصغرى إلى الأسرة الكبرى ، وقال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ﴾ .

وفي الأمر بالتوكل في قوله تعالى : وتوكل على العزيز الرحيم ، وقوله تعالى عليه توكلت اشارة إلى أن الابتداء بالعشيرة وقومه ، لا للنصرة بهم ، لأن النصر من عند الله العزيز الحكيم ، إنما هو للتدرج في الدعوة من القريب الداني إلى البعيد النائي ، ولتأليف الجماعات المتنافرة .

ففي دعوة قومه من قريش يحاول تأليف البطون المختلفة من بطون قريش المتنافرة ، وفي اتباع بعض هؤلاء متناسين تنافر العصبية الأولى انشاء للوحدة ، وتأليف للقلوب .

وفي المرتبة الرابعة كانت الدعوة للعرب الذين ما أتاهم من نذير من قبل محمد ﷺ ، وليس المعنى أنهم لم يأت إليهم نبي من قبل ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، وإنما المعنى أن النبي ﷺ جاءهم على فترة من الرسل ، ونسوا التوحيد ، والبعث والنشور ، وإن لم ينسوا الله .

وقد كانت الدعوة حينئذ للعرب أجمعين الذين فرقتهم قبل محمد ﷺ

العصبيات المتنازعة ، وكان لا بد أن يلتقي بالقبائل ، ويخرج من حيز مكة إلى حيث مختلف القبائل والمنازع .

التقاؤه بقبائل العرب في موسم الحج :

وبعـد أن آمن من آمن بمكة ، وعادى دعوة الاسلام من عادى وتحمـل المؤمنون الصادقون مـا تحملوا ، وآذى المشركون الضعاف من قريش الذين ايس لهم عصبية تحميهم، ولا قرابة تدفع عنهم حتى انه لم يمنع الأذى الشديد، والاستهزاء العنيـد عن بعض الكبراء ممن آمن من قريش ، وكانت الهجرة إلى الحبشة مرتين ، بل مع هذا الإيذاء المتضافر ، والاستهزاء المتلاحق لم ين محمد ﷺ عن الدعوة ، وتكوين الائتلاف العربي الذي تمحى فيه العصبيات الظالمة والعنجهيات الجاهليـة ، وأخذ يعمم الدعوة بعد التخصيص ، ويجمع القلوب المتنافرة.والأهواء المتناحرة،أخذعليه السلام يعرض نفسه على القبائل ، ابتدأ فذهب إلى الطائف فردوه عليه السلام رداً نكراً،وبعد ذلك عاد عليه السلام إلى مكة ليواجه الأذى بعد أن كلبت عليه قريش ، وأعلنت خلافه، وناوأته وأخذت تكيل الأذى للمستضعفين ، بل لغير المستضعفين أيضاً ، من أمثـال أبي بكر وغيره ، من الذين آذاهم الشرك بقوة طاغوته ، وإن لم يكونوا في عشائرهم في أنفسهم الضعفاء .

أخذ عليه السلام يتعرض للقبائل المختلفـة في موسم الحج يدعوهم إلى الله تعالى ، ويثبت صدق دعوته للقبائل قبيلة قبيلة ، فيقول لكل قبيلة : «يا بني فلان ، اني رسول الله تعالى إليكم يأمركم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي، وتمنعوني، حتى أبين عن الله تعالى ما بعثني به » .

وبينما النبي يدعو القبائل بدعاية الله تعالى ، ويخاطب القبائل بدعوته كان من ورائه من يصدّ عن سبيـــل الله تعالى ، وعلى رأسهم عمه أبولهب بن عبد المطلب .

أتى عليه السلام كندة في منازلهم في الحج ، وأتى بني حنيفة ، ولم يكن من هؤلاء ولا أولئك سميع يستمع إلى الحق ، ويجيب داعيه ، ولم ييأس عليه السلام؛فلم يكن اليأس من ديدن الرسل المبعوثين رحمة للعالمين الجامعين لوحدة الإنسانية ، بل استمر دائباً ، قاضيا بدعوته على المنازع الجاهلية، والأثرة التي تفرق ولا تجمع .

يروى في ذلـك أنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجـل وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم لو أني أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب ، ويظهر أنه كان ذا فراسة ولكن لم يكن موفقاً .

قال مخاطباً رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله تعالى على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من من بعدك ، قال الأمر لله يضعه حيث يشاء ، قال الرجل : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، فلا حاجة لنـا بأمرك ، فأبوا عليه .

كانت هذه الاجابة من الرجل دالة على العصبية المفرقة ، ومحمد ﷺ جاء لجمع القلوب ، ودالة على الأثرة القاطعة ، والأثرة تفرق ما بين الأحبة وتنأى بالأثرين عن الاستجابة للحق .

وهكذا كان النبي ﷺ في دعوته إلى القبائل يرغبهم في دين الحق،ويرغبهم في الوحدة الجامعة للمؤمنين ، ويجابه العصبية في مرابطها .

ولنذكر طرفاً مما يدل على دعوة النبي ﷺ إلى الائتلاف بدل الاختلاف وإلى الوحدانية بدل الوثنية ، جاء في الروض الأنف في دعوة النبي ﷺ بني ذهل بن ثعلبة يقول : فيما روى : « دفعنا إلى مجلس ، عليهم السكينة والوقار فتقدم أبو بكر ، وكان مقدماً في كل خير ، فقال ممن القوم ، فقالوا من بني شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر في قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة ومثنى بن حارثة

والنعمان بن شريك (رجال منهم) وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر .

فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

قال له مفروق : إنا لنزيد على الألف ، ولن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم ؟. .

قال مفروق علينا الجهد ، ولكل قوم جد .

قال أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم .

قال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى ، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ،والنصر من عند الله يديلنا مرة ، ويديل علينا ، لعلك أخو قريش .

فقال أبو بكر : أوَقد بلغكم أنه رسول الله فها هوذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك يا أخا قريش .

فتقدم رسول الله ﷺ ، فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له ، واني رسول الله ، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله تعالى ، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

فقال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

قال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً ؟

فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، والله لقد أفِكَ قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ، وهـذا هانيء بن قبيصة شيخنا ، وصاحب ديننا .

فقال هانيء: قد سمعت مقالتك وإني أرى إن تَرَكْنا ديننا ، واتبعناك على دينك ، لمجلس جلسته الينا - زلة في الرأي ، وقلة نظر في العاقبة ، وإنما الزلة تكون مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقـد عليهم عقـداً ... ولكن نرجع ، وترجع ، وننظر ، وتنظر ... وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب هانيء في تركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته الينا ، ليس له أول ولا آخر ، وإنا بين صريان اليمامة وسماوة .

فقال رسول الله ﷺ : « ما هذان الصريان ؟ » .

فقال المثنى : أنهار كسرى ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور ، وعذره مقبول ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أنا لا نحدث حدثا ، ولا نؤوي محدثا ، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا اليه هو مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك ممـا يلي مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : « ما أسأتم في الرد ، إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله تعالى لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم ان لم تلبثوا إلا قليلا ، حتى يورثكم الله أرضهم وأمـوالهم ، ويفرشكم نساءهم ، أتسبحون الله تعالى وتقدسونه ؟ » .

فقال النعمان بن شريك من كبرائهم : الله لك ذا .

فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ .

٢١ – وقد ذكرنا هذا الخبر مع طوله ، كما ذكرنا غيره من قبله ، لنعلم أن النبي ﷺ انتقل بالدعوة من حيز قريش إلى العرب قاطبة ، بدعوة عامة ، لينذر أولئك الأقوام الذين ما أتاهم على قريب من زمنه نذير من قبله ، ولأنه يريد أن يجمع على الرسالة المؤمنين جميعاً ، لا فرق بين قرشي ، وغير قرشي ، ولتعمَّ دعوته القاصي والداني ، ليوحد ابتداء أهل الجزيرة ما كان منهم مصاقباً للروم ، وما كان مصاقباً للفرس ، وحتى تصل اليهم أخبار النبي ﷺ همساً ، أو حديثاً بين الأهلين ، قبل أن تأتيهم الدعـــوة الجهيرة من شخص الرسول ﷺ ، إذ تكون بعد أن تكون النفوس ، قد استشرفت لها، وتسللت إليهم أخبارها .

ولنعلم أن السبيل أمام الرسول الذي هو من أولي العزم من الرسل ، لم يكن زللاً ، بل كان وعثا تدعثره العصبية ، والأنانيـــة ، وغلبة الشقوة عند بعض من يدعوهم .

فقد دعا أهل الطائف فعاندوه ، ودعا بعض الوافدين إلى الحج، واختلط بالقبائل في أسواقها فمنهم من أعرض ونأى بجانبه ، ومنهم من غلبت عليـــه الأثرة ، فاشترط لاتباعه أن يكون الأمر من بعد محمد في الجزيرة العربية ، له ولقومه ومنهم من استقام للحق ، وأدرك مغزى الدعوة ومراميها وغايتها ، وقرر أن الملوك لا يقبلون مثل هذه المبادىء،وتحفظوا في الاجابة ذلك التحفظ لأنهم أعطوا كسرى عهداً ، ألا يحدثوا أمراً ، أو يجيبوا محدثاً إلا بعد أن يعرض عليه ، وقد بين لهم النبي ﷺ أنه داعيه بمثل دعوتهم ، وأنهـــا دعوة عامة لأنها رسالة الله تعالى لا يعلو عليها ملك مسيطر ، ولا تجفو عن رعايا مستضعفين ، وعندئذ أحسوا بمرارة السيطرة ، وبجبوحـــة العزة والارادة الحرة المختارة .

وإن ذلك يزكي عموم الدعوة وعمل النبي ﷺ على جمع المفترقين المتنابذين المتناحرين ، ولقد مكث عليه السلام يدعو العرب في جموعهم في أثناء موسم الحج زهاء سنتين أو تزيدان ، حتى عمت الدعوة وتذاكرت بها الركبان ، وسرى أمرها في البلاد العربية سريان النور ، ومع هذه الدعوة النبوية كانت الدعوة إلى الوحدة من القرشي الذي كانت قبيلته فوق القبائل فخاراً وشرفاً ومحتدا ، ولكنّ محمداً الداعي يرى الجميع أمام الله تعالى وأمامه سواء ، لا فرق بين قبيل وقبيل ، ولا فرق بين ملك وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ولا بين حر وعبد ، ولا عربي ولا كسروي .

ولقد قال ابن اسحاق في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة ، وأتم التسليم « كان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره ، كلما اجتمع الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله تعالى ، وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف ، إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله عز وجل ، وعرض عليه ما عنده » .

فكان عليه السلام ما كان ينتظر موسم الحج فقط بل يتتبع الوافدين طول العام ، ولا يجد أمرأً مسموع الكلمة في قومه إلا التقى به لينبىء من وراءه من الأشراف والضعفاء ، لا يَني عن جمع العرب حول كلمة الله تعالى بعد أن حمل معه الحواريون الأولون .

إلى يثرب

٢٢ – في أثناء عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل كان المعـــارضون له أكثر من الموافقين ، والمناوئون أشد عليه ممن سالموه ، ولكن قوماً من يثرب كانوا أسرع إلى الإيمان من المناوأة والاعتراض .

ذلك أنهم كانوا في فرقة وانقسام ، كان الأوس فيهم والخزرج يتقاتلون وكانت الحرب بينهم شديدة تفرق جمعهم، وتذهب بوحدتهم فجاؤوا إلى مكة يعقدون حلفاً ، ليعين القرشيون الأوس على الخزرج .

وقد علم النبي ﷺ ذلك ، فرأى أن يستمعوا إليه بدل أن يعقدوا حلفا يزيد العداوة بينهم ، ويؤرثها ، ولايطفئها ، فدعاهم إلى الإسلام الموحد لجمعهم وتلا عليهم القرآن الذي نزل رحمة للعالمين .

فوجد سميعا من عدد ضئيل منهم ، ولكنه عليه السلام لم ييأس منهم ، لأنهم كانوا قد أوتوا بعض العلم بالنبوات مما جاء على ألسنة أعدائهم اليهود الذين كانوا إذا اعتركوا معهم ، وعضتهم الحرب بنابها هددوا أولئك المشركين بنبي حان حينه وأدركهم ابانه ينصرهم على المشركين .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يترقب وفود الحجيج ، ويأنس بالوافدين من يثرب ويستشرفهم ويقول ابن اسحاق : « فلما أراد الله تعالى عز وجل اظهار دينه، واعزاز نبيه ﷺ ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي

فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما يصنع في كل موسم وبينا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله تعالى بهم خيراً .

قال لهم رسول الله ﷺ : من أنتم ؟

قالوا :نفر من الخزرج .

قال رسول الله ﷺ من موالي يهود ؟ ، قالوا : نعم ، فقال عليه السلام ألا تجلسون أكلمكم ، قالوا: بلى ، فجلسوا فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

ويقول ابن اسحاق،كان مما صنع الله تعالى عليهم في الاسلام أن يهود كانت في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم على الشرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: ان نبياً مبعوث الآن قد أطل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم : تعلموا والله انه النبي الذي توعدكم به يهود فلا تستبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعا إليه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له إنا تركنا قومنا ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله تعالى بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله تعالى عليه ، فلا رجل أعز منك .

عادوا إلى قومهم من الخزرج ، وحاولوا أن يتصلوا بأعدائهم من الأوس ، لأنهم جاؤوا بأمر جامع لا يفرق بين العناصر بل يجمع الاخوة في الاسلام ، فلا تكون ثمة الدعوة الجاهلية .

العقبة الأولى :

٢٣ — في الموسم التالي جاء قوم من يثرب فيهم من الخزرج الكثيرون ، ومن الأوس من دون ذلك عدداً ، وإن كانوا جميعاً أقوياء في دينهم ، وكان

على رأسهم جميعاً إثنا عشر نقيباً ، وقد بايعهم النبي ﷺ على الأخذ بمبادىء الإسلام ، وقد سمى علماء السيرة هذه البيعة « بيعة النساء » . عن عبادة بن الصامت : كنت فيمن حضر البيعة الأولى ، وكنا إثني عشر ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، قبل أن يفترض علينا الحرب على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا ، ولا نعصيه في معروف . ويقول الرسول : «فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً ، فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذّب » .

وعلّل صاحب الروض تسمية البيعة في العقبة الأولى ببيعة النساء ، لأنها تتشابه مع ما طالب الله به من مبايعة النساء من بعد ذلك عام الفتح ، فقد قال تعالى في سورة الممتحنة :

﴿ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾.

ويظهر على هذا على أن تلك التسمية لم تكن وقت البيعة ، ولكن جاءت بعد ذلك لانعقاد المشابهة بين البيعتين ، وذلك لأن بيعة النساء كانت بعد الهجرة إذ أنها كانت عند الفتح .

ولقد كانت تلك البيعة الطريق إلى نفوذ الإسلام إلى يثرب ، واتجاه أهله اليه ، ولقد أرسل معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير يعلمهم الإسلام وأركانه ويقرئهم القرآن ، ولذلك كان أول من سمي مقرئاً ، وشاع الإسلام في الأوس والخزرج ، حتى انه ما كان بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا دخله الإسلام ، فكان لمحمد ﷺ تابعون يدعون بدعايته بعد أن استجابوا لندائه .

وهنا نجد الظاهرة الكبرى التي رحم الله تعالى بها أهل يثرب ، فقد

اجتمعوا بعد افتراق ، وحرب ونزاع بين الأوس والخزرج ، وكان يوم بعاث الذي قتل فيه بعضهم بعضاً ، والاتصال بالنبي ﷺ يأخذ طريقه، وهم يأخذون طريقهم إلى الشرع الإسلامي ، فكان نور الإسلام مؤلفاً للقلوب ، ومزيلاً لكل العصبية الجاهلية .

وظهر على يد رسول الله تعالى الاسلام الجامع المؤلف للقلوب ، الموجه المجتمع .

العقبة الثانية أو بيعة المنعة والحرب

٢٤ — وتسمى البيعة الكبرى ؛ لأنها التي ختمت الاتصال بأهل يثرب قبل انتقال النبي ﷺ ، وهجرته إلى المدينة ، وقد علمنا أنه عقب البيعة الأولى أرسل النبي ﷺ إلى أهل يثرب مصعب بن عمير يشرح لهم الفرائض الاسلامية ، ويقرأ القرآن ويدعو إلى الإسلام دينا وآخذاً بقول الله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ومضت سنة على وفادته وإقامته ، ثم عاد إلى النبي ﷺ ليتزود منه بزاد التقوى ، وخرج من خرج من المسلمين الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ من الأنصار ، وكان معهم حجاج من قومهم الذين بقوا على الشرك ، ولكن اختص المسلمون منهم أنفسهم بالعمل على لقاء النبي ﷺ فوعدهم عليه الصلاة والسلام أن يلقاهم بالعقبة في أوسط أيام التشريق بمنى ، وكانوا ثلاثة وسبعين .

واجتمع بهم عليه الصلاة والسلام ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب الذي فرض على نفسه حمايته من أذى قريش بعد عمه أبي طالب ، فقد ذهب معه يستوثق ، فلما كان اللقاء كان أول من تكلم العباس رضي الله تعالى عنه.

قال العباس : يا معشر الخزرج (يريد الخزرج والأوس) إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ، ومنعة من أهله، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم،

فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن قد عدنا ، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده ، فقالوا : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ ، وتلا القرآن الكريم ، ودعا إلى الله تعالى ورغب في الإسلام ، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم .

قال البراء بن معرور من كبرائهم : « نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابرا عن كابر .

وقال أبو الهيثم التيِّهان من كبرائهم : يا رسول الله: ان بيننا وبين الرجال حبالا (يعني اليهود) فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : «بل الدم الدم» والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » قال ابن هشام في سيرته « يقال الهدم أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم »

وقد طلب رسول الله أن يخرجوا من بينهم اثني عشر نقيبا ، فأخرجوا منهم أولئك النقباء وكان من الخزرج تسعة لكثرتهم ومن الأوس ثلاثة ، لأنهم كانوا في الحج دونهم عدداً .

وقد قال ابن اسحاق كان البيعة في العقبة الأولى بيعة النساء ، وكان فيها «بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم»

وفي البيعة الثانية : قال ابن اسحاق بايعهم فيهـــا رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود ، وأخذ لنفسه ، واشترط على القوم لربه ، وجعل على الوفاء بذلك الجنة .

بايعهم النبي ﷺ على الايواء والنصرة والمعونـــة ، وكان أول من مدّ يده للبيعة البراء بن معرور ثم تتابع الاثنا عشر نقيباً ، ومن وراءهم ، حتى تمت البيعة واستوثق ﷺ لنفسه ولدينه .

وجمع الله تعالى المختلفين ، وألف بذلك بين قلوبهم .

الهجـــرة

٢٥ – أخذ المسلمون يذهبون أرسالاً إلى المدينة (يثرب) زرافات ووحدانا فارين بدينهم من الأذى والفتنة وتتابعوا في ذلك، والأنصار من الأوس والخزرج يؤوونهم وينصرونهم .

وقد هاجر الكثيرون من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه ، منهم من هاجر مستخفياً ومنهم من هاجر في غير خفاء ، ولكن غير معلنين إلا عمر ابن الخطاب ، فإنه استعلن هجرته ، وخرج إلى ظاهر مكة وقد لبس لأمته وشد عنزته ، وقال شاهت هذه الوجوه ، وأرغم الله تعالى هذه المعاطس، من أراد منكم أن تثكله أمه ، وييتم ولده ، وترمل امرأته فليلقني وراء هـــذا الوادي ، كما قال عنه علي كرم الله وجهه في ذلك .

والنبي قد علم أنه مهاجر لا محالة ، ولكنه ينتظر إذن ربه، وكان صاحبه أبو بكر يَهُم بالهجرة ولكن النبي ﷺ يؤجله ، فيستأذن النبي ﷺ فيها ، فيُحَجّره ، وقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا» فطمع أبو بكر في أن يكون صاحب النبي ﷺ ، وبذلك استأنى ، حتى إذا أذن للنبي ﷺ بالهجرة ، عقب اجتماع الملأ من قريش ليتشاوروا في أمره بعد أن تسامـــع العرب بدعوته ، ووجـــد المستجيبين، وخصوصاً من الأوس والخزرج، وكانت بعض القبائل تتسارع اليه ، وإن لم تكن في قوة أهـــل يثرب اليه ، الذين أحسنوا له المقام ، وآووا ونصروا .

اجتمع الملأ في دار ندوتهم من قريش ، ودارت بينهم المناقشة أيقتلونه ، أم يخرجونه ، أو يثبتونه (يحبسونه) وانتهى أمرهم إلى أن يقتلوه بأن يضربوه ضربة رجل واحد ، حتى تتوزع القبائل دمه ، فتعجز عن الثأر أسرته وتقبل الدية ، ويذهب ما أهمهم من أمره ، وهذا هو ما أشار اليه الله تعالى في قوله : ﴿واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ، ويمكر الله ،والله خير الماكرين﴾ كانوا يدبرون في أمر القضاء على الدعوى بأي طريق من طرق القضاء، والله سبحانه مدبر أمر رسالته وحافظ رسوله الأمين ، ليؤدي الرسالة .

وقد هاجر النبي ﷺ ليلة أن أخذوا في تنفيذ ما استقر رأيهم عليه واعتزموه إلى آخر ما هو مذكور عن الهجرة النبوية ، وما اكتنفها من صعوبات ، في تنفيذها وما انتهت اليه من استبشار المؤمنين بقدمه المبارك على أهل يثرب .

وإن الذين يقرنون الأزمان بالوقائع التي كانت فيها يحسبون أن السبب هو إرادة القتل ، لأن الهجرة اقترنت بها .

ويجب أن نقول إن الاقتران الزمني هنا لا يفيدأن إرادةالقتل هي السبب الباعث المباشر ،بل انه مجرد اقترانزمنيليس فيه سببوسبب،وان السببهو أن أرض مكة ، وإن كانت صالحة لتربية الخلية الأولى لأنصار الدعوة ليست صالحة لحياتها وقوتها وسيطرتها بحيث تتكون منها دولة الاسلام الأولى فان الخلية الأولى تكونت لأنه كان بمكة ضعاف اقوياء في نفوسهم تحملوا شدائد الاستجابة ، وكان فيها اشراف أقوياء في إيمانهم ولكنهم قليل بجوار أهل مكة ، فكانت غير صالحة لأن تقوم فيها دولة اسلامية ، لأن السيطرة عليها كانت للوثنيين .

وكان زعماؤها قد سيطرت عليهم العصبية والرغبة في بقاء سيطرتهم ، وألا يحكمها دين غير ما ألفوا مما عند الآباء .

هذا هو الأمر ، ولذلك اتجه النبي ﷺ إلى الخروج من البلد الحرام، وإن كان أحب بلاد الله تعالى اليه وآ لفها له ، وهي في نفسها أرض مباركة وإن كان الشرك يقيم فيها .

أخذ النبي ﷺ في السنتين اللتين سبقتا الهجرة يدعم دعائم تكوين الهجرة بل تكوين دولة أخرى خارج مكة ، واتجه إلى يثرب ، وما كانت البيعتان الا تمهيداً للهجرة النبوية فكانت البيعة الأولى لبث النظم الاسلامية ، التي يقوم عليها بناء الدولة القوية المانعة للفواحش ، فان هذه الفواحش التي نمّت البيعة ، على أساس ابعادها ، انما هي انهيار للاخلاق والدولة الفاضلة لا تقوم على بنيان منهار تخر قواعده من الاخلاق الفاسدة .

والبيعة الثانية كانت لتكوين الدولة بالذود عن حياضها ، وفي الحق ان البيعتين كانتا لتكوين الدولة الفاضلة ، أو المدينة الفاضلة ، كما يعبر الفلاسفة ، فان الدولة تقوم على الحماية الذاتية ، وأن تكون لها شوكة ، وإن محاربة الفساد في الداخل ، والعدو في الخارج هما الدعامة لتكوين دولة لها قوة تحمي الذمار .

وإن الهجرة كانت أمراً لازماً لتنفيذ أحكام الإسلام الشرعية في المدينة والأسرة وما يمكن محمداً ﷺ والسلطان ليس في يده أن يقيم دولة تنفذ الأحكام الشرعية فتمنع شرب الخمر وتعاقب عليه ، وتحد الزاني والسارق ، والقاذف ، وتقتص من الجاني في عدالة من غير وكس ، ولا شطط .

٢٦ — كانت الهجرة إذن أمراً لا بد منه وهي دور من أدوار الدعوة الإسلامية، ودور من أدوار تكوين الوحدة الإسلامية ، يجتمع المسلمون جميعاً في ظل دولة إسلامية لا تحكمها العصبية الجاهلية ولا الغطرسة الجاهلية ولكن يحكمها عدل الأحكام الشرعية القائم على المساواة في الحقوق والواجبات .

ولقد أوجب القرآن الكريم على كل مسلم أن يهاجر إلى حيث المجتمع الإسلامي الذي يحكم بحكم الله لا بحكم الطاغوت ، وان الأقليات الإسلامية التي تكون بعيدة عن المجتمع الإسلامي الموحد يجب عليها الهجرة إليه لتعتز بعزته، ويقوى هو بانضمامها ، وهجرتها ، ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك ، يحث على الهجرة المستضعفين .

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً ، ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

وإن هذه الآية الكريمة توجب على المسلم الهجرة إلى الجماعة الإسلامية حيث النصرة والمنعة ليعيش في عزها ويستظل بظلها ، وانه يظلم نفسه إن لم يهاجر إلى حيث الجماعة الإسلامية إلا أن يكون من الضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . وتدل الآية أيضاً على أن من خرج مهاجراً إلى الله تعالى لنصرة الجماعة الإسلامية ، ثم أدركه الموت ، فإن الله مجازيه على نيته التي صحبها العمل ، وأجره عليه سبحانه .

وإن هجرة النبي ﷺ علمت كل مستضعف من المسلمين الطريق إلى الجماعة، وهي الهجرة ، حيث الوحدة الجامعة ، والعزة المانعة .

وإن الدخول في الولاية الإسلامية التي هي الجماعة الإسلامية وحكومتها سبيله الهجرة وإنها واجبة ، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك ، ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ .

وإن الميثــاق يجب أن يكون متناولا حماية المسلم ، فليس لحاكم مسلم أن يعقد ميثاقاً مع أي جماعة إسلامية يكون فيها تسليم المؤمن أو خذلانه، وإلا نبذ عهده ، ورد إليه ميثاقه ، فالاستثناء لكيلا يكون القتــال قبل التذكير بالميثاق ، فإن لم يمتنع عن ظلم المسلم ، رد إليـــه عهده ، ونصر المسلم «فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ولا يسلمه ، ومن كان في عون أخيه كان الله تعالى في عونه » .

ومن هذا نجد أن الهجرة التي ابتدأها النبي ﷺ إنما هي لتجميع المسلمين في ظل دولة الإسلام ليحمي المؤمن ، ولينفذ أحكام الله تعالى ، وليطرح حكم الطاغوت قوياً أمينا .

فكانت هجرة النبي وهجرة من اتبعه كانت في سبيـــل تكوين الوحدة الإسلامية وحمل راية الجهاد مجتمعة مؤيدة بروح من الله تعالى ، وبعزة الوحدة التي لا تفرق ، ولذلك : دعا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم المؤمنين إلى الهجرة حيث النصرة والمنعة، فقال تعالى : ﴿الذين آمنوا وهاجروا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾ .

وبهـذا يتبين أن التجمع الإسلامي في ظل دولة الإسلام هو أساس العزة الإسلامية للمستضعفين في الأرض حيث ينقلون إلى دولة التوحيد ، وهذا كله يدل عليه ظاهر القرآن ويدل عليه مقصد الإسلام من تجميع المسلمين .

٢٧ – وقد وردت الآثار عن النبي ﷺ بأنه منع من اقامة المسلم بـــين المشركين ، فقد جاء في كتاب زاد المعاد في هدى خير العبـــاد لابن القيم ما نصه :

« منع رسول الله من إقامة المسلم بين المشركين إذا قدر على الهجرة، وقال أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قيل يا رسول الله ، ولم ؟ قال رسول الله ﷺ : «لا ترآى ناراهما» وقال عليه الصلاة والسلام «من كان مع المشرك

وسكن معه فهو مثله» وقال ﷺ «لا تنقطع الهجرة، حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» ، وقال ﷺ «ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض الزمهم مهاجراً ويبقى في الأرض شرار أهلها ، تلفظهم أرضوهم ، تقذرهم نفس الله ، ويحشرهم الله مع القردة والخنازير» .

وإن هذه الآثار الواردة عن النبي ﷺ تبين مع الآيات الكريمات الدالة على وجوب الهجرة للقادرين عليها ، والا كانوا ظالمين لأنفسهم ولا يرفع الاثم الا عن المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وقد يقول قائل كيف يأمر القرآن بالهجرة المستمرة وبالخروج من بين غير المسلمين والاقامة بين المسلمين لمعاونة جمعهم، وليستظل بلوائهم ولتكون موالاة المسلم للمسلم وحده ، وقد ورد في بعض الاخبار عن النبي ﷺ أنه قال : « لا هجرة بعد الفتح » ونقول في الجواب عن ذلك ان ذلك الخبر لا يمكن أن يكون معارضاً للأخبار المتضافرة عن النبي ﷺ التي روينا ، ولامعارضاً للقرآن الكريم وانه لكذلك غير معارض لأن الفتح في الخبر المراد به فتح مكة ، وأن الهجرة التي نفاها النبي ﷺ هي الهجرة من مكة إلى المدينة ، وهي بلا ريب منفية في موضوعها وذاتها ، لأن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت من ارض الشرك الى ارض التوحيد ، ومن ارض الفتنة الى ارض الأمن ، وبعد الفتح صارت مكة أرضاً اسلامية خاضعة للولاية الاسلامية في المدينة ، والاسلام قد أرز اليها ، واطمأن بها ، وبقي أنها حرم الله تعالى الآمن ، وقبلة المسلمين إلى يوم القيامة ، فكيف تكون منها هجرة من بعد الفتح ، إلا أن يراد تخريبها ، وهي أحب أرض الله تعالى اليه سبحانه ، وإلى نبيه الكريم ﷺ فالنفي الذي ورد في الخبر عنه عليه الصلاة والسلام مقرر لأمر ثابت ، وهو أنه لا يتصور بعد الفتح هجرة من مكة إلى المدينة .

وخلاصة القول في باب الهجرة الذي لا نقصره على هجرة الرسول ﷺ كما هو واضح من بسط القول ، وانما نقصد هجرة المسلم إلى أرض الاسلام

ليكون التجميع الإسلامي الذي تقتضيه الوحدة المقررة الثابتة، والتي عمل لها النبي عليه الصلاة والسلام، من وقت مبعثه الشريف إلى أن قبضه رب العالمين اليه .

ما بعد هجرة النبي ﷺ :

٢٨ – ونعود كما بدأنا إلى هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ،وقد رأينا أنها كانت لتجميع المسلمين ولإقامة دولة إسلامية تنفذ أحكام الإسلام ، وتقيم الحدود ، وتأخذ من الظالم للمظلوم ، وانها سنة التجميع التي سنها النبي ﷺ، ونعود الآن إلى آثار الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وهنا نجد أن أول أثر لها ، كان جمع العرب،وغير العرب في صعيد واحد متآلف بالوحدة الإسلامية ، فقد كان المسلمون من عناصر عربية مختلفة من كل بطون مكة ، ففيها من يمثل كل بطن من بطون قريش ، وفيهم من قبائل العرب الذين دخلوا في الإسلام في أثناء عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل ، فكان كل مسلم من أي قبيلة يجد أن من كمال إيمانه أن يعيش في بيئة الإسلام ، ومدينة يثرب التي صارت مدينة الإسلام ومجتمعه اليه أرز المسلمون جميعاً من بلاد العرب شمالها وشرقها وجنوبها ، وقد رأيت خبر الذين يجاورون كسرى في أرضهم ، وأنهم ارتبطوا معه بالمواثيق ، وما تحللوا منها ،أوهموا بالتحلل منها إلا بعد أن علموا أن دعوة محمد ﷺ للناس كافة ، وتلا عليهم الرسول النص القرآني الذي يصرح بأنه مبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً .

وقد جاء إلى المدينة من أسلم من غير العرب ، وحسبك أن يكون سلمان الفارسي الممثل لأهل فارس في الإسلام وقد روينا لك قول النبي ﷺ الذي يفيد أن أول ثمرة من ثمار الروم صهيب ، وأول ثمرة من ثمار الحبشة بلال ، وإنا بالقياس نقول : إن أول ثمرة من ثمار الفرس ، بل ما وراء من خراسان وما وراء النهر وسمرقند هو سلمان الفارسي ، وحسبه شرفاً وفضلاً أن محمداً ﷺ ألحقه بأسرته إذ كان قد ترك أسرته المجوسية،ودخل في الإسلام الأسرة

الكبرى ، وقال ﷺ : « سلمان منا آل البيت » .وهما من إضافة النبي ﷺ ونعما ذلك التكريم لسليمان الذي كان في صدر الإسلام أمة وحده .

المؤاخـــاة :

٢٩ – كان لا بد من جمع العناصر المختلفة ، والمزج بينهـــا ، ليخرج من تلك العناصر مزيــج متحد في خواصه ، وأوصافه ، يختلف عن أوصاف كل عنصر من عناصر ذلك الممتزج ، والأوصاف الجديدة لهذا المزيج هو أمـــة إسلامية موحدة في الغاية والمقصد ، والاتجاه إلى الله تعالى ، والقيام بالإصلاح في الأرض ، ومنع الإفساد فيها ، وأن يكونوا أهل المدينة الفاضلة الإنسانية.

وأول عمل قام به عليه الصلاة والسلام هو مزج هذه العنـــاصر بعضها ببعض وإيجاد قوة متآلفة من بينها الاخاء أو المؤاخاة بين المسلمين جميعـــاً ، عربهم وأعاجمهم ، وأبيضهم وأسودهم .

فلم يكن الاخاء لمجرد المؤانسة بينهم ، وإيناس الغريب بمن آواه ، وإن كان ذلكفي ذاته غرضاً مقصوداً ، ولكن المراد من الاخاء وضع الدعامة لبناء وحدة إسلامية متجمعة غير متفرقة ، ومتحدة غير منقسمة ، ومؤتلفة غــير متنافرة،وفوق ذلك فيه بث روح المعاونة بين أولئك المؤتلفين وذلك بتكوين أخوة دينية تقارب الأخوة النسبية .

اجتمع في بيت أنس بن مالك المهاجرون والأنصار ، وقد أحصى ابن القيم عددهم فقــال إنهم تسعون منهم من المهاجرين خمسة وأربعون ، ومن الأنصار مثلهم ، ونحسب أن الاحصاء مقرّب لا معيّن ، لأنهم قد يزيدون .

وقد ألف بين كل واحد من المهاجرين ، وأخ له من الأنصار بأخوة تكون مثل أخوّة النسب ، وكان الأخ الأنصاري يشاطر أخـــاه ماله ، وتغلغلت الأخوة في النفس ، حتى همّ بعض الأنصار ممن له زوجتان أن يطلق إحداهما

ويزوّجها لأخيه المهاجر ، كما تذكر كتب السيرة ان تلك المؤاخاة كانت تجعل الأخ بالمؤاخاة يرث في رتبة الأخوة النسبية .

واستمرت حالة الميراث على ذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ .

ونحسب أن آيات المواريث مع هـــذه الآية كانت هي المنهية للتوارث بالمؤاخاة .

٣٠ – المؤاخاة رويت فيها روايتان أولاهما : أنها كانت بين المهاجرين ، والأنصار فقط ، ولم تكن في المهاجرين فيما بينهم ولا في الأنصار فيما بينهم ، وهذه الرواية تجعل المؤاخاة كانت موضعية فيما بين الأنصار والمهاجرة لكي يتم الإيواء ، وليتحقق قول الله تعـــالى في الأنصار والمهاجرين : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهـــم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ، والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممـا أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ،ومن يوق شحّ نفسه ، فأولئك هم المفلحون ﴾ .

والرواية الثانية أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار ، وآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ، والأنصار بعضهم مع بعض ، وقد ضعف هـذه الرواية ابن القيم في زاد المعاد ، وقال في ذلك : وقيل انه آخى بين المهاجرين بعضهم مؤاخاة ثابتة واتخذ فيها علياً أخاً لنفسه...والثابت الأول،والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام واخوة الدار وقرابة النسب عن عقد المؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بـــين المهاجرين لكان أحق الناس بأخوته أحب الخلق إليه رفيقه في الهجرة وأنيسه في الغار ، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق ، وقد قال فيه : « لو كنت متخذاً من أهل

الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل ، وفي لفظ ، ولكن أخي وصاحبي » .

وهذه الاخوة في الإسلام ، كانت عامة ، كما قال النبي ، وددت أن أرى إخواننا ، قالوا ألسنا إخوانك ! قال أنتم أصحابي ، واخواني قوم يأتون من بعدي ، يؤمنون بي ولم يروني ، فللصدّيق من هذه الأخوة أعلى مراتبها ، فالصحابة لهم الأخوة ، ومزية الصحبة ، ولأتباعه من بعده الأخوة ، دون الصحبة » .

وقبل أن نراجح بين الروايتين ، ونناقش منطق ابن القيم رضي الله عنه نقول : إن النبي ﷺ عدّ المتبعين له إلى يوم القيامة اخوانا له ، وإذا كان المؤمنون من أتباعه الذين عاصروه ، خصهم بفضل الصحبة ، فالذين جاؤوا ولم يروه ، واتبعوه شرفهم بفضل الأخوة ، ولا شيء أدل على وحدة الامة الاسلامية في ماضيها وحاضرها أقوى من هذه ، فالوحدة الاسلامية وحدة الاسلام ، ووحدة الاخوة المحمدية .

ولنتجه بعد ذلك إلى الموازنة بين الروايتين ، وكنا نود لو أن الامام ابن القيم ، وهو إمام حافظ في السنة كان يتجه إلى المراجحة بين سند الروايتين ، ولا يتجه إلى مجرد الترجيح بالفرض .

ونقول إن المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض لا يغني عنها النسب ، لأنهم لم يكونوا جميعاً من قبيلة واحدة يجمعها نسب ، بل كانوا من قبائل متفرقة ، ولم يكونوا جميعاً من قريش ، وإن كان أكثرهم من قريش ، فكان لا بد من ازالة كل ما عساه يكون من نفرة جاهلية ، والمؤاخاة التي يباركها النبي ﷺ تزيل العصبية الجاهلية وهي كما تقيم التعاون بين الانصاري والمهاجر تقيمه بين العرب الذين كانوا من قبائل مختلفة ، والأنصار كانوا خزرجا وأوسا وكان بينهم بعضهم مع بعض جاهلية ، وما يوم بعاث ببعيد عن الانظار، وقد

كان النزاع على أشده والنبي يلتقي بالخزرج في عقبة مكة ، فكان التأليف بينهم بالمؤاخاة أمراً تقتضيه ضرورة التوحيد النفسي ، والتآلف الروحي الذي يذهب بأحقاد الجاهلية ، ويفتح قلوب أهل الإسلام على تقوى من الله تعالى ورضوان ، ومحبة بعد البغضاء ، ووئام بعد النزال، واذن فالاخاء كان له باعث وغاية ، ولا استغناء عنه وتكذيبه لهذا السبب مردود .

بقي ما تصدى له من الموازنة بين أبي بكر وعلي ، وأن النبي ﷺ لو كان قد اختار في المؤاخاة أخاً لاختار أبا بكر ، لأنه لو كان يريد أن يتخذ أحداً خليلا ، لاتخذ ابا بكر ، كما أثر عنه ﷺ فيما رواه ابن القيم رضي الله عنه

وإننا نقول : إن للامامين مناقب ، وكل من رسول الله قريب في نفسه وحسه وجهاده وللصديق فضله ، ولعلي فضله واذا فرض أن أبا بكر أفضل لكثرة ثناء النبي ﷺ عليه ، ولما له من مناقب في الاسلام عالية .

فان المؤاخاة لا تقتضي اختيار الافضل، وإن كان لعلي مناقبه في الاسلام الذي سماه النبي ﷺ فارس الاسلام ، واذا كان ابو بكر قد صاحب الرسول في الهجرة ، وهو صاحبه في الغار الذي أشار اليه القرآن الكريم فعلي نام في منام النبي ﷺ ، والمشركون يترصدون صاحب هذا المنام ليتناولوه بالسيف ، فكان على المقدم لفداء رسول الله ﷺ .

وما لنا والمفاضلة بين إمامين نجد أنفسنا لا تعلو الى الموازنة بينهما في الفضل ، ولكن نقول إن المؤاخاة مواساة،ومعاونة ، وليست للفضل ،ولكن للحاجة، ولا شك أن حاجة عليّ في صباه وفي مرباه في بيت النبي ﷺ وهو مقبل على حياة تحتاج الى المعونة ، وكان فقيراً ، ولم يكن ذا تجارة في ماضيه ولا حاضره ، حتى انه عندما أراد أن يقدم معجل صداق لفاطمة رضي الله عنها وعن زوجها وصلى الله وتعالى على أبيها وسلم – لم يكن في يده منه شيء فتقدم الى الصحراء ليحتطب ويجمع من جهده ما يكون صداقا لابنة عمه سيدة نساء العالمين .

ولذلك كان أحق بالمؤاساة من أبي بكر ، وإن لم يكن أفضل منه .

وبذلك ننتهي الى أن الرواية التي نأخذ بها لم تكن مقصورة على الموالاة بين المهاجرين والأنصار ،ولكنها كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم ، بل كانت عامة شاملة ، لتحصل الوحدة ، وتتم المعاونة والمواساة .

ولقد ذكر ابن اسحاق في سيرته المؤاخاة بين المهاجرين في أنفسهم مع المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وبذلك يعتضد تلك الرواية بالسند والدراية معا .

٣١ – وإن المؤاخاة عمل نبوي معقول المعنى ، وليس تعبديا ، ولا هو من خصوصات النبي ﷺ ، لأنه لم يقم دليل على ذلك ، وإذا كان معقول المعنى ، فانه يجوز بل يحسن اتباعه في كل حال تتشابه مع حال المؤمنين بعد الهجرة : فتصح المؤاخاة بل تجب عند وجود طائفة نفرت من بلد غير اسلامي فارة بدينها .

ويجوز المؤاخاة بين الطوائف الإسلامية لازالة معنى الطائفية ، وإحلال المذهبية محلها ، فهي سنة منيعة ، وقد وجدت مقتضياتها في هذا الزمان ، ففي الأرض مسلمون أكلتهم الأقاليم غير الإسلامية ، ولو أنهم خرجوا من ديارهم مهاجرين إلى أقرب تجمع إسلامي لكان للمؤاخاة موضع ، لأنها معاونة ومواساة ، وفرج ووحدة وإن في أوربا جماعات إسلامية ليست حرة في تدينها فلو فتح لها باب المؤاخاة لخرجت إلى أرض الإسلام ،لتكون له قوة ، ويعتزون بعزة المسلمين ، ولكن المسلمين غلب عليهم التفرق ، فغلبت عليهم الشقوة ، وكان أمرهم فرطا .

وإننا نجد الإسلام ينتشر نفسه فينشر عند بعض نادر من الأوربيين والأمريكان وغيرهم وأولئك الذين يسلمون يخرجون من أهليهم ، وقد يخرجون من أرضهم وديارهم ، ويحتاجون إلى المعاونة والمواساة ، فكان الاخاء معهم أمراً لا بد منه وإن المسلمين من بعد ذلك عندما دخل الفرس والروم والمصريون في

الإسلام كان عقد في معنى عقد المؤاخاة ، وهو عقد الموالاة الذي سنتكلم عنه عند الكلام في الوحدة الإسلامية عند ما قوي الإسلام بغير العرب ، ودخل الناس فيه أفواجاً أفواجاً ، « إذا جاء نصر الله والفتح » .

التأليف بين العرب جميعاً :

٣٢ – نشبت الحرب بين المدينة الفاضلة ، وبين قريش ابتداء لمنع الفتنة في الدين ، ولدفع الأذى عن المؤمنين بعد أن أذن الله تعالى للمؤمنين أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى ، كما قال تعالت كلماته :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ﴾ .

جاهدت المدينة الفاضلة في سبيل الله ، وابتدأ الجهاد بسرايا ، ثم بغزوة بدر الكبرى ، التي كانت التقاء الجمعين ؛ جمع الشرك وجمع الايمان في يوم الفرقان وهو ذلك اليوم المشهود ، وهنا شعر المشركون بأنه تكونت للايمان قوة تخضد شوكة الشرك، وترفع كلمة التوحيد ، وتجعلها العليا ، وكلمة الشرك هي السفلى .

ثم كانت غزوة أحد ، وفيها قويت كلمة الكفر إلى حدّ ما ، ولكن لم يهن المؤمنون ، وشعروا مع ذلك بأمر الله تعالى انهم الأعلون بميزان الحق ، وميزان القوة معاً .

ولقد شعرت قريش بأنها وحدها لا تقوى على المدينة ، وأنها لا تقوى على أن تقتلع الايمان من جذوره ، ولذلك استعانوا بالقبائل العربية ، وجمعوا الأحزاب في الغزوة التي سميت غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ، ولنذكر طرفاً يسيراً من قصة هذه الغزوة لنرى كيف تجمع العرب لقتال النبي ﷺ .

لقد جاء زعماء قبائل عربية وقد رأوا الشرك تنهار دعائمه ، ولم يكن له إلا قريش قطباً له ، فأخـــذوا يحرضونهم على غزو المدينة بعد أن خافت قريش ، فأجابتهم قريش ، ثم خرجوا إلى غطفان ، فاستجابت ، ثم طاف أولئك الزعماء في قبائل العرب يدعونهم إلى قتال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاستجاب لهم الأكثرون .

خرجت قريش الذين كانوا قطب الشرك في أربعـــة آلاف ، ووافاهم بنو سليم ، وخرج بنو أسد وفزارة ، وأشجع ، وبنو مرّة ، وجـــاءت غطفان ، وقائدهم عيينة بن حصن .

تجمّع من أهل الشرك من كل البلاد العربية عشرة آلاف ، وقد أذن الله لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقاتلهم كافة ، كما أذن قبل بقتال أهـــل مكة ، إذ أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، كما قاتلونا ، وقال تعالى في ذلك : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

وإذا كان الشرك في أرض العرب قد اجتمع لأهل الايمان في تلك الغزوة ، فان الله قد جمع أهل الايمان ، وأضاف الى العرب عنصراً جديداً ليس منهم هو سلمان الفارسي ، ولعل هذه أول مرة يبدو فيها جهاد سلمان ، فقد كان من بين أهل شورى النبي ﷺ عندما استشار المؤمنين في لقـــاء هؤلاء الذين جاؤوا اليه متضافرين .فأشار سلمان الفارسي رضي الله تبارك وتعالى عنه بحفر خندق يحول بين أهل الايمان وأهل الشرك ، ويمنع المدينة من الغزو الداهم ويعوق المهاجمين ، وكان ما كان من أمر هذه الغزوة ، وهزيمة الشرك بالريح العاصف والرعب الهالع .

٣٣ — وقد يقول قائل: ان العنوان وهو تأليف النبي ﷺ للعرب يتجافى عن الحرب والغزوات المتوالية ، فالموضوع غير العنوان ، ونقول في الجواب عن ذلك : إن طريق التأليف ليس هو السلم وحده دائماً ، وإن كان السلم والتأليف صنوين لا ينفصل السلم عنه ، بيد أن التأليف قد يكون طريقه وعراً ، فان

الحرب قد تجر الى السلم والتآلف ، وقد كانت غزوة الخندق في ذاتها منهية لحرب قريش المعتدية ، فلم يعد لها طمع قوي في أن تنقض على المدينة لتقلع منها الاسلام ، ويعود العرب الى شركهم الذي اطمأنوا الى ضلاله .

وإن غزوة الخندق كانت فيها دعوة قوية الى أن يلتف العرب حول الاسلام ، إذ رأوا من آيات الله ما رأوا ، اذ رأوا في تدبير الحرب من جيش محمد ﷺ ما لم يكن عندهم بهعلم ، وهم الكرارون دائماً، ورأوا من آيات الله تعالى الكبرى ما بهر النفوس ، وما استرعى الانظار رأوا أن السماء تنصر جيش الإسلام ، وتهزم جيش الكفر ، ورأت الأحزاب العربية المجتمعة على الضلال نذر السماء تأتيهم كما أتت عاداً ، إذ أتتهم ريح صرصر عاتية .

وإن هذه من دلائل النبوة وتأييد الله لدعوة الحق الذي أنكروه .

وإن النبي من بعد أن أذن الله تعالى له في قتال المشركين كافة كما يقاتلونه كافة انطلقت سراياه في الجزيرة العربية داعية الى دين الحق ، منتصرة بنصر الله تعالى وتأييده وهي تبث فيهم روح الايمان وتدعوهم الى الوحدانية ، ولا شك أن الايمان كان يدخل الى قلوبهم لا من حر السيف ، ولكن من اللقاء في ذاته وخصوصاً أن الحرب الإسلامية المقدسة كانت تدعو أولاً الى الاسلام ، فان أبوا طلب اليهم العهد والذمة على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فإن لم يكن فالقتال ، وكان وصية النبي لجنده ألا يقاتلوهم حتى يقتلوا من المسلمين ، فان قتلوا من المسلمين واحدا ، قال القائد المسلم لهم : أما كان خيراً من هذا أن تقولوا : لا إله إلا الله .

فكانت الحرب في ذاتها طريقاً للتأليف ، وبعث المحبة لمن وراء الجيش.

ولما تسامع العرب بحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم؛ وانبثت سراياه في الجزيرة العربية وذهبت جيوشه اليها ، ومعها السيف والسلم ، ومعها عداوة أهل الباطل ، ومسالمة الشعوب ، كان ذلك في ذاته تأليفاً للقلوب المؤمنة التي وراء المحاربين من أنصار الأمراء والرؤساء .

ومــا كان النبي ﷺ ليخاطب إلا الشعوب ، ويزيل عنهم رق الأمراء ، وذل المتحكمين فيهم، ولذلك كان التأليف مع تلك الحروب إذ كان من نتائجها ظهور وجوه الضعفاء ، وتأليف قلوبهم .

ولذلك كان من وراء هذه الحروب، أو التسامع بها ، والدعوة إلى الإسلام أن وفدت الوفود إلى النبي ﷺ وهي كانت لعقد عقود الوحدة المؤلفة وإزالة العداوة المفرقة .

الوفود :

٤٣ – وفدت الوفود إلى النبي ﷺ من وسط الجزيرة العربيــة ، ومن أطرافها ، وهي تعرض حال أقوامها والنبي ﷺ يتلطف بهم في اللقاء ويلين رحمة لهم ويحقق قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظــا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾

وكانت رسالة الوفود إلى النبي ﷺ شرحاً لحال أقوامهم ابتداء، وكان لقاء النبي تأليفاً لقلوبهم ، فكانت الوفود ملاقاة للنبي ﷺ مع من لم يلاقهم من ممثلي القبائل العربية ، ومواجهة لصاحب الدعوة الإسلامية بمن يدعوهم وبذلك تألف قلوبهم ، وتآلفوا على هدى الإسلام ، بعــد طول المنافرة والمنازعة والمقاتلة .

ولقد كانت الوفود في السنة التاسعة من هجرة النبي ﷺ ، ولذلك سمي العام التاسع عام الوفود . وذلك بعد أن عركتهم سرايا النبي ﷺ وغزواتــه وأحسوا بأنه لا ملجأ من الله تعالى إلا إليه ، وخصوصاً أنهم رأوا أن قريشاً قد أسلمت وسلمت للنبي ﷺ ، فرأوا أن يسالموا ولا يعاندوا، وخصوصاً أن الإسلام أخذ يغزو قلوبهم ، وفقدت الأصنام هيبتها التي تخيلوها لها .

ويقول ابن اسحاق في سيرته : « إن قريشا كانوا إمام الناس ، وهاديهم وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام ، وقادة

العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ ، وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ،ودوخها جيش الاسلام ، عرف العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ، ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله كما قال الله عز وجل أفواجاً ، يضربون اليه من كل وجه .

جاءت الوفود من البلاد العربية من المجاورين للفرس في الجنوب إلى المجاورين للشام في الشمال ، والنبي ﷺ يبث فيهم معنى الإسلام ، ويؤلفهم حول التكاليف الشرعية والأخذ بها ، ويدني أهل المشاكسة والشماس ، ويأخذ بلين القول ، حتى يأتلف الوفد ، ويكون رسول النبي ﷺ منهم من يبعثه إلى قومه ليؤلف قلوبهم .

ونختار من هذه الوفود وفد ثقيف بالطائف الذين كانوا أشد القبائل العربية شماساً وعنفاً في خصومتهم ، كيف لان النبي ﷺ معهم في القول في بيان الأحكام الشرعية ، ويقطع عليهم في محاولة تغيير بعضها كل إرادة حتى ضم بعضهم إليه ، فنقلوا إلى أقوامهم .

جاء في كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد في وفد ثقيف ما نصه :

« قدم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله ﷺ ، فاستأذن رسول الله ﷺ ، فقدم وفدهم ، وفيهم كنانة بن عبد ياليل ، وهو رأسهم يومئذ ، وفيهم عثمان بن أبي العاصي ، وهو أصغر الوفد .

قال المغيرة بن شعبة : « يا رسول الله أنزل قومي عليّ فأكرمهم ، فاني حديث الجرح فيهم ، فقال رسول الله ﷺ لا أمنعك أن تكرم قومك ، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن .

وكان من جرح المغيرة في قومه أنه كان أجيراً لثقيف ، وأنهم أقبلوا من مصر ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق عدا عليهم ، وهم نيام فقتلهم ، ثم أقبل بأموالهم على رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : أما الإسلام ، فنقبله ، وأما المال فانا لا نغدر .

وأنزل رسول الله ﷺ وفد ثقيف في المسجد وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، وكان رسول الله ﷺ إذا خطب لا يذكر نفسه ، فلما سمعه وفد ثقيف ، قالوا يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله، ويشهدبه في خطبته ، فلما بلغه عليه السلام قولهم قال : فاني أول من شهد أني رسول الله .

وكانوا يغدون إلى رسول الله ﷺ ، ويخلفون عثمان بن العاص على رحالهم لأنه أصغرهم ، فكان عثمان كلما رجع الوفد اليه وقالوا (أي ناموا في القيلولة) بالهاجرة عمد إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الدين واستقرأه القرآن،فاختلف اليه مراراً ، حتى فقه في الدين وكان إذا وجد رسول الله نائماً عمد إلىأبي بكر وكان يكتم ذلك عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله وأحبه .

ومكث الوفد يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم الى الإسلام فأسلموا.

قال كنانة بن عبد يا ليل : هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا .

قال عليه السلام : نعم إن أنتم أقررتم بالاسلام ، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم .

قال كنانة بن عبد يا ليل:أفرأيت الزنى، فانا لقوم لا بدّ لنا منه.

قال النبي عليه السلام : هو عليكم حرام ، فان الله يقول : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

قالوا : أفرأيت الربا فانه أموالنا كلها .

قال (عليه السلام) لكم رؤوس أموالكم ، إن الله تعالى يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾،قالوا أفرأيت الخمر ، فانه عصير أرضنا ، فلا بد لنا منها .

قال (عليه السلام) إن الله حرمها ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين

آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ .

فارتفع القوم ، وخلا بعضهم إلى بعض، فقالوا ويحكم إننا نخاف إن خالفناه فيوم كيوم مكة انطلقوا نكاتبه على ما سألنا ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا نعم لك ما سألت .

ثم قالوا أرأيت الاصنام (أي التي يعبدونها) .

قال (عليه السلام) : اهدموها .

قالوا : هيهات لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها .

تدخل في الحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : « ويحك يا بن عبد ياليل ما أجهلك ، إنما الربة حجر .

قالوا لم نأتك يابن الخطاب .

قالوا لرسول الله ﷺ :تول أنت هدمها ، فأما نحن ، فاننا لا نهدمها .

قال (رسول الله ﷺ) : فسأبعث اليكم من يكفيكم هدمها ، فكاتبوه .

هذا ما نقله ابن القيم من كتب السيرة وقد كان اخلاص النبي عليه السلام في حديثه وتصميمه على هدى الإسلام ملينا قلوبهم ومؤلفا لنفوسهم، وقد انضموا إلى الإسلام شريعة وعقيدة ، وأخلصوا من بعد ، وأراد زعيمهم أن يحملهم على اعتناق الإسلام وعرض على النبي ﷺ أن يسبق هو رسول رسول الله الذي أوفده عليه السلام لهدم ربتهم، حتى يمهد لذلك ، ولنعد إلى ما نقل ابن القيم.

« قال كنانة بن عبد ياليل (زعيم الوفد) ائذن لنا قبل رسولك ، ثم ابعث في آثارنا فانا أعلم بقومنا ، فأذن لهم وقالوا يا رسول الله : أمر علينا رجلاً يؤمنا من قومنا ، فأمر عليهم عثمان بن العاص ، لما رأى من حرصه على الإسلام ، وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج .

فقال كنانة بن عبد ياليل أنا أعلم الناس بثقيف ، فاكتموهم القصة ، وخوفوهم بالحرب والقتال ، وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً أبيناها عليه ، سألنا أن نهدم اللات والعزى ، وأن نحرم الخمر والزنى ، وأن نبطل الربا في أموالنا .

خرجت ثقيف حين دنا منهم الوفد يتلقونهم ، فلما رأوهم قد ساروا العنق ، وقطروا الابل (أي جعلوها قطاراً) وتغشوا ثيابهم ، كهيئة القوم قدحزنوا ، وكربوا ، ولم يرجعوا بخير فقال بعضهم لبعض ما جاء وفدكم بخير ولا رجعوا به .

وترجل الوفد ، وقصدوا اللات ونزلوا عندها ، واللات وثن كان بين ظهري الطائف يعبد ، وتهدى له البدن كما تهدى لبيت الله الحرام .

جاء كلا من أعضاء الوفد خاصته من ثقيف ، فسألوهم : ماذا جئتم وبماذا رجعتم ؟

قالوا : أتينا رجلاً فظاً غليظاً يأخذ من أمره ما يشاء ، قد ظهر بالسيف ، وداخ له العرب ودان له الناس ، فعرض علينا أموراً شداداً : هدم اللات والعزى ، وترك الأموال في الربا إلا رؤوس أموالكم وحرّم الخمر والزنى .

قالت ثقيف : والله لا نقبل هذا أبداً .

قال الوفد : أصلحوا السلاح ، وتهيّئوا للقتال ، وتعبّئوا له ، ورمّموا حصونكم .

فسكتت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب ، وقالوا : والله ما لنا به طاقة ، وقد داخ له العرب كلها ، فارجعوا إليه ، فأعطوه ما سأل ، وصالحوه عليه .

فلما رأى الوفد أنهم قد رغبوا ، واختاروا الأمان على الخوف والحرب ، قال الوفد : فانا قد قاضيناه ، وأعطيناه ما أحببنا ، وشرطنا ما أردنا ،

ووجدناه أتقى الناس ، وأوفاهم ، وأرحمهم وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم في سيرنا إليه ، وفيما قاضيناه عليه .

قالت ثقيف : فلِمَ كتمتمونا هذا الحديث ، وغممتمونا أشد الغم ؟

قالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان . فأسلموا مكانهم ، ومكثوا أياماً .. انتهى المراد من القصة .

٣٥ – هذه صورة من صور الوفود التي جاءت إلى النبي ﷺ .

جاءت ثقيف ، وهي أشد القبائل العربية شماساً ، وأبعدها عن الإسلام ، ولقد لقيهم النبي ﷺ بالبشر وأكرم ضيافتهم ، وأنزلهم في المسجد ، وبنى لهم الأخبية وربطها بالأوتاد ، وأمنهم في ضيافتهم تأليفاً لقلوبهم ، وربطاً لهم بالمحبة ، والمحبة من شأنها أن تلين القلوب ، ولو كانت قاسية كالحجارة أو أشد قسوة .

وعلم مكان الاعتزاز فيهم فما هدمه ، ومكان الباطل فما تركه .

وبذلك استفدنا من تأليف النبي للعرب فائدتين .

إحداهما : إن التأليف يكون بالبشر وحسن اللقاء ، والنفاذ إلى النفوس في سهولة ، ولين لا عنف معه .

الثانية : أن التأليف لا يقتضي إهمال الحقوق ، وإسقاط بعض التكليفات فها هوذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألف قلوب أولئك الذين لا يخلون من غلظة ، وفي نفوسهم شماس وفي عقولهم انحراف ، واستمساك بالهوى ، لقد جعلهم محمد رسول الله ﷺ يميلون الى الاسلام ويعتنقونه ويتحايلون ليهتدي قومهم .

السماحة و العدالة :

كانت أخلاق النبي ﷺ سمحة يألف ويؤلف ، يؤثر على نفسه ، فأخلاقه في معاملاته كانت السماحة هي أظهر الأخلاق فيها ، ما غضب لنفسه قط ،

إلا أن تنتهك حرمات الله تعالى ، والأعرابي الذي أغلظ في القول ، يطلب العطاء ، يرفق به النبي ﷺ ، ويعطيه ويكرر العطاء حتى يرضى ، ويطلب منه في رفق من بعد ذلك أن يرضي أصحابه عليه السلام .

واليهودي الذي يتقاضاه دينه ، فيغلظ في القول ، ويهم عمر رضي الله تعالى عنه أن يقتله ، فيقول محمد رسول الله ﷺ في أناة المترفق : هلا أمرته بحسن المطالبة ، وأمرتني بحسن الأداء ، أو كما قال ﷺ ، فالسماحة تجذب القلوب النافرة وتهدي النفوس الحائرة ، وترد العقول الشاردة .

وبجوار هذه السماحة كانت العدالة التي يفرضها على نفسه ، من نفسه ، فكان لا يعتدي على أحد ، ولا يظلم أحداً ، ويقدم نفسه ليقتص منه إن ظن أن عليه قصاصاً .

ولم تكن سماحته وعدالته ومعاونته ، واغاثته للملهوف مقصورة على معاملاته الشخصية بل إنها كانت تتعدى الى كل المعاملات الاجتماعية والسياسية ، فمن آذاه لا يكون اذا أدال منه المنتقم الجبار ، ولكن يكون العفو الرحيم يأخذ بقوله تعالى : ﴿خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾وبقوله تعالى:﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ،ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم﴾ .

ويأخذ بقوله تعالى في أوصاف المؤمنين ، ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ .

كان يأخذ بهذه الآداب القرآنية في السلم وفي الحرب ، في المعاملات

الشخصية وفي معاملته لاعداء الاسلام ، فهو ينتصر على الباغي ، واذا انتصر عليه لا يقول ويل للمغلوب ولكن يقول رحمة وعفواً ، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، وبذلك تتألف القلوب ، بعد أن تدمى الأجسام .

واعتبر ذلك بحال الحديبية ، وبحال فتح مكة ، فقد كان له الغلب على قريش من بعد نصر الله تعالى بالريح والرعب في غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، اذ تجمع عليه العرب من كل آفاق البلاد ليقتلعوا الاسلام فاقتلع الله تعالى الشرك من النفوس ، حتى المعادين المعاندين .

السماحة في الحديبية :

٣٧ – خرج رسول الله ﷺ في العام السادس من الهجرة ليعتمر ﷺ هو وأصحابه وكان معه جيش كثيف عدته خمسمائة وألف ، وما كانوا يريدون الا بيت الله الحرام .

وإن النبي بث العيون ، ليعرف حال قريش ، فعلموا أنهم جمعوا الجموع ، وأضافوا اليهم الأحابيش ، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، وقال السمح الكريم رسول رب العالمين : أترون أن نميل الى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فان قعدوا قعدوا موتورين محزونين أم تريدون أن نؤم هذا البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ، وقد وافقه أبو بكر الصديق على ما ارتأى ، وكان ذلك هو الرأي .

ولما رأى عليه السلام جموعاً من قريش تتجمع،ومعه جيش أغلب خاطبهم خطاب السماح ، لا خطاب من يريد الانتقام .

أرسل اليهم عثمان بن عفان ، وأمره أمرين : أولهما أن يدعو قريشاً إلى الإسلام ويخبرهم أن الرسول لم يأت لقتال ، ولكن جاء وصحبه معتمرين ، وثانيهما : أن يتصل بالمستضعفين من المؤمنين ويبشرهم بالفتح القريب .

ذهب عثمان ، وخاطب قريشا ، وغاب ، وظن المسلمون الظنون ، فظنوا

أنهم قتلوا عثمان ، فبايع النبي المؤمنين على القتال وكان ذلك تحت الشجرة التي سميت شجرة الرضوان لأن الله تعالى قال : ﴿ إن الذين يبايعونك، إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ﴾ .

ولما بلغ الرسول السمح ومعه الجيش القوي أنهم استعدوا للقتال ، قال : إننا لم نجيء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحروب ، وأضرت بهم ، فإن شاؤوا ما رددتهم ، ويخلوا بيني وبين الناس ، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفس محمد بيده لأقاتلنهم على أمري ، حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره .

عاد رسولهم اليهم ، وقال لهم : اني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم ، فقال السفهاء منهم لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء ، وقال ذو الرأي منهم : هات ما سمعته ، قال سمعته يقول : كذا وكذا ، ونقل لهم ما قال ﷺ .

قال عروة بن مسعود الثقفي : انه قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودَعُونِي آته ، فأذنوا له ، فأتى النبي ﷺ ، فكرر عليه ما قال ابتداء .

ولننقل لك ماجرى من حديث بين الثقفي العنيف ، والنبي السمح ، لتعرف أن السماحة علاج النفوس الشامسة .

قال عروة بن مسعود الثقفي : أي محمد ، أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن كانت الأخرى فإني لا أرى وجوهاً ، وإنما أرى أوشابا ، أخاف أن يفرّوا ويَدَعوك .

وأخذ يكلم النبي ﷺ ، وكلما تكلم أخذ بلحية الرسول ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل سيفه ، وقال : أخّرْ يدك ، رفع عروة

رأسه وقال : مَن هذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، فقـــال له : أي غدر أوَلست أسعى في غدرتك ، وكان المغيرة قد صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ مالهم ، فذهب به إلى النبي مسلماً ، فقبل النبي ﷺ إسلامه ، ورد المال لأنه أخذ بغير حله .

ومع سماحة النبي ﷺ ، وتجرؤ الثقفي حتى مدّ يده إلى لحية النبي ﷺ وكان يرى طاعة المسلمين له،فإذا أمرهم ابتدروا أمره بالطاعة ، وإذا تـكلموا في حضرته خفضوا أصواتهم ، وما يحدّون النظر فيه تعظيما له ، رأى الثقفي ذلك وعرض على قومه ما رأى .

وأرسلوا رجلاً آخر من كنانة ، فوجد النبي ﷺ ومن معه ومعهم البدن يقدمونها هديا ويلبسون محرمين ، فرجع إلى أصحابـه من قريش ، وقـال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت.وجرت المراسلات بالرجال، حتى كان الاتفاق وكتابة الهدنة عشر سنين .

وإذا كانت السماحة قد أظلت معاملة النبي ﷺ منذ أن جاء الحديبية حتى لانت قلوب قاسية ، وفيها نفوس فاسقة ، فإن كتابة العهد قد سيطرت عليها السماحة المحمدية .

ابتدأ الكتاب فأمـــلى النبي ﷺ الافتتاحية بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

فقال سهيل الحاضر عن قريش : أما الرحمن فوالله ما ندري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم .

قال الحاضرون من المسلمين : والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

قال النبي السمح : اكتبها باسمك اللهم ، ثم اكتب هـــذا ما قاضى عليه محمد رسول الله .

فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما

قاتلناك ، ولكن اكتب محمـــد بن عبدالله فقال النبي : إني رسول الله وان كذبتموني ، اكتب محمد بن عبدالله : على أن تخلوا بيننا وبـــين البيت ، قال سهيل والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب الكاتب برضا النبي ﷺ .

فقال سهيل: على ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك الا رددته .

ضج المسلمون ، وقالوا سبحان الله كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً.

فبيناهم كذلك إذ جاء ابو جندل بن سهيل يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .

قال سهيل هذا يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده .

فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد، قال سهيل : والله لا أقاضيك على شيء .

قال سهيل : ما أنا بمجيزه لك ، ومع ذلك أقضي الكتاب على هذا الشرط

فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين ، أرد الى المشركين ، وقـــد جئت مسلماً ، ألا ترون ما لقيت ، وقد غضب عمر رضى الله عنه غضباً شديداً .

وقال في غضبه : يا رسول الله ، ألست نبي الله ؟ قال بلى ، قال ألست على الحق وعدونا على الباطل،وقال :بلى، قال : علام نعطى الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا .

فقال النبي ﷺ : اني رسول الله ، وهو ناصري ولست أعصيه .

قال عمر : أولست كنت تحدثنا أننا سنأتي ونطوف به .

قال الرسول السمح بلى أنا أخبرتك أنك تأتيه هذا العام ؟ قال عمر : لا قال الرسول : فانك آتيه ومطوف به ، وكان العقد على صلح توضع فيه الحرب عشر سنين .

وكان المسلمون محرمين ، فأراد النبي ﷺ أن يتحللوا من الاحرام بذبح الهدي وقال لهم قوموا فانحروا ، ثم احلقوا .

فما قام رجل واحد حتى قال ثلاث مرات .

فلما لم يقم أحد دخل رسول ﷺ على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت أم سلمة يا رسول الله اخرج ، ثم لا تكلم أحداً كلمة ، حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك ، فيحلقك ، ففعل رسول الله ﷺ ما أشارت به أم سلمة .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً .

٣٨ – هذه سماحة محمد ﷺ ، وقد ظهرت في أمور في هذه القصة :

أولها : أنه كان قادراً على أن يدخل مكة ، ويطوف ويسعى ، وينفذ إحرامه ، ومعه جيش يزيل كل عقبة تقف ضده، ولكنه آثر السلم ،والعافية وحقن الدماء بسماحة النبوة لتأليف القلوب،وإن السماحة تجذب نفوساًوالسيف يقطع رقاباً ، وما يأخذ من الرقاب شيئاً ، ولكن يأخذ بالسماحة النفوس إلى الإيمان .

وثانيها : أنه قبل أن يذكر اسم الله بقولهم باسمك اللهم ، وسكت عن بسم الله الرحمن الرحيم وإذا كان قد ترك هذه البسملة سماحة وكرماً ، فقد ألان بذلك نفوساً كانت متعصبة ، وانها لسائرة في طريق الهداية .

وثالثها : أنه قبل ألا يذكر وصف رسول الله ﷺ ، وهو الرسول حقاً وصدقاً وقبل أن يقال ابن عبدالله ، وقد فتح بهذا التسامح القلوب لتدخل اليها رسالته ، وما كانت الجفوة والغلظة لتفعل ذلك .

ورابعها : أنه قبل أن يعطيهم ، ما لم يعطوه ، قبل منهم أن من يجيء ، اليه مسلماً من غير إذن وليه يرده، ومن يخرج من عنده مرتداً لا يردونه اليه.

وإن ذلك لا يخلو من سماحة ، ولكن فيه حكمة ظاهرة قد بدت نتائجها منه ، فان من ارتد عنه لماذا يعاد اليه ليكون عينا عليه، إنه قذاة أخرجت من العين إن كانت .

ولقد سمى الله تعالى صلح الحديبية فتحاً ، وما كان فتحاً إلا بتقدير الله سبحانه وتعالى ، وسماحة محمد ﷺ ، ولقد قال تعالى في هذا الصلح : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقماً وينصرك الله نصراً عزيزاً ، هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والارض وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

وإن الشرط الذي أغضب الفاروق عمر رضي الله عنه ، وكثيرين من المؤمنين المجاهدين وهو أن من جاء إلى النبي ﷺ مسلماً رد ، تبين أن نتيجته لم تكن شراً ، بل كانت خيراً ، ولقد طلب المشركون من النبي ﷺ أن يقبل من يجيئه مسلماً .

كذلك ان الذين كانوا يخرجون من مكة مسلمين ، ولا يقبلهم النبي لا يعودون إلى مكة، بل يبقون يقطعون على قريش طريق تجارتها، وتلاحقوا وتجمعوا ، حتى تكونت منهم عصبة أولو قوة،فكانوا لا يسمعون بعير لقريش خرجت الى الشام إلا اعترضوها فقتلوا الرجال وأخذوا الأموال .

آذى ذلك قريشاً ،وأرسلت الى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن وبذلك ألغي الشرط بطلبهم ، وتلك من دلائل النبوة .

هذه كانت سماحة النبي ﷺ وقد ألفت القلوب ، وجمعت النفوس الشاردة .

وفي فتح مكة كانت السماحة أوضح :

٣٩ – إذ لم يعرف تاريخ الانسانية أن قائداً منتصراً عامل المغلوبين بمثل ما عامل به محمد ﷺ قريشاً ومن حالفهم ، وقد آذوه ثلاث عشرة سنة دأبا لم يتركوا فيها باباً من الايذاء والتنكيل والسخرية إلا اتخذوه ، حتى هموا بقتله ﷺ ولكن كان ﷺ أجمع من قبلُ أمر الهجرة واتخذ أسبابها ، وكان الله تبارك وتعالى قد أيده ، فكان أعظم التدبير ، وأكرم التوفيق .

ومكثت الحرب بعد ذلك ست سنين دأباً ، ما تركوا طريقاً من طرق الشيطان إلا سلكوه ، حتى إذا كان الصلح والنبي ﷺ معه جند الله الذي يستطيع إبادة خضرائهم ، وكان الصلح كما أرادوا ، وفيه فرضوا على النبي ﷺ شروطاً ظالمة ، وقبلها عليه السلام في سماحة راجحة ، وحكمة نبوية من غير صغار ، ولكنها نبوة مقرّبة للنفوس ، وليست منفرة للقلوب ، جامعة وليست مفرقة .

ولكنهم مع ذلك غدروا ولم يوفوا.

ذلك أنه كانَ في ضمن شروط الصلح التي ارتضاها الطرفان ، وأرادها النبي ﷺ الذي كان يريد الجمع العربي الذي لا تفرق فيه – كان من الشروط أن من أراد أن يدخل مع محمد ﷺ دخل ، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش دخل .

اختارت خزاعة جانب النبي عليه الصلاة والسلام ، واختار بنو بكر عقد قريش ، فكان من يعتدي على خزاعة كأنما اعتدى على النبي ﷺ .

وقد عادت الحرب جزعاً بين خزاعة وبني بكر كما كانت الإحن بينهم في الجاهلية ، فاقتتل الفريقان وما تدخل جيش الإسلام في القتال ، ولكن قريشاً تدخلت ونصرت بني بكر على خزاعة ، وأمدّت بني بكر بالسلاح ، وقاتل من رجالها من قاتل .

عندئذ كان الغدر . ومهما تكن سماحة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلن تكون في غدر قط ، ومع غادر أبداً .

بل تجاوز الأمر مع بني خزاعة حد الغدر المجرد ،بل لقد حاول بنو بكر النيل من خزاعة في البيت الحرام بتحريض من بعض القرشيين.

كان لا بد لخزاعة أن تستنصر بالنبي ﷺ ، وما كان للنبي إلا أن يجيب الدعوة . ذهب عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة ، حيث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقول لرسول الله ﷺ : "قتلنا وقد أسلمنا .

أصبحت الحرب ضرورية ، ولا موضع للسماحة . أولاً : لأنهم غدروا في العهد . وثانياً : لأنهم نكثوا في ايمانهم نكثاً كاملاً ، فقتلوا قوماً مسلمين ، فنقضوا الصلح من أساسه ، ولا صلح مع من يخون العهود .

ولقد روي أن النبي ﷺ أكد نية الحرب بالقسم فقال : « والله لأغزون قريشاً » .. قالها ثلاث مرات تأكيداً للقسم .

سار رسول الله تعالى إلى مكة ، ومعه العباس الذي كان قد أسلم من قبل ، وركب بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون النبي ﷺ .

ويلتقي وهو يتوسم الوجوه بأبي سفيان ، فيركبه في عجز بغلة الرسول ﷺ ، ورآه عمر وقد كان حارس الجيش ، وهمّ عمر أن يقتل أبا سفيان ، وقال له موعداً مهدداً : الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ولكن العباس استحث البغلة فركضت لكيلا يمكن الفاروق من قتل أبي سفيان قبل أن يلقى صاحب السماحة رسول الله ﷺ .

والتقى الفاروق مع ابي سفيان في حضرة النبي ﷺ مع العباس عمه ، وعمر يهز السيف ، ويستأذن النبي ﷺ في قتله ، ولكن ابن عبد المطلب شيخ قريش يجيره ويؤمنه .

فيقول رسول الله السمح قابلاً للأمان لعمه . « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به » .

هذا أول مظاهر السماحة ، فلم يتركه بغير مَنْ أمَّنَه ، حتى لا يلقاه أحد من جيش الله فيقتله ، كما همّ عمر .

التقى بالنبي مع العباس في الغداة ، فعرض عليه النبي الإسلام فتردّد بعصبية الجاهلية فقال له العباس : ويحك أسلم ، واشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأسلم وشهد شهادة الإسلام .

ولكن السماحة لا تقف عند قبول الإسلام بعد تلبث ، بل انها تزيد إلى التكريم .

يقول العباس : إن أبا سفيان يحب العز فاجعل له شيئاً .

يقول رسول الله ﷺ مكرماً : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

وهنا السماحة تعم ولا تخص ، وإن كان الباعث ابتداء تكريماً لأبي سفيان زعيم الشرك العنيد ، ولكنها سماحة النبوة المؤلفة .

وكان جيش الإسلام مؤلفاً من كثير من قبائل العرب ، اجتمعت على كلمة الله تعالى وتأييد رسوله الكريم ﷺ ، وكانت الكتائب تمر على أبي سفيان ابن حرب ، وقد وقف بمضيق الوادي .

وكانت كتيبة النبي ﷺ فيها المهاجرون والأنصار .

وكان يحمل راية الأنصار سعد بن عبادة ، فلما مرّ على أبي سفيان قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة أذل الله قريشاً .

أطمعت سماحة النبي أبا سفيان بن حرب أن يشكو ذلك لرسول الله ﷺ .

فقال : « يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد قال وماذا قال ؟ قال كذا وكذا .

قال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة .

قال النبي السمح الكريم : اليوم يوم المرحمة ، بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً .

هذه واحدة في سماحته المؤلفة ، وأخرى في سماحته وحكمته أنه نزع اللواء من يد سعد بن عبادة ، وأعطاها ابن سعد قيسا ، ليري سعداً أن اللواء لم يخرج منه إلا إلى ابنه الذي هو امتداد لشخصه .

مضى أبو سفيان بعد أن طابت نفسه بسماحة النبي ﷺ.

قسم رسول الله جيشه أربعة أقسام كل قسم يدخل من جانب ، فبعث الزبير بن العوام إلى جانب ، وأبا عبيدة في بطن الوادي وخالد بن الوليد على جانب آخر ، ورسول الله في كتيبته .

وقد نهى رجاله عن القتال ، إلا أن يضطروا ، وشدد في النهي ، ومن بينهم خالد بن الوليد ومعه من جيوش القبائل سليم ، وغفار ومزينة وجهينة وقبائل أخرى من العرب .

ولم يقاتل أحد من القواد المسلمين إلا خالد بن الوليد ، فقد تعرض له عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، وسهل بن عمرو ، وكان بعض بني بكر الذين اعتدوا على خزاعة ، قد أعدوا السلاح ليقاتلوا جيش محمد ﷺ كانت معركة صغيرة ، قتل من المشركين فيها نحو اثني عشر رجلا ثم انهزموا .

وقد لامه النبي ﷺ أن قاتل ، وقد نهاه ، فذكر له خالد اضطراره فقبل عذره .

اتجه رسول الله ﷺ أول ما اتجه إلى المسجد الحرام ، فطاف ، واستلم الحجر الأسود ، وأخذ يحطم الأصنام ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ،

إن الباطل كان زهوقاً » والأصنام تتساقط بين يدي محطم الأوثان في الأرض، وقد رأى تماثيل في جدران البيت الحرام فحطمها .

وخرج رسول الله ، وقد وقف بباب البيت ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينظرون ماذا يصنع بهم ، فقال عليه السلام : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدميّ هاتين ، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج ثم وجه خطابه لقريش التي كانت تتفاخر بالأنساب قائلاً .

« إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ثم تلا قوله تعالى :﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ .

يا معشر قريش ماترون أني فاعل بكم .

قالوا أخ كريم وابن أخ كريم .

قال الرسول الكريم : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته ، لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين إذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذه هي السماحة العظمى ، وقد آمن الناس جميعاً ، إلا نفراً ثم عفا عن بعضهم ممن تاب وآمن وعمل صالحاً كعكرمة بن أبي جهل .

٤٠ – بهذه السماحة الكريمة التي ابتدأت في الفتح :

أولا : بتأمين أبي سفيان وتكريمه بتأمين كل من يدخل بيته .

ثانياً : بتأمين كل من لا يخرج من بيته مقاتلا .

ثالثاً : بعزل سعد بن عبادة عن لواء الأنصار ، لقوله : اليوم يوم الملحمة، الذي تذل فيه قريش واستبدالها بقوله اليوم يوم المرحمة الذي تعز فيه قريش.

رابعاً : بنهي قواده عن القتال والقتل وقد استجابوا إلا خالدا ، إذ اضطر اليه .

خامساً : بذلك العفو الكريم : إذ يحكي معهم مقالة يوسف لأخوته : « لا تثريب عليكم » .

وهناك فوق هذه السماحة النهي عن التعصب للآباء ، والمنع من العصبية الجاهلية وبين لهم أن الناس جمعاً على سواء .

التأليف الإلهي :

بهذه السماحة النبوية ، والإطار الاسلامي ، والالتقاء على مائدة الإسلام الروحية ، وبالحزم والعزم ، والرفق والعفو تألفت قلوب كانت متنافرة ، وتقاربت نفوس كانت متباعدة .

وكانت الوحدة العربية التي تعد معجزة ، وقد كانت وحدة إسلامية في حدود العرب إذ لم يكن الأمر قد خرج من الديار العربية ، ولم يكن قد دخل غير العرب في ظل الدولة الإسلامية ووحدة الإسلام . إلا نفر قليل.

وإن ذلك التاليف معجزة من عمل الله تعالى ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره ، وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم ﴾ .

وإن التأليف في كل الأمور المادية سهل يسير، وأما تأليف النفوس فصعب عسير ، وخصوصاً إذا كانوا متنازعين متقاتلين متدابرين ، فحق أن يكون ذلك بعمل الله القادر القاهر فوق عباده الذي يملك النفوس ، ويسيرها .

ولقد دعا القرآن الكريم إلى الوحدة بين بني الإسلام ، فقال تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، حق تقاته ،ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم

أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ .

ونقف عند هذه الآيات وقفة قصيرة فهي تدل أولاً على الوحدة الإسلامية دلالة صريحة إذ يقول تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ وحبل الله تعالى القرآن الكريم فهو حبل الله الممدود ، إلى يوم القيامة، وهذا يفيد أن الوحدة تقوم على الاستمساك بكتاب الله تعالى، فكل وحدة تقوم على غير ذلك مآلها الانهيار ، لأنها تقوم على شفير هار ، ثانيها — أنها تفيد أن التأليف بين العرب كان بهداية الله سبحانه وتعالى وبالإسلام فهو الذي جمعهم بعد التفرق ، وآواهم إلى ربوة المحبة والاخلاص، وأن من ثمرات التأليف أن يعتصموا بحبل الله الذي كان السبيل إلى ذلك التآلف .

ثالثها : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقوي الوحدة ، ويجعلها قائمة على أساس من الفضيلة والخلق ، ولذلك كان بين النصوص الآمر بالمعروف بالاعتصام بكتاب الله والناهي عن المنكر لأنه عصام الاجتماع ، وهو الذي يكون الرأي العام الفاضل، ولا يمكن أن تعيش وحدة اسلامية ، إلا في ظل رأي عام يجمع الشمل ، ويزيل الانقسام ، ولا شيء يسهل الافتراق إلا رأي عام غير صالح يوجد الانفصام ، وتفرخ فيه الرذائل .

ورابعها : بين أن التفرق بعد أن جاءت البينات تكون معه الذلة ، ومع الذلة عذاب الدنيا ومع العصيان عذاب الآخرة فيجتمع على المفترقين الذين جعلوا جمعهم شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون — ذل الدنيا وعذاب الآخرة .

تمام الوحدة
في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٤٢ – تكونت الوحدة العربية في عصر النبي ﷺ على أساس الإسلام ، وكان القرآن هو الجامع لمتفرقها ، والموحد لأشتاتها ، فلم تكن وحدة قومية بل كانت وحدة إسلامية .

والفرق بين الوحدتين بين واضح ، فان الوحدة القومية تسد الباب على غير العرب ، ولا تجعلهم ينتظمون في سلكها ، أما الوحدة الإسلامية ، فإنها مفتحة الأبواب ، لكل مسلم أن يدخل فيها لأنها وحـــدته ، ولأن الديار دياره ، فلا فرق فيها بين عربي ، ولا بخس فيها لأعجمي ، ولذلك يقول ﷺ مؤكداً أنها وحدة اسلامية « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » .

وإن شئت فقل : إن الوحدة التي أقامها النبي ﷺ وحدة قرآنية ، لأن أساسها الاعتصام بحبل الله تعالى وهو القرآن ، ولذلك نجـد القرآن الكريم لا ينادي العرب بعنوان العرب ، إنما ينادي الناس بعنوان الناس والايمان ، ويدخل العرب فيهم ، إذ ينادي المؤمنين بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » ، ويدخل الفرس والروم وغيرهم من أجناس أهل الأرض إذا آمنوا بالله سبحانه وتعالى .

وليس للعرب في القرآن حظ أكبر من غيرهم بيد أنه نزل بلغتهم ، لأن النبي ﷺ منهم ، وقد قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾

وقدذكرنامن قبللماذا اختص الله سبحانهوتعالى العرببأنجعل البعثفيهم.

وإن البلاد العربية بهذا لها شرف في الوحدة ، لأن بها بيت الله الحرام ، وقد من الله تعالى عليهم،فقال تعالى:﴿أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾ .

وأن وجود الكعبة بها ، وهي قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، في قاصيها ودانيها وهذه القبلة تشعر المسلمين في كل بقاع بأنهم أجزاء من كل شامل جامع .

وفي البلاد العربية مظهر ثانٍ للوحدة الاسلامية ، وهو مناسك الحجالتيهي موضع التعارف بين المسلمين في كل الأرض ، فهم يأتون اليها من كل فج عميق في ضيافة الرحمن .

وقد ذكرنا في سياق بحثنا لماذا كانت البلاد العربية بها مبعث الرسالة المحمدية الخالدة التي تكون للناس كافة أحمرهم وأسودهم وأبيضهم .

ولا يقال : إن الإسلام عربي ، لأنه نزل في أرض عربية ، ومعجزته عربية ، ومنبعه عربي لا يقال ذلك لأنه لا علاقة بين خصوص المكان ، أو خصوص اللغة ، وكون الدعوة عامة ، والحكم عاماً لأنه صرح النبي ﷺ بعموم الرسالة ، وصرح القرآن بعمومها ودعوة محمد كانت عامة ، والعبرة بعموم الدعوة ، لا بخصوص المكان ولا بخصوص اللغة .

وإذا كان للغة العربية ، موضع في الوحدة ، فليست لتخصيص الإسلام بالعرب ، ولكن سنقول : إنها اللغة التي تكون وسيلة لجمع المسلمين فيمشارق الأرض ومغاربها ، وكانت هي لغة الإسلام يوم أن كانت الوحدة الشاملة ، وقد تفرقوا إذ تفرقوا عنها ، فكان أول مظهر من تفرق كلمة المسلمين ، كان

إحياء اللغات الشعوبية للأقوام الذين دخلوا في الإسلام أفواجاً أفواجاً .
وليس مؤدى ذلك أن القرآن والإسلام للعرب وحدهم، دون سائر الناس.

حماية محمد للوحدة التي ألفها الله :

٤٣ – حمى محمد ﷺ الوحدة الإسلامية التي ألفها الله تعالى على يديه في البلاد العربية وبين القبائل العربية حماها النبي ﷺ مما كان سبب التفرق من بعد، وهو العصبية الجاهلية، والتفاخر بالأنساب وما نهى النبي ﷺ مستنكراً أمراً اجتماعياً كما نهى عن العصبية الجاهلية ، والتفاخر بالآباء والأجداد . وأوجب التفاخر بالعمل الصالح وحده .

لقد بريء النبي ﷺ من كل من يدعو بدعوى العصبية الجاهلية فقال ﷺ « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية . »
ولقد روى مسلم والنسائي أن رسول الله ﷺ قال : « من قتل تحت راية عِمِيّة يدعو لعصبية أو ينصر عصبية ، فقتلته [١] جاهلية » .

أي يكون في حال عمى بسبب هذه العصبية الجاهلية ، التي لا تعرف الحق من الباطل ويكون الضلال والجهاد فيها بينة لا تخفى على مؤمن بالله تعالى.

ويقول ﷺ : « مثل النبي ينصر قومه على الظلم مثل البعير المتردي في الركي [٢] فهو ينزع بذنبه » ، وقد سئل رسول الله تعالى عن معنى العصبية المنهي عنها ، فقال ﷺ : « العصبية أن تعين قومك على الظلم » .

وهنا يرد سؤال هل ينهى النبي عن محبة الأوطان أو محبة الأقوام ؟ وإن الجواب عن ذلك ان المحبة في كل صورها أمر محبوب في الجماعة ، تبتدىء بمحبة الأسرة والعشيرة ، ثم الجماعة في الوطن ثم الجماعة الكبرى في الإسلام ، ولا تلغي الدرجة العليا ما دونها ، ولكن المنهي عنه المحبة التي تؤدي إلى

---

(١) العِمِّيَّة بكسر العين على وزن فِعِّيْلَة مبالغة في العمى.
(٢) الركي : الآبار .

الفرقة والإنقسام ، وتحرض على الظلم ، وهي العصبية الجاهلية ، ولقد سأل أُبيُّ بن كعب النبي ﷺ : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ، فقال ، النبي ﷺ الذي آتاه الله الحكمة : « لا ، ولكن من العصبية أن ينصر قومه على الظلم ».

ولقد قال ﷺ : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » والاثم إنما يكون في الاعتداء والظلم .

ولقد نهى النبي ﷺ في سبيل إقامة الوحدة وتثبيت أمرها عن أن يقتتل المسلمون بعضهم مع بعض ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا تواجه المسلمان فالقاتل والمقتول في النار ، فقيل يا رسول الله : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ ، قال كان حريصاً على قتل صاحبه » .

ويقول عليه السلام : « لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر» .

ولقد روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وقد رواه مع الترمذي أبو داود والنسائيعن ابن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه وجزى أباه عن الإسلام خيرا .

٤٤ – كان النبي يحمي الوحدة ، والتآلف العربي الذي ألف الله به العرب بعد طول افتراق وقد علم الرسول ﷺ أن العصبية الجاهلية هي سبب فرقتهم ، فزوالها هو الذي يجمعهم .

وقد حدّ رسول الله ﷺ الحدود ، فلم يمح الأوطان ، ولا الأقاليم لأن المحبة كالسنبور من الماء يفيض على المكان القريب منه، ثم يفيض على مابعده، فلا يمكن أن تمحى محبة العشيرة أو محبة الوطن التي حلت محل حب العشيرة

أو القبيلة ، ولكن محبة الوطن تكون في ظل الإسلام كله أولاً ، وتكون في دائرة المحبة التي لا بغضاء فيها ، ولا عداوة ، ولا اعتداء .

ولذلك فسّر عليه الصلاة والسلام العصبية بأن يعين المرء قومه على الظلم .

وإن التصور الذي نستطيع أن ندركه في الجمع بين الوطنية أو الاقليمية والوحدة الإسلامية هو أن نقول إن التدرج الانساني يبتدىء بالأسرة ،فآحادها يكونون وحدة متضافرة متوادة متحابة والأسر مجتمعة تكون اقليماً متواداً متآ لفاً متحاباً بحيث لا تكون ثمة عداوة بين أسرة وأخرى والمجتمع الاسلامي يتكون من أقاليم متوادة متعاونة في الذود عن الإسلام .

وكما يضحى بالواحد في الأسرة في سبيل مجموعها، ويضحى بالأسرة في سبيل الوطن فان الوطن يندغم في الجماعة الاسلامية ، وتكون الوحدة الإسلامية متكونة في أعلى مدارجها .

المنافقون والوحدة في عهد النبي

٤٥ – العربي صريح بطبعه ، واضح النفس وضوح الشمس الرائعة التي تنير نفسها ، فإذا دخل الإيمان قلبه التقى فيه نور البصيرة ، وإذا كان في الأعراب منافقون كما صرح القرآن الكريم إذ قال : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴾ فإن ذلك كان من شأن الجاهلية التي كانت قبل أن تخالط بشاشة الإسلام قلوبهم ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

ولما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة ، وخالط العرب اليهود ، وكان في المدينة بجوار اليهود مشركون لم يدخلوا في الإسلام مع أقوامهم ، بل أبوا وجحدوا .

واستمروا في غيهم يعمهون إلى أن انتصر المسلمون في غزوة بدر، وصارت لهم قوة يحسب حسابها، فصارت كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الشرك هي السفلى .

عندئذ وجد من هؤلاء منافقون يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ولقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو ، فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

وإن هؤلاء المنافقين كانوا حربا على الوحدة التي كونها النبي ﷺ وكانوا يثيرون العداوة أينما وَجَدوا لكلامهم موضعاً من التأثير ، كانوا يوقعون بين المهاجرين والانصار ، ولكن الله تعالى كان يرد كيدهم في نحورهم ، والنبي ﷺ يعمل على حماية المسلمين من شرهم وحماية الوحدة الإسلامية التي ألفت من كيدهم ولكنه لا يقتلهم ، ولا يمسهم بأذى ، حتى يحفظ للوحدة مظهرها واعمالهم هي التي تحذر المؤمنين ، فكلما كانت حرب بين المسلمين وغيرهم خذلوا جيش الإيمان ، وكان يَغترّ بهم ضعاف الايمان والنبي ﷺ يطاولهم ويصابرهم ، وهم لا يجدون فرصة للتفريق بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار إلا انتهزوها ، ووسعوا الهوة عساهم يهدمون لبنات من ذلك البنيان المرصوص من الوحدة الإسلامية .

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في غزوة... فكسع [1] رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري : ياللأنصار

---

(١) معناها ضرب عجيزته بيد أو رجل أو سيف أو غيره ، والمناسب هنا أن يكون بسيف لأنهم كانوا في غزوة .

وقال المهاجري يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا يا رسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجـــلاً من الأنصار ، فقال رسول الله المؤلف بين القلوب : « دعوها فانها مُنْتِنة » فسمعها عبدالله بن أبي ابن سلول (زعيم النفاق) فقال قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال الرسول المؤلف للقلوب الحفيظ على الوحدة الإسلامية دعه ، لا يتحدث العرب ، أن محمداً يقتل أصحابه .

وقد ذكر ابن هشام في السيرة أن الغزوة التي أشار اليها صحيح مسلم في روايته كانت غزوة بني المصطلق ، وذكر تفصيل القصة بما ينتهي في نتيجته إلى ما انتهت اليه الرواية في صحيح مسلم فقال : بينــا رسول الله على الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقــــال له جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج على المـــاء فاقتتلا فقال الجهني يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين .

فغضب عبدالله بن أبي بن سلول (كبير المنافقين) وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم ، وهو غلام حدث ، فقال كبير النفاق : أوقد فعلوها، فقد نافرونا ، وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش،إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيدكم لتحولوا إلى غير داركم .

سمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله من عدوه فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال عمر : فمر به عباد بن بشر ، فليقتله ، قال الرسول الحكيم : « فكيف يا عمر إذا تحدث

الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ، ولكن أذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ليرتحل فيها .

وبهذا الرحيل العاجل شغل الناس بلم المتاع والشمث عن التفكير في تلك الدعوة الجاهلية التي نبتت نابتتها ، وغذاها النفاق بغذائه الخبيث .

٤٦ – في سبيل بقاء الوحدة ، قائمة في حقيقتها ومظرهـا لم يكن النبي ﷺ ليمس منافقا ، أو ينال منه أي نيل وهو يعلم أنـه يثبط المسلمين ، ويخذلهم ، ويعلم كما ورد في القرآن الكريم أنهم مرضوا بداء النفاق ولا سبيل لأن يكونوا مؤمنين،ولكنه كان مع ذلـك يتلطف لهم، ويستغفر الله لهم ، حتى نهاه الله تعـالى ، ونزل قوله : ﴿ استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾

وكان النبي يفعل ذلك تأليفاً للقلوب ، ولأنه يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله، ولأن لهم أقارب من المؤمنين المخلصين يألمون للأذى ينالهم،ولقد كان عبدالله بن أبي هذاله ابن اسمه عبدالله من أخلص الناس .

ولكن الرفق لم ينههم عن غيهم ، ولم يقرب نفوسهم ، لأن النفاق مرض، إن أصاب القلب لا يشفى منه،ورفقة النبي ﷺ في السياسة والحروب ورفقة المؤمنين معه كانت تزيد مرض النفاق فيهم،﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ وذلك بتوالي الانتصار .

الإفك وخوض المنافقين :

٤٧ – تخلفت عائشة أم المؤمنين حب رسول الله تعالى عن هودجها في إحدى الخرجات حتى أدركها بعض الصحابة فأناخ لهـا الجمل وركبت ، والتحقت بركب الرسول ﷺ .

وكانت تلك الواقعة فرصة للنفاق ، فتلقفها عبد الله بن أبي وتولى كبر

الافك على أم المؤمنين الطاهرة بنت الطاهر الصديقة بنت الصديق وزوج خير العالمين ، وصفوة الوجود الإنساني .

وقد قالت عائشة أم المؤمنين ، وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج ، وهو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ إن الذين جاؤوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ .

وكان يكفي هذا لأن يثير النبي ﷺ ليعاقب الآثمين ، وقد مَسّ الأمر شخصه، وإن لم ينل من مكانته عند الله تعالى وعند الناس ، ولكن النبي ﷺ ما كان ليعمل لنفسه ، ولكنه يعمل لله وهو لا يريد إلا أن تبقى الوحدة الإسلامية سليمة في حقيقتها وفي مظهرها .

ولم يفعل في حديث الافك إلا أن قال عاتباً مترفقا .

« أيها الناس : ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيرا » .

ولكن ذلك العتب الرقيق الهادىء استفز قلوب قوم مؤمنين من الأنصار فقال أسيد بن خضير من الأوس يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم » .

ولنترك لابن هشام الكلمة يتمم القصة ، ومنها نعلم أن عبد الله بن أبي كان يرمي إلى التفرقة بين الأوس والخزرج ، يقول ابن هشام بعد نقل مقالة أسيد بن خضير .

« قام سعيد بن عبادة ، وكان من قبل يرى رجلا صالحاً ، فقال كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم أما والله ، ما قلت هذه المقالة إلا لأنك عرفت

أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ، فقال أسيد كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ذلك ما كان يبتغيه عبدالله بن أبي بن سلول بما حدث به الخزرج ، وما كان يمكن أن يسكت من غير فتنة يثيرها ، ولكن قوة الايمان في الأنصار الذين قال فيهم النبي ﷺ : لولا الهجرة لكنت أمرأ من الانصار ، كانت قوة الايمان قاضية على هذه الفتنة .

وهكذا كان المنافقون يوقدون الفتنة ، حيث وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وكلما أوقدوا ناراً لها أطفأها الله تعالى بقوة ايمان أصحاب رسول الله ﷺ .

٤٨ – اشتد أمر النفاق في المدينة ، والنبي ﷺ يطاول المنافقين ، وهو يعلم الأكثرين منهم ، أو يعلم كبراءهم وهم يكيدون فينجحون أحياناً بين الضعفاء ، ولا يقوون على أن يبثوا سمهم في أقوياء الايمان ، لأن هؤلاء يعلمون أمرهم ، ولا ينخدعون ، وإن كانوا كما قال الله تعالى : ﴿يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾.

وهكذا نجد المنافق الذي يكثر نفاقه بالكذب على النـــاس واستمرار الكذب ينتهي أمره بأن يفسد تفكيره فلا يرى الأمور على وجهها، بل يراها من وراء تفكيره السقيم .

اشتد أمر النفاق في المدينة ، حتى ذهب أهل كل بيت فيه منافق يستأذن النبي ﷺ في قتله، وذهب عبدالله بن عبدالله بن أبي يقول للرسول إن كنت تريد قتل أبي فأمرني بقتله فاني لا أريد أن يكون في نفسي ثأر من مؤمن .

ولكن النبي ترك النفاق يأكل بعضه بعضاً .

وقال أبن عمر ؟ لو قتلناهم يوم طلب قتلهم لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم .

وهكذا بحكمة الرسول وبحلمه وسماحته ولطف عشرته تمت الوحدة بين العرب ، ومات النفاق بينهم بفعل أهله،والله سبحانه وتعالى بكل شيء محيط.

الاتجاه بالدعوة إلى غير العرب

٤٩ – تم تأليف العرب في وحدة اسلامية جامعة ، أو كاد يتم، والاسلام لم يجىء للعرب وحدهم ، ولكنه للعالم الإنساني كلّه ، فكان لا بد أن يتجه إلى الناس كافة من بعد نشره في البلاد العربية ، وجعل قوة له فيها ، وبعد أن أزال دولة الأوثان .

ولذلك اتجه إلى الروم والفرس والشام ومصر برسل أرسلهم ، وكتب كتبها ، وهو يريد من الارسال اليهم أن ينفذ إلى شعوبهم ، ليتمكن من الدعوة الإسلامية الجامعة لكل معاني الانسانية .

بعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه ، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام .

يقول ابن هشام في سيرته : « فبعث دحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أميـــة الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر والاسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى ملـكي عمان ».. ولم يقتصر برسله على غير العرب ، بل أرسل إلى أمراء العرب الذين نأت ديارهم ، ولم يشتركوا في حروب النبي ﷺ ، ولم يـــكن في أرضهم فتح إسلامي .

ولنثبت هذه الكتب كما رويت في كتب السيرة وفي الصحيحين ، صحيح مسلم والبخاري وغيرهما .

أ — ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه كتب إلى هرقل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فاني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (يريد الرعية) يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

ب — وكتب إلى كسرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فاني رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فان أبيت فعليك إثم المجوس .

ويروى أنه لما قرىء عليه الكتاب مزقه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال مزق الله ملكه .

جـ — وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة :

بسم الله رب العالمين ، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة : أسلم أنت ، فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطهور الطيبة الحصينة ، فخلقه الله تعالى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، واني

أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فاني رسول الله، واني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى .

وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمري ، وقد أخــذ يذكره عمرو بعطفه على المسلمين عند الهجرة إلى الحبشة،وحدبه عليهم قال له : «يا أصحمة إن علي القول ، وعليك الاستماع ، انك كأنك في الرقة علينا ، وكأنا في الثقة بك ، ومنك لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه منك ، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك : الإنجيل بيننــا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفي ذلك الموقع الحز ، وأصابة المفصل وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم .

وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس ، فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف ، وأجر ينتظر .

قال النجاشي : أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر .

وكتب النجاشي كتاباً إلى النبي جواباً لكتابه هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة .

سلام عليك ، يا نبي الله من الله ، ورحمــة الله وبركاته الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، فما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا،قد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً،

وقد بايعتك وبايعت ابن عمك (جعفر بن أبي طالب) ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين .

د - وكتب إلى المقوقس ملك مصر والاسكندرية ، وهذا نص الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله - إلى المقوقس عظيم القبـــط .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت ، فانما عليك إثم القبط « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبـــد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

بعث هذا الخطاب مع حاطب بن أبي بلتعة ، ولم يكتف حاطب بتبليغ الرسالة ، بل ناقشه في أمور الفراعنة والعبرة في أخبارهم ، قال حاطب : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك . قـــال المقوقس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه. قال له حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام ، الكافي به الله فقد ما سواه ، وإن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ، ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوارة إلى الانجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبي .

ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

قال المقوقس ، إني نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمَزْهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن

الكاذب ، ووجدت معـــه آية النبوة باخراج الجبناء والاخبار بالنجوى وسأنظر .

وأخذ كتاب النبي ﷺ ، فجعله في حق من عاج وختم عليه ورفعـــه إلى جارية ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربيـــة فكتب إلى رسول الله الكتاب التـــالي :

لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط .

سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقي ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك ، وقد بعثت اليك بجارية لها مـــكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

كانت الإجابة فيها سلام وأمان ، ومودة ولم يكن فيها إيمان .

٥٠ – هذه كتب كتبها إلى ملوك ورؤساء لم يكونوا عربا ، وقد رأينا أن بعضهم لم يرد مطلقاً ، وإن كان فيه ميل إلى الإسلام ، ولكن حب الملك طغى على حب الحق فطمسه .

ومنهم لم يرد، ولكنه كان غليظاً في تلقيه للكتاب إذ مزقه فدعا عليـــه النبي ﷺ أن يمزق الله ملكه ، فمزقه المسلمون شر ممزق ويروى انه ارسل من يذهب إلى النبي ﷺ ليقتله .

ومنهم من آمن ، وحسن إسلامه ، وهو النجاشي .

ومنهم من أحسن الرد ، ولم يحسن لنفسه بالإيمـــان ، وهو المقوقس عظيم القبط في مصر .

وإن النبي ﷺ كتب لبعض أمراء العرب الذين كانوا في أرض نائية عنه فأجابوا ومنهم من ذكر أن تحت سلطانه يهوداً ومجوسا ، وماذا يصنع معهم ، وهو المنذر بن ساوى .

ذكر الواقدي باسناده عن عكرمة مولى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما .

قال وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس ، فنسخته ، فإذا فيه بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ، وكتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام .

فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ جاء فيه :

أما بعد يا رسول الله ، فإني قرأت كتابك على أهـل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأرسل إليّ في ذلك ، فكتب اليه رسول الله ﷺ .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى :

«سلام عليك،فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو،وأشهد أن لا إله إلاالله، وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد:فإني أذكرك الله عز وجل،فإنه من ينصح فانما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم ، فقد أطاعني ،ومن نصح لهم، فقد نصح لي ،وان رسلي قد أثنوا عليك خيراً وإني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

ونرى أن ذلك الكتاب المروي عن رسول الله تعـالى بسند ابن عباس (في الجملة) يدل على أمرين :

أولهما — تسامح النبي ﷺ مع أهل الذنوب ، وترك أمورهم لله تعـالى ، وبيان أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن الأمر يكون على حسب حاضرهم .

وثانيهما — أن الرسول ﷺ استجابة لأمر ربه في قوله تعـالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ لم يفكر في إكراه المجوس واليهود الذين هم في ولاية

المنذر ، بل تركهم وما يدينون ، وفرض عليهم جزية تقوم مقام ما يجب على المسلم من زكوات وكفارات ، ونذور ، وصدقات ، وليساهموا بذلك في بناء الدولة الإسلامية .

٥١ - بهذه الكتب التي أرسلها النبي ﷺ حقق أن رسالته للناس كافة ، لينذر من كان حيا ،ويحق القول على الكافرين ،ولم يجب إلى الإسلام إلا النجاشي ، وبعض قومه ، وقد فتح باب الدعوة إلى الإسلام في ارضه وغيره من ملوك الفرس والروم ومصر وغيرهم ،لم يجيبوا داعية الإسلام ولم يفتحوا الباب للدعوة الإسلامية ، ومنهم من رد رداً عنيفاً فيه إعلان العداوة للإسلام والمسلمين ،ومنهم من لم يرد قولا ، وإن كان قد ثبت ميله للإسلام بالقول ، وآثر الاحتفاظ بملكه عن الاستجابة للدعوة إلى الإسلام ، فقد جاء في صحيح البخاري أن هرقل عندما جاء اليه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه وقومه إلى الإسلام عرض على الملأ من الروم وبدا من لحن قوله وصريحه أنه يصدق الرسالة المحمدية ، فحاصوا حيصة حمر الوحش فتراجع ، وقال إنما كنت أختبركم .

ولم يقف بالنسبة للرومان على السكوت فقط ،بل إن الولاة والقواد للجيوش الرومانية اعتدوا على من دخل في الإسلام من أهل الشام وقتلوهم وفتنوهم في دينهم ، فحق قتالهم .

ولذلك أرسل النبي الجيوش للشام ، وخرج الروم إلى المسلمين في غزوة مؤتة بجيوش كثيفة ، وقد تراجعت الجيوش الإسلامية بمهارة خالد بن الوليد عندما رأى أنه لا قبل للمسلمين بالرومان عدداً ، وعُدداً ، ثم كانت . . غزوة تبوك .

وكان لا بد أن تنفذ الدعوة الإسلامية وراء محاجزات الملوك وممانعات الأمراء ، لأن الأمر بتبليغ الرسالة عام كما قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ ولا بد من إزالة هذه المحاجزات ، لما كان من اعتداء على المسلمين ، وعلى الإسلام بمنع دعوته .

واتجه النبي ﷺ إلى فتح الشام للدعوة الإسلامية ، فأعـــد جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ، وشدد في تنفيذه ، وكان فيــه الشيخان الجليلان أبو بكر وعمر .

وأوصى بتنفيذه ، وكان لا بد من تنفيذه .

وهنا نلتفت التفاتة صغيرة إلى معنى تكوين الجيش ، فعلى رأسه أسامة ابن زيد الذي قتل أبوه في حرب مؤتة ، وهو مع ذلك ابن زيد الذي لم يبلغ في نسبه ولا في مكانته كبار قريش وخصوصاً أن في الجيش أبا بكر وعمر ، ومكانتهما في الإسلام مكانتهما .

وفي ذلك إثبات أن الشرف ليس بالنسب ، وأنه يجب أن يمكن الصغير من العمل ، كما يمكن الكبير ، وانه لا تقف الممانعات أمام صغير ، ولا يغض من مقام الكبير أن يكون مرؤوساً للصغير ، فإنه جهـــاد ، لا شرف فيه إلا للعمل .

التآلف بين العرب وغيرهم :

٥٢ – تكاثر دخول غير العرب في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ عندما فتحت فارس، والشام، ومصر، وانساب المسلمون في شمال افريقيا، ثم من بعد ذلك دخلوا الأندلس وصاقبوا وسط أوربا ، فهل ترك النبي ﷺ الأمر فرطا ولم يبين ما ينبغي اتباعه بعد أن دخل غير العرب في دين الله أفواجاً أفواجاً كلا إن النبي ﷺ دبر الأمر لما يكون من بعـــده ، حتى تكون الوحدة الإسلامية كاملة .

وذلك في أمور ثلاثة :

أولها : النهي المطلق عن العصبية ،فإن النهي عن العصبية يدخل في عمومه النهي عن عصبية الإقليم ،كما يدخل في عمومه النهي عن عصبية القبيلة والنسب

وأساس العصبية أن يعين المتعصب قومه على الظلم ، كما بين النبي ﷺ أن العصبية لا تنافي حب قومه ، ولا تنافي حب الوطن ، كما وضحنا ذلك في بيان تدرج المحبة في المجتمع الإسلامي ، وأن الأساس ألا تكون معاداة مطلقاً ، وبالتالي لا يكون ظلم ، لأن العداوة تجر إليه ، ومـا يكون حراماً تحرم ذريعته ، ودين المحبة يمنع العداوة في أي صورة من صورها ، والظلم في نظر الإسلام كما قرر محمد ﷺ ظلمات يوم القيامة .

وثانيها: إثبات الأخوة الإنسانية العامة التي لا تفرق بين عربي وأعجمي فقد قال عليه الصلاة والسلام كما روينا من قبل : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

وقد أوجب القرآن الكريم ذلك لأجل التعارف الإسلامي العام في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وقد قرر القرآن الكريم الأخوة بين أهل الإيمان بقوله تعالى : ﴿ إنمـا المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ، يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ .

ونهى النبي ﷺ عن التنابز بالألقاب التي تدل على الجنس المختلف فقد سمع ﷺ عربياً من أصحابه يتنابز مع غيره ، فيقول له : «يابن السوداء ، فيغضب رسول الله ﷺ ويقول : « لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا التقوى . »

الأمر الثالث – ولاء الموالاة الذي شرعه النبي ﷺ بين العرب وغـير العرب ، ليقوم مقام المؤاخاة ولذلك بيان ، نذكره بإيجاز .

ولاء الموالاة

٥٣ – ولاء الموالاة عقد يشبه عقد الاخاء الذي كان في عصر النبي ﷺ وعقده عليه السلام بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، والأنصار بعضهم مع بعض على ما حققنا فيما مضى ، وثبت من الرواية الصحيحة

وحقيقة عقد الموالاة أن يتفق رجل دخل في الاسلام من غير العرب عادة مع أسرة عربية على أن تعقل عنه إذا جنى ، ويدخل في الأسرة على هذا الأساس بحيث يكون كأحدها في هـــذا ، ولا يتجاوزه ، وعند الحنفية ، أبي حنيفة ، وأصحابه أن العربي في مقابل أن يعقل عنه إذا جنى يرثه إذا مات من غير وارث من ذوي فروض ، ولا عصبة ، ولا ذوي أرحام .

وخالف بعض الفقهاء الحنفية في الميراث ، ولكن لم يخالفوهم في أصل عقد الموالاة ، فهو حقيقة ثابتة بالقرآن وبأحاديث النبي ﷺ ولا مجال لفقيه من فقهاء الاسلام الأعلام أن ينكر أمراً ثابتاً بالكتاب والسنة .

ونحن نذكر ولاء الموالاة في الوحدة الاسلامية ، لأنه امتداد للاخـــاء الاسلامي الذي تولاه محمد ﷺ ، والمؤاخاة الاسلامية عقد أشرف عليه النبي ﷺ ، ونحسب أنـــه داخل في عموم النصوص الدالة على العقود التي تثبت مؤاخاة بين المسلمين تثبيتاً للوحدة ، وتمكيناً للأخوة الاسلامية العامة ، سواء أكانت بعقد سمي عقد المؤاخاة ، كما سماه النبي ﷺ أم سميت بعقد الموالاة ، كما اشتهر بين الفقهاء من بعد .

ونعود إلى النصوص الواردة المثبتة لعقد الموالاة والتي تشمل بعمومها عقد المؤاخاة على أنه شريعة إسلامية دائمة ، إن لم تكن واجبة فهي أمر حسن في الاسلام ، وليس حالا وقتية خاصة بالهجرة .

لقد قال تعالى : (ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ، إن الله كان على كل شيء شهيداً).

وقد روي عن جابر أن النبي ﷺ كتب على كل بطن عقوله (أي أن تقوم قبيلة العاقد الذي عقد موالاة بدفع دية مولاه إذا جنى ، وقال لا يتولى مولى قوم إلا باذنهم ، أي أنه لا يدخل في أسرة أو قبيلة بمجرد عقد شخص منها، بل لا بد من اذنها ، ولقد قال في ذلك أبو بكر الرازي الشهير بالجصاص « حوى هذا الخبر معنيين أحدهما جواز عقد الموالاة .. والثاني أن له أن يتحول بولاية إلى غيره الا أنه كرهه إلا بإذن الأولين » .

ومؤدى هذا الكلام أن الولاء يبتدىء بالتزام شخصي من العاقد، ويتحول إلى ولاء للأسرة أو القبيلة كلها، وان النبي ﷺ يستحسن ما دام الولاء لههذا التعدي أن يكون بإذن من الاولياء ، لأنهم سيتحملون ديات جانبية، فيحسن أن يكون لهم ارادة واختيار ليكون الالتزام بارادتهم ، لا بالزامهم .

ولقد قال ﷺ : « الولاء لحمة كلحمة النسب » .

ولقد ذكر الفقهاء مستنبطين من كلام النبي ﷺ وسنته أحكامه فقال يحيى ابن سعيد إذا جاء رجل من أرض العدو فأسلم على يد مسلم فإن ولاءه لمن والاه ومن أسلم من غير المسلمين المقيمين في ظل الإسلام (الذميين) فولاؤه للمسلمين عامة .

وقال : الليث بن سعد فقيه مصر: من أسلم على يدي رجل فقد والاه ، وميراثه لمن أسلم على يده .

وروي عن تميم الداري أنه سأل رسول الله ﷺ يقول له يا رسول الله في الرجل يسلم على يدي الرجل من المسلمين قال هو أولى الناس بمحياه ومماته .

وروي أنه قد سئل ابن شهاب الزهري عن رجل أسلم فوالى رجلا هل بذلك بأس ، قال لا ، وقد أجاز ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

٥٥ - وفي الحق أن اجازة عقد الموالاة ثابتة بالقرآن فيما تلونا، وبالحديث والسنن المروية عن الصحابة ، وهو تناصر وتآلف بين العربي ، وغير العربي

وبين المسلم القديم باسلامه ، والمسلم الداخل في الإسلام الذي يكون في كثير من الأحوال قد انفصل عن أهله وعشيرته ، فشرع الله تعـالى ولاء الموالاة ليكون للرجل أنس بالمسلمين . وقد فقد أنسه بآله وعشيرته ، وهذا يفسر قوله ﷺ « الولاء لحمة كلحمة النسب »

ويفرض الفقهاء اعتراضين أحدهما على أصل شرعية هذا الولاء ، والثاني على التوريث به .

أما الأول فهو ما روي عن رسول الله ﷺ انه قال في رواية جبير بن مطعم « لا حلف في الإسلام ، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » أي في حال كونه موافقاً للمبادىء الإسلامية ، كحلف الفضول الذي كان لحماية الضعفاء ، أما الحلف الجاهلي الذي يتنافى مع مبادىء الإسلام ، فإنه لا يلتفت اليه ، وكان حلف الجاهلية يقوم على التعاون على الإثم والعدوان ، والأخذ بالثارات ، ويقول في ذلك أبو بكر الرازي « وذلك لأن حلف الجاهلية كان يعاقده ، فيقول : « هدمي هدمك ، ودمي دمك ، وترثني وأرثك ، وكان في هذا أشياء قد حظرها الإسلام ، وهو كان يشترط أن يحامي عليه ويبذل دمه دونه، ويهدم ما يهدمه ، فينصره على الحق والباطل، وقد أبطلت الشريعة هذا الحلف ، وأوجبت معونة المظلوم على الظالم ، حتى ينتصف منه ، وألا يلتفت إلى قرابة ولا غيرها ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم ، أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً ، فالله أولى بهما فـلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ﴾ .

وخلاصة هذا الرد أن الحلف المنهي عنه في الاسلام هو الحلف الجاهلي الذي أساسه أن تؤخذ الحقوق أو غيرها من غير حكم، بل بالغلبة والقهر والتعاون عليها فحرم الاسلام ذلك حرم أن يكون حلف في الإسلام يكون على هذه الأسس، ففي الإسلام نظام وقضاء ، ولم يترك الناس يبغي بعضهم على بعض ، فقـد

كانت دولة حاكمة بالعدل ، تنتصف للضعيف المظلوم ، وتقتص من القوي الظالم .

وإذا كان الحلف قائماً على العدل والانصاف للمظلوم ، فإن الاسلام يزيده كحلف الفضول الذي عقد في دار عبدالله بن جدعان الذي كان المتحالفون فيه يقولون لنأخذن على يدي الظالم ما رسا ثبير (جبل بمكة) ومابل بحر صوفة ، ولقد حضره النبي ﷺ ، وقال بعد بعثه عليه السلام : لقد حضرت حلفاً بدار عبدالله بن جدعان ما يسرني به حمر النعم ، ولو دعيت إليه في الاسلام لأجبت .

ومهما يكن من أمر حلف الجاهلية فالولاء على المعونة والنصرة ، ودفع الدية والمعاونة فيها إن وجبت لا ينطبق عليه معنى الحلف الذي يكون فيه التناصر في الباطل ، وإن كان فيه حلف فهو في المعاونة على أداء الحقوق والواجبات وايناس المسلم حديث العهد بالاسلام بالأخوة الاسلامية .

وإذا كان فيه معنى فهو أنه من نوع المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وهو في مؤداه تقوية للوحدة الاسلامية ، ومحاربة للعصبية الجاهلية .

والاعتراض الثاني ليس على أصل الولاء ، إنما هو على التوريث به ، وذلك لأن الله تعالى يقول : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) .

وإن هذا وإن كان فيه الخلاف الفقهي بين أبي حنيفة وبعض من الفقهاء لا مانع من أن نقول فيه كلمة موجزة : « إن الذين يثيرون هذا الاعتراض في الميراث بمولى الموالاة يدعون النسخ في قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم ، فآتوهم نصيبهم ، إن الله كان على كل شيء شهيدا ﴾ ، ونحن أولاً لا نرى في القرآن منسوخاً على ما قررنا في كتاب أصول الفقه .

وثانياً : أنه لا تعارض بين الآيتين ، فآية ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ وآية الميراث بالموالاة بالعقد ، لأن الميراث بولاء الموالاة حيث لا تكون قرابة مستحقة لميراث قط .

وقد يقول قائل : « (إن آية وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) نسخت الميراث بالمؤاخاة أيضاً ونحن نقول إن الميراث بالمؤاخاة لم يثبت بنص قرآني ، وإن كان النص القرآني يشمله بعمومه باعتبار أن المؤاخاة عقد ، فإن الميراث بها لا ينسخ إذا كان على أساس أنه لا يكون إلا حيث لا تكون قرابة قط.

بيد أن عقد المؤاخاة لا يثبت الميراث على أساس العقد إلا إذا كان فيه النص على انه يعقل عنه إذا جنى ويرثه إذا كان من غير قريب .

٥٦ — هذا هو عقد الموالاة الذي شرعه القرآن الكريم ، وبينته سنة محمد ﷺ وهو عنصر من عناصر تكوين الوحدة الإسلامية التي كونها محمد ﷺ في حياته ، وأوصى باستمرارها بعد وفاته ، ونهى عن قطعها ، وعد من يقطعها كأنما يبث مبادىء الكفر في الأمة الإسلامية ، ولذا قال عليه السلام : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض . »

ولقد انتشر عقد الموالاة في صدر الإسلام في عهد الراشدين ومن جاء بعدهم حتى سمى المسلمون غير العرب بالموالي لأنهم كانوا يعقدون ذلك العقد المؤلف بين المسلمين الذي اقتضته الوحدة واقتضاه أنس المسلم الأعجمي بأخيه المسلم العربي ، وتلاقيهما على مائدة الرحمة الإسلامية ، والأخوة العامة .

وإن كثيراً من كبار رجال الإسلام كانوا موالي بهذا المعنى ، فأبو حنيفة كان مولى لبني تيم ، ولذا كان يقال أبو حنيفة التيمي .

الوحدة الإسلامية في عهد الراشدين

٥٧ – ربما نكون قد بسطنا القول في عصر النبوة ، بما قد يخرجنا عن نطاق بحث موجز ، إلى أن يكون كلاماً في كتاب مبسوط ، ولكن الذي دفعنا إلى ذلك أن عصر النبوة المحمدية هو عصر تكوين الوحدة الإسلامية ، وقيام دعائمها ، ولا يمكن أن يعرف التفرق إلا إذا عرفنا قواعد البناء ، وما أتى القواعد من هذا البنيان ، حتى تصدع ، ولأننا إذا عرفنا التصدع،ووازنا بين أصل البناء وهو قائم ، وحاله بعد التصدع– يمكننا معرفة الصدع،فنرأبه ومكان السقوط ، فنرفعه .

نعلم بهذا كيف تفرق المسلمون مخالفين أوامر النبي ، وكيف يمكن اعادة الوحدة ، وأن نعلم أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وحدة يمحى فيها كل اسباب التفرق الاقليمي الا ما تقتضيه الطبيعة المكانية ، من اجل هذا ، ولكي تكون المعالم واضحة بسطنا القول في تكوين الوحدة .

وعهد الراشدين أبي بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي كان ينبغي أن يكون امتداداً لعصر النبوة في الوحدة، لأن هؤلاء أخلص المؤمنين للإسلام ،وأقربهم إلى النبي ﷺ في دعوته ، وأهداهم رشداً .

ولكن كانت أحداث لم تكن من قبلهم جعلت عصر الراشدين الكرام الذين انتقل رسول الله تعالى إلى ربه وهو عنهم راض، وهم من المبشرين بالجنة– جعلت

هذه الأحداث الأمور تتغير في عهد بعضهم على غير ارادة منهم، ولكن بتغير الناس ، وقد أمكن في بعض الأحوال حمل الناس على الجادة ، وفي بعضها اتسع الخرق على الراقع بسبب دسائس من غير المؤمنين وسيطرة بعض المنافقين ولم يكن المعصوم ﷺ الذي عالج النفاق بالحكمة ، مع اليقظة المترصدة المتتبعة — حيا .

الاختلاف والردة :

٥٨ — ما ان انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى انبعثت العصبية من مراقدها ، ورفعت رأسها كما تنتأ رؤس الشياطين .

ابتدأت عند اختيار خليفة للمسلمين ، فقد كان اجتماع في سقيفة بني ساعدة ، وقف فيه سعد بن عبادة الذي نادى وهو يحمل لواء الأنصار : اليوم يوم الملحمة يوم تذل فيه قريش ، وقف يقول : منا معشر الأنصار أمير ، ومن المهاجرين أمير ، وقد قضى على هذا الخلاف كلام أبي بكر وحكمته ، ومسارعة عمر رضي الله عنه إلى بيعة أبي بكر ، وتتابع أهل السقيفة في البيعة أنصاراً ومهاجرين .

وامتنع عن البيعة سعد بن عبادة ، فلم يبايع أبا بكر ، كما لم يبايع عمر .

وانتهت هذه الزوبعة، أطفأها الله تعالى ، إذ لم تجد حطباً يؤجج النيران لإخلاص الأنصار الذين نصروا ابتداء ، وسدوا باب الفرقة والانقسام انتهاء .

ولكن ما إن انطفأت تلك الزوبعة الخفيفة ، وذهبت غياهبها بنور الاخلاص وقوته حتى انبعثت العصبية في حدة وعنف بلغا أشدهما .

وذلك في الردة : لقد كانت الردة انبعاثا للعصبية ، وكانت البثق الكبير الذي انبثق من قبائل الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ﴾ .

فقد امتنعت عن طاعة المدينة والخضوع لسلطانها القبائـــل العربية إلا قريشاً وثقيفاً .

ارتدت أعداد كثيرة من أسد وغطفان وطيىء، وناس من تميم واليمامـــة وارتد أهل البحرين وعمان وكنده ، وحضرموت واليمن .

وهكذا خرجت جموع مرتدة من كل القبائل ، وكان خروجها لأمرين :

أولها : أن الإسلام لم يكن قد استمكن من قلوبهم ، ولذلك قـال الله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ .

وثانيها : العصبية الجاهلية التي كانت تحقد على مضر وقريش، حتى لقد قال قائل منهم : « كاذب ربيعة خير من صادق مضر»، فالعصبية التي حاربها محمد ﷺ ، واعتبر الدعاية بهـــا دعاية منتنة خبيثة ، ارتفعت رأسها ناتئة تنادي بالفرقة والانقسام ، وأن يعود العرب كما كانوا قبل أن ينقذهم الله تعالى من حفرتها .

ولولا عزمة أبي بكر ، وحكمته لعاد العرب كما كانوا ، ولكن عزمة أبي بكر الضعيف في بدنه القوي في إيمانه قد قضت عليها ، وجيش لهم الجيوش من قريش والأنصار ، وحاربوا عن إيمانهم .

فلما عضت الحرب أهل العصبية الجاهلية قالوا نرضى بالصلاة ، ولا نعطي الزكاة ، فرأى بعض المؤمنين أن يقبل منهم ذلـك ، حتى يستمكن خليفـة رسول الله ﷺ ، وكان فيهم عمر .

ولكن الصديق ، وقـد اعتزم ، لم يرض بنصف الحل ، وقال : إما سلم مخزية ، وإما حرب مجلية والتفت إلى عمر رضي الله عنه ، وأخذ بلحيته وقال له ثكلتك أمك يابن الخطاب جبار في الجاهليـة خوار في الإسلام ، وقـال الصديق في قوة إيمان، والله لو منعوني عقالا أعطوه لرسول الله لقاتلتهم عليه،

ويقول رضي الله عنه : « والله لو أفردت من جمعكم لقاتلتهم حتى أنال مأربا أو أهلك مهلكا .»

انتصر الايمان على الردة بتوفيق الله تعالى ثم عزمة أبي بكر ، وجهاد أهل الإيمان .

وكان من حكمة الصديق أن جند العرب لحرب فارس والروم .

وتحقق قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم ﴾ .

عهد الشيخين :

٥٩ — بعد أن انتهت الردة ، وعصبيتها ، استقام أمر المسلمين على وحدة جامعة شاملة،قام على حراستها صديق الأمة خليفة رسول الله ﷺ،ثم قام من بعده الفاروق رضي الله تبارك وتعالى عنه الذي لا يسير الشيطان في فج يسير فيه عمر ، كما قال النبي ﷺ ، والذي قال فيه الرسول ايضاً انه لم يَفْرِ فرية في الإسلام .

خمدت العصبية الجاهلية المفرقة ، وأطفأ نيرانها الايمان ، والفتوح الإسلامية وقد وضعت العقوبات الرادعة الزاجرة لمن ينادي بها .

وكان عمر رضي الله تعالى عنه يأمر قضاته وولاته أن يعاقبوا من ينادي بالعصبية الجاهلية ، حسما لمادة الفساد ، ولقد روي أن أبا موسى الأشعري عاقب النابغة الجعدي بجلده خمسين جلدة لأنه اشتد بعصبيته ، ونادى يا لعامر .

والفقهاء من بعد ذلك في عصر الاجتهاد الفقهي بناء على الهدي المحمدي وعلى سنة الصحابة من بعده قدروا عقوبة زاجرة لمن ينادي بنداء الجاهلية .

فنهم من جعلها خمسين جلدة اقتداء بالصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ومنهم من جعلها عشر جلدات ، لما روي من أن النبي ﷺ نهى عن جلد أحد فوق عشر جلدات إلا في حد .

ومنهم من قال إن ذلك يترك لتقدير القاضي ، أو الوالي إذ أن العقوبة عقوبة تعزيرية ، والتعزير يفوض إلى القاضي أو ما يراه ولي الأمر رادعاً .

وبذلك تعاون الولاة مع الامام أبي بكر وعمر على مقاومة العصبية التي تفرق الجمع الاسلامي وتقطع الوحدة الاسلامية .

اتساع الحكم الاسلامي :

٦٠ — في عهد أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ خرجت الجيوش الاسلامية لتزيل حكم الملوك الذي كان يحول بين الشعوب ، والاستماع إلى الدعوة الإسلامية التي تتضمن التوحيد ، وأعلى المبادىء الاجتماعية من الحرية والمساواة وأن يكون أمر الناس شورى بينهم ، وإقامة العدل ، ومنع الظلم والفساد ، وما كان حكام ذلك الزمان ليسمحوا بأن تتسلل تلك المبادىء إلى شعوبهم ، وإلا لم يكن لملكهم أساس يقوم عليه .

وفوق ذلك فإن أولئك الحكام ردوا دعوة النبي ، رداً غير كريم ، واعتدوا على من أسلم في الشام ، كما أشرنا من قبل ، وقد انسابت الجيوش الإسلامية في أراضي هؤلاء الملوك ، وخضعت الشعوب المفتوحة أرضها لحكم الإسلام ، وأظلهم عدله .

وقد انقسموا إلى قسمين : قسم أسلم ، ودخل في جماعة المسلمين ، وصاروا بهذا تجمعهم راية الإسلام ، ويخضعون للقرآن ، وينفذ حكمه ، وحكم الدولة الإسلامية .

وقسم لم يسلم ، ولكن دخل في عهد المسلمين ، ومن هؤلاء من ارتضى أن

يكون في ظل الحكم الإسلامي له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وهو حر في الجزء الذي يتعلق بالعقيدة الدينية ، لا يمنع من اقامة شعائره الدينية، ويكون في أحكام الأسرة خاضعاً لدينـــه الذي ارتضاه ، لا يكره على الدين ، ولا يضطهد في اعتقاده ، والقاعدة الفقهية التي أثرت عن الصحابة والتـابعين ، وعدها الفقهاء قاعدة تتبع وتنفذ هي « أمرنا بتركهم ومايدينون » ويسمى هؤلاء الذميين ، إذ أن لهم ذمة رسول الله ﷺ ، وأي مسلم له أن يعقد ذمة مع غير مسلم ، والامام يقره ، وذلك لقوله ﷺ « المسلمون تتـكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

وهؤلاء تؤخذ منهم جزية لقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد ، وهم صاغرون ﴾ أي طائعون غير متمردين ولا مستكبرين ، وليس المعنى أذلاء ، فدين الله ، وهو دين العزة لا يذل أحداً ، إذ أن العزيز من الناس هو الذي يقدر العزة في غيره ، كما يقدرهـــا لنفسه ، ودين الحق والعدل لا يذل أحداً ، لأن قانون العدل ونظامه يمنع الاذلال .

وهذه الجزية كانت ليشترك غير المسلم الذي يستظل بظل الدولة الإسلامية في بناء الدولة والانفاق على مرافقها ، وهي في مقابل ما يؤخذ من المسلم من زكوات جارية منظمة يجمعها ولي الأمر ، كما كان يجمعها النبي ﷺ عن طريق ولاة الصدقات الذين يرسلهم ، ومنها الصدقات المطلوبة والنذور والكفارات والفدية وغير ذلك .

وان الجزية تؤخذ منها النفقات على فقراء أهل الذمة ، فقد كان يفرض لهم من بيت المال ما يسد حاجتهم .

روى أبو يوسف في كتابه الخراج، أن عمر بن الخطاب رأى رجلا شيخاً يتكفف الناس فسأله من أنت يا شيخ ، قال رجل من أهل الذمة ، فقـال الفاروق العادل الرحيم: « ما انصفناك أكلنا شبيبتك وتركناك في شيخوختك »، وأجرى

له رزقاً من بيت المال ، وقال لخازن بيت المال ابحث عن ضرباء هذا ، وأجر لهم رزقا من بيت المال ، ولا شك أن ذلك الذي يجري عليه يمكن أن يكون من الجزية، ولكن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه جعل ما يجرى على هذا الرجل وأشباهه من الزكاة ، وقال إنه داخل في المساكين إذ يقول سبحانه : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين وفي سبيل الله ﴾ فأدخله في المساكين ، بل انه رضي الله عنه فسر المساكين بزمنى أهل الكتاب .

والقسم الثاني من المعاهدين هم الأمراء أو الحكام الذين لم يقاتلوا المؤمنين عندما يخيرهم القائد بين الإسلام أو العهد أو الحرب، فيختارون العهد، على أن يبقوا على ما هم عليه من حكم وسلطان ودين ، على مال يقدمونه في نظير أن يقوم الجيش الإسلامي بالدفاع عنهم والذود عن أرضهم .

وقد قرر الفقهاء مقتبسين من هدى النبي ﷺ أنه لا يجوز من الشروط ما يكون فيه تمكين للأمراء والحكام من حكم الرعية بالظلم ، فإن شرط ذلك يكون باطلاً ، لقوله ﷺ : « المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حلالا ، أو حرم حراماً » ، والظلم حرام لذاته حرمة لا يبيحها نظام أو قانون .

بل انه إذا علم أن أميرا ممن له عهد يظلم رعيته ، ويسعى بالفساد فيها يرد عليه عهده ، لأن ذلك يكون خيانة للعهد ، والله تعالى يقول : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين . ﴾

الدولة الاسلامية بعد الفتوح :

٦١ – كانت الدولة في عهد النبي ﷺ مقصورة على العرب وإن آذن عليه الصلاة والسلام بأن الفتوح ستفتح ، فآذن بأن الله سيفتح على المسلمين العراق وفارس والشام ومصر وما وراءها ، وروى عمرو بن العاص أن

النبي ﷺ قال : « سيفتح الله تعالى عليكم مصر فإذا فتحتموها،فأعدوا فيها جنداً كثيفا ، فهو خير أجناد الله تعالى في الأرض ، فقال أبو بكر رضى الله تبارك وتعالى عنه : ولم يا رسول الله ؟،قال : لأنهم ونساءهم في رباطدائم».

وبعد أن فتحت هذه الأقاليم صارت الدولة الإسلامية ليست مقصورة على بلاد العرب وحدها بل شملت في عهد الإمام عمر رضي الله عنه تلك الأقاليم كلها ، وكانت الإمامة الكبرى التي تتمثل في الخلافة بالمدينة ، حيث أمير المؤمنين بها ، يبين تعاليم الإسلام ، ويبلغ أوامره ونواهيه إلى كل اقليم ، ويلاحظ هنا أمور :

الأولى : أن الشريعة الإسلامية شريعة القرآن والسنة المحمدية ، هي التي كانت تحكم بها تلك الأقاليم مهما تباعدت رقعتها عن المدينة ، وكانت عين الفاروق الساهرة الفاحصة تترصد لتنفيذ تلك الأحكام في غير هوادة ، وليس لغير الحق عنده إرادة ، ولكن فيرحمة بالرعية ، وعطف على الضعفاء .

٦٢ — وفي الحقيقة انه مع شمول الحكم لكل الأقاليم التي كانت في ظل الدولة الإسلامية لم يفقد كل إقليم ذاتيته مع سلطان الإمام العادل عليه،ونفوذ الأحكام الاسلامية فيه .

لقد كان الإمام عمر الذي اختبره الله باتساع سلطان الدولة الإسلامية يكتفي من فرض سلطانه بتنفيذ الأحكام الشرعية وهو عليه الرقيب الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا تتبعها ، ليعرف مقدار تنفيذ أحكام الشريعة في العدل والمساواة والاخاء بين المسلمين ، وقرب الحاكم من المحكوم ،

ويترك للوالي الذي ينفذه ما يراه مصلحة في بلده ، بحيث لا يخرج عن المبادىء الاسلامية المقررة وبحيث يمكن أن يكون موافقاً للنظم الاجتماعيةفي بلده التي لا تخالف الإسلام ولا تجافيه ، ولا تتنافى مع المقاصد المقررة في الشريعة الإسلامية .

وكان يجعل في كل اقليم ثلاث ولايات ، قد تجتمع اثنتان منها في شخص

واحد ، ولكن واحدة يجب أن تكون منفردة ، الولاية الاولى ولاية القتال والجهاد في سبيل الدعوة الإسلاميـة من غير رهق ، ولا اعنات للناس ، ولا اكراه في دين الله تعالى .

والثانية : ولاية الخراج والجزية ، وقد تكون تابعة لوالي الجهاد الذي يعد أمير البلاد ، وله فيها الولاية العامة ،وقد اتبع عمرو بن العاص في جمع الخراج نظاماً يكاد يكون تعاونياً جماعيا .

فقد كانت عدة قرى تتجمع وتجمع خراجهـا ، وتتولى كل قرية نظـام الزراعة فيها فتوزع الأراضي الزراعية على القادرين عليها ومن يعجز أو يموت يتكفل القادرون زراعة أرضه له أو لورثته .

ويوزع خير الأرض بعد سداد الخراج ، وحجز مقدار للفقراء على المزارعين بنسبة ما تحت أيديهم .

وكان أمير المؤمنين يتعرف أخبار الذين يتولون الخراج ، حتى لا يرهقوا الأرض بأكثر مما تحتمل ويرهقوا الناس بأكثر مما ينتجون .

وإذا تكاثر جمـــع المسلمين في بلد كان والي الصدقات يجمع الزكوات ، وينفقها في مصارف ، وعين عمر تراقبه ، والغنائم والفيء تعود إلى بيت المال .

والولاية الثالثة ولاية القضاء ، وهذه كان يتولاها قاض من قبـــل الامام الأعظم ، وهو الذي يشرف على من دونه ، وكان الإمام يعطي القضاء عناية خاصة ، لأنه الميزان والقسطاس الذي يوزع العدالة بين الناس ، وجعل القاضي مستقلاً يستمد السلطان من الشرع فقط ، ويستمد الفصل بين الناس من الامام الأعظم ، لكيلا يتحكم والي الجهاد أو الوالي العام في النصفة بين الناس .

ولذلك نقول انه مع سيادة الدولة الاسلامية على كل الاقاليم التي سيطر عليها الإسلام سواء أدخلوا في الإسلام أم بقوا على دينهم مع أنهم يعيشون في ظل الدولة الإسلامية ، لم تمح الأقاليم .

بل كان في كل اقليم حكومته، وان كانت تابعة للدولة الكبرى، وتوحدها الدولة الكبرى ، ولذلك نقول : إن لكل اقليم حكومته ، ولكن القائمين عليها يستمدون الولاية من الامـــام الأعظم صاحب الولاية الكبرى الـــتي وحدت الدولة .

وكانت الحكومات كلها لها قانون واحـد هو القرآن والسنة ، والأمير الأعظم هو المقيم بالمدينة ومنه يستمد كل الولاة ولا يتهم ، ويصدرون عنه فيما لم يترك لهم ، وهو يتتبع أعمالهم .

سيطرة عمر على الولاة :

٦٣ ـ كان عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه الإمام ، وعصره هو العصر الذي استبان فيه سلطان الكتاب والسنة وتطبيقها تطبيقاً سليماً على مقتضى العصر، وحكومته هي الحكومة الإسلامية التي تعد بعد حكومة الرسول وخليفته المثال الذي يتبع ، وكان فيها جمع للمسلمين ، على الخير والعدل .

وكان يراقب عماله بالاستماع إلى الشكوى منهم ، وما شكي من عامل واهمل الشكوى ، بل انه في بعض الأحيان كان يثبت له كذب الشكوى ولكنه يخشى من تحامل الوالي العادل البريء على من شكاه لأن الافتراء يحدث شيئاً في نفس من افتري عليه كما فعل مع الصحابي الجليل احد العشرة المبشرين بالجنة سعد بن أبي وقاص فانه كانت ثمة شكوى منه ، وأحضره وبـــين له كذب الشكوى وترضاه عمر ولكنه عزله مع ذلك، خشية أن يكون ألمه ممن شكوه دافعاً لما لا يريده .

وكان رضي الله عنه يصرح بانه يؤثر أن يعزل كل يوم والياً عن أن يبقي والياً يظن منه الظلم أو يشتبه في ظلمه . وكان يسأل في موسم الحج وفود الأقاليم عن حال الولاة ويتعرف معاملتهم لرعيته فان تبين له أن الوالي يحتجب عن الناس عزله ، وإن تبين له أنه يسكن بعيداً عن الناس نهاه .

وأول من يسأل عن حاله معهم حاله مع أهل الذمة (الذميين) أينصفهم أم لا وذلك لأن هؤلاء مظنة أن يظلموا فان تبين له أنه يحسن معاملتهم ، ويحفظ لهم حريتهم في تدينهم أبقاه .

ولقد كان يجتمع بولاته ، ويحثهم على العدل ، وألا يرهقوا الرعية ، ومن ذلك قوله لهم في إحدى مرات الحج .

إني ارسلتكم لتعلموا الناس دينهم ، وما أرسلتكم لتضربوا ابشارهم . والله لا أوتى بوال ضرب من غير حد لأقصَنّ منه.

فقال عمرو بن العاص ، أتقتص منه ولو ضرب تأديباً ، فقال الفاروق مكرراً ، والله لأقصنه منه ،ولقدحدث أن عمرو بن العاص قال لبعض الناس يامنافق أمام ملأ من الناس في المسجد .

فشد الرجل رحاله وذهب إلى امير المؤمنين الفاروق في المدينة وقال :

يا امير المؤمنين ، ان الأمير نفقني ، وما نافقت مذ أسلمت .

فكتب عمر رضي الله تعالى عنه كتاباً،وأعطاه الشاكي،وفي هذا الكتاب:

« من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى العاصي ابن العاص .

إن فلانا (صاحب الشكوى) يقول إنك نفقته ، وما نافق منذ أسلم ، فإن كان ما يقول صدقاً ، فمكنه من أن يضربك عشرة أسواط .

فجاء الرجل أمام الملأ ، وقال من منكم سمع الأمير نفقني ، قالوا كلنا سمع فأعطى الرجل الكتاب عمراً .

فقال الملأ أوتضرب الأمير ، فصاح الرجل ليس لأمير المؤمنين هنا أمر ، فأعطاه عمر السوط ، وطلب إليه أن يضربه ، فقال العربي الأبي الآن عفوت.

٦٤ – لا يجب أن نطيل في أخبار عمر رضي الله عنه،وإنها لنور، ولكن يجب أن نقرر أن عهد عمر رضي الله عنه هو الذي كان فيه دخول الامصار

من غير العرب ، وهو الذي جمع بأمر الله ونهيه العربي والأعجمي في ظل العدل الإسلامي ، وهو الذي ابتدأ بتنظيم العلاقة بين دار الخلافة الجامعة والأمصار المتفرقة ، بحيث يتحد الحكم ، ويبقى لكل مصر طبيعته التي لا تخالف المقررات الإسلامية ، بل تسايرها ولا تجافيها .

ونشير هنا إلى أن الذي جمع هو العدالة الظاهرة مع الرعايا جميعاً ، لا يقرب في الحكم قريبا ولا يجافي بعيداً ، ولقد كان إذا نهى عن أمر أو أمر أمراً ، أحضر آل الخطاب ، وقال : لقد عزمت على المؤمنين أمرا ، والله لا أوتى بمخالف إلا ضاعفت له العقاب .

وإن العدالة الظاهرة المنبثقة في كل الأقاليم هي التي منعت العصبية المفرقة من أن تظهر .

ولنذكر له خطبة وبعض كتبه يكشفان عن منهاجه القويم في جمع المال وتوزيعه ، ومعاملته للرعية ، ومحاربته للعصبية .

الخطبـــة :

جاء في كتاب الخراج للإمام أبي يوسف عن طلحة بن سعدان ما نصه :

« خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمدالله وأثنى عليه، ثم صلى على النبي ﷺ ، وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال :

أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق حقه أن يطـــاع في معصية الله ، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل ، وإنما أنا ومالكم ، كولي اليتيم ، ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف ...

ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويعتدي عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ولكم علي أيهـا الناس خصال

أذكرها لكم فخذوني بها ، لكم عليّ ألا أجبي شيئاً من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ،ولكم عليّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك ، ولا أجمركم[1] في ثغوركم ، وقد اقترب منكم زمان ، كثير القراء ، قليل الفقهاء ، يعمل به أقوام للآخرة ، وآخرون يطلبون دنيا عريضة تأكل دين صاحبها ، كما تأكل النار الحطب ألا من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر .

يا أيها الناس، إن الله عظم حقه فوق حق خلقه ، فقال تعالى فيما عظم به من حقه ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ .

ألا واني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدوا إلى المسلمين حقوقهم ولا تعذبوهم فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم ، فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم،وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم ، فإذا رأيتم بهم كلالا ، فكفوا عن ذلك فإنه أبلغ في جهاد عدوكم .

أيها الناس ، إني أشهدكم على أمراء الامصار ، إني لم أبعثهم الا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ، ويحكموا بينهم بالعدل ، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه اليّ .

هذه خطبة جامعة مبينة لمنهاج عمر في المال بأبلغقول وأوجزه، ومنهاجه مع أمراء الأمصار ، ومنهاجه في بث روح العزة ، ومنع الذلة بأي صورة من صورها .

وهكذا كان يربي الأمراء ، ويربي الشعوب ، وبذلك اجتمعنا في عهده

---

(١) التجمير البقاء مدة طويلة في الجيش لا يعود الى أهله .

على وحدة إسلامية لا فرقة فيها امتداداً للوحدة الإسلامية التي كونها محمد ، واتباعا لأوامره .

بعض كتبه :

٦٥ – وان كتب الفاروق إلى عماله تكشف عن سياسته واقامته للعدل، ومحاربته للعصبية ، ولنتخذ منها ثلاثة كاشفة عما وراءها مما لم نذكر .

١ – كتاب له إلى أبي موسى الأشعري في أعماله في الولاية ، وهو غير كتابه في القضاء .

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فان للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة، ودنيا مؤثرة فأقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله ، والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجل وأخف الفساق .. وإذا كانت بين القبائل ثائرة [1] وتداعوا : يا آل فلان ، فانما تلك : **نجوى الشيطان** ، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وتكون دعواهم إلى الله ، وإلى الإمام ، وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعو **بآل ضبة** واني والله ما أعلم أن ضبة ما ساق الله بها خيراً قط ، ولا منع بها من سوء قط ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فانهكهم عقوبة حتى يفرقوا [2] إن لم يفقهوا ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح بابك ، وباشر أمرهم بنفسك ، فانما أنت امرؤ منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة لباسك ، ومطعمك ، ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فاياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب ، فلم يكن

(١) الثائرة : العداوة

(٢) يفرقوا بفتح الراء من غير تشديد معناها يخافوا من العرب .

لها همة إلا السمن ، وانما حتفها في السمن، واعلم أن للعامل مرداً إلى الله، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته وإن أشقى الناس من **شقيت به رعيته والسلام**.

٢ – وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإني لم آلك في كتابي اليك ونفسي إلاّ خيراً ، إياك والاحتجاب وأذن للضعيف وأدْنِه ، حتى تبسط لسانه، وتجرىء قلبه، وتعهد الغريب ، فانه إذا ضاق حبسه ، وضاق اذنه ترك حقه ، وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه ، واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء ، وإذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فاحكم .

٣ – عهده لأهل اللد :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل لد، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أمـــا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبهم، وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا أموالهم ولا يكرهون على دين غير دينهم ولا يضار أحد منهم ، وعلى أهل لد ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية ، كما يعطي أهل مدائن الشام ، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط .

ومن هذه الكتب يتبين ثلاثة أمور :

أولها : كيف كان تشدده في محاربة العصبية لأنها هي التي تفرق الجمع ، وتمزق الوحدة ، وكيف قرر العقوبات لمن ينادي بها من غير أن تأخذ الوالي هوادة فيهم ، حتى يخافوا ويفزعوا ، ولا يعودوا اليها .

ثانياً : تشدده في اقامة العدل، وفي سبيل ذلك حث الوالي على ألا يحتجب عن الرعية، حتى لا ييأس الضعيف من عدله، ولا يحبس الغريب الذي بشكوى فلا يأذن له ، فيجب أن يسارع إلى سماع شكواه .

ثالثها : عنايته بأهل ذمة رسول الله ﷺ ، وحماية تدينهم ، وحماية كنائسهم وهو بذلك سن القاعدة المقررة : أمرنا بتركهم وما يدينون .

عناية عمر بالقضاء :

٦٦ - كان يعنى بالولاة ومراقبة حكمهم ، وصلاتهم بالرعايا، ولا يضن بالنصيحة ، ومعها بعض الانذار ، كما لا يضن بالعزل ، إن وجدت مقتضياته، وكان يكتفي في العزل بالشبهات كما ذكرنا .

كذلك كان يعنى بالقضاء ، فكان لا يختار إلا ذا دين وعقل ، وقوة فراسة ، وإدراك للنفوس ، وكان لا يضن على القضاة بالارشاد إلى أمثل الطرق للقضاء .

وقد حفظ التاريخ كتباً له في القضاء تعد دستور القضاء .

ولنذكر لك خبرين من عنايته بالقضاء :

أولهما : عن الشعبي قال : أخذ عمر فرساً من رجل على سوم (أي على سوم الشراء) فحمل عليه ، فعطب الفرس ، فخاصمه الرجل ، فقال عمر : اجعل بيني وبينك رجلاً ، فقال الرجل اني أرضى بشريح ، فقال شريح : أخذته صحيحاً سليما فانت له ضامن،حتى ترده صحيحاً سليما. فأعجب الحكم عمر رضي الله عنه ، فعينه قاضياً .

وقال له مبينا ما يقضي به :

ما استبان لك من كتاب ، فلا تسأل عنه ، فإن لم يستبن في كتاب الله فمن السنة ، فإن لم تجده في السنة ، فاجتهد رأيك .

هذا ما أمر به شريحا ، وهو بهذا يشير إلى المصادر التي يقضي بها القاضي، الكتاب فالسنة ، فان لم يجد فيها كان الرأي المبني عليها ، وهناك كتاب كان في القضاء بين فيه المصادر ، والاجراء الذي يتبعه في مجلس القضاء .

وهذا نص ذلك الكتاب

قال بعد حمد الله والصلاة على رسوله .

أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة،وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي اليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له – آس بين الناس في مجلسك، وفي وجهك ، وفي قضائـــك ، حتى لا يطمع شريف في حيفـــك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراماً أو حرم حلالا ومن ادعى حقـاً غائباً أو بينه ، فاضرب له أمدا ينتهي اليه فإن بينهأعطيته حقه، وإن أعجزه ذلك، استحللت عليه القضية ، فإن ذلك هو أبلغ في العذر وأجلى للعماء ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه رأيك فهديت لرشدك أن يراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل والمسلمون عدول بعضهـم على بعض إلا مجربا عليه شهادة زور ، أو مجلوداًفي حد ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود، إلا بالبينات والايمان،ثم الفهمالفهمفيما أدلي اليك مما ورد عليك مما ليس فيه قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيها إلى أحبها الى الله ، وأشبهها بالحق واياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة ، فان القضاء في موطن الحق مما يوجب الله بـه الأجر ، ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين بما ليس في نفسه شانـه الله ، لأن الله لا يقبل منالعباد إلا ما كان خالصاً فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقـه وخزائن رحمته ، والسلام عليك ورحمةالله.

هذه توجيهات عمر بن الخطاب إلى القضاة ونراها إرشادية توجيهية ، وليس فيها تهديد بعقاب ذلك لأنه يختار القضاة من ذوي العلم والدين ، فحاجتهم إلى العناية والعمل بالعدل .

أما الولاة فقد كان يختارهم على القدرة والادارة ، وكان يخشى على الإدارة

من الضعيف ذي الدين والقوي الذي لا دين ، ويختار مـا بين ذلك قواما ، فكانت القدرة الادارية عنصراً من عناصر الاختيار ، وكان الدين هو العنصر الآخر ، ولأن الادارة هي المحتكة بالرعية بريئها وسقيمها ، وهي التي تتنازع فيها الأهواء وتصطرع فيها المآرب . ولذلك فصل القضاء عنها . ولذلك كان شديد الرقابة عليها ، كثير العزل للولاة قليل العزل للقضاة .

دولة واحدة وأقاليم متعددة :

كانت الدولة واحدة مع تعدد الأقاليم،ولا نستطيع أن نقول إن الحكومة كانت واحدة كما أشرنا، فلكل اقليم حكومته التي تنفذ أحكام القرآن والسنة وما يكون مصلحة متفقة مع عادات ذلـــك الاقليم ، من غير المتجانفة لاثم بالمخالفة لأحكام الاسلام ، وعين الأمير الاعظم ساهرة متتبعة ، بحيث لا تخفى عليه من أمر الرعية خافية ولا يخفى عليه من أمر الولاة أمر ، بل الجميع يشعرون بأن وراءهم بعـــد الله محاسباً لا يغفر الهنات بل يعزل عند الشبهة .

وبهذا التنسيق العمري كانت للأقاليم شخصيتها غير الخارجة على الاسلام ، والدولة هي المنظمة لعلاقات الجميع في معاملات الوالي للرعية ، وفي علاقة كل اقليم بغيره .

وكانت الوحـــدة بادية في شؤون الحرب ، فالإمام الأعظم هو الذي يعين قواد الحروب ، وهو الذي يمد الجيش بالعتـــاد ، والعدد ، فليس لأي اقليم جيش منفصل عن سلطان الإمام الأعظم ، وهو في هذا الوقت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ومن بعده ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما .

وكانت ولايته الكبرى بادية في العلاقات الخارجية ، فأمير المؤمنين هو الذي يتولى بشوراه العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، والمعاهدات التي تعقد بينه وبين المحالفين الذين يختارون العهد،كما رأيناه في عهده لأهل – لد – وكما رأينا

في معاهدته لأهل ايليـــا التي كان فيها النص على ألاّ يدخل عليهم أحداً من اليهود .

وما كان يعقده الولاة ، إنما كان بالنيابة عنه وبتفويض منه .

وكانت الوحدة بادية في نظم الخراج والجزية، فالنظام كان واحداً ، وأمير المؤمنين أو الامام الأعظم هو الذي يفرضه بحكم القرآن وعمل النبي ﷺ ، وما يراه مصلحة تتفق مع مقاصد الإسلام ، ولا تخرج عن غاياته وأهدافه .

وكذلك كان نظام الصدقات وجمعهـــا ، فإنه ينفذ ، كما ورد في السنة ، وتحت إشراف الإمـــام الأعظم وكذلك الموارد المالية التي تفيض بها الأقاليم بعضها على بعض من غير أي محاجزات اقليمية .

وفي عام الرمادة عندما اشتدت الحاجة الى القوت أرسل الى الأقاليم ذوات الغلات الزراعية ، يطلب المعونة منهـــا ، فأرسل إلى عمرو بن العاص والي مصر ، يقول له : « الغوث ، الغوث » فرد عمرو يقول : سأرسل إليك عيرا يكون أولها عندك وآخرها عندي » .

وقد فكر في حفر قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر ليسهل وصول المدد إلى البلاد العربية وكانت الوحدة تتمثل في أمرين معنويين :

أحدهما وحدة اللغة ، فقد كانت اللغة العربية لغة الدولة ، وكانت رباطاً بين الأقاليم يربط بعضها ببعض ، وكان على كل مسلم أن يتعلم قدرا منهـــا ، ويقول الإمام الشافعي انه من المفروض أن يتعـــلم كل مسلم قدرا من اللغة العربية يصحح دينه .

ثانيهما – الثقافة الإسلامية ، فقد صرح أمير المؤمنين عمر بأنـــه أرسل الولاة ليعلموا المسلمين أمر دينهم ، كما نقلنا من خطبه ، وكتبه .

وننتهي من هذا إلى أن الوحدة يمكن أن تتحقق مـــع تعدد حكومـــات

الأقاليم بشرط أن تكون هناك دولة جامعة ، أو جماعة موحدة إن تعذر وجود الدولة الجامعة وقتاً ، وان كان ذلك هو الدعامة المفضلة على غيرها من الدعائم .

وانه يكتفى في تحقق الوحدة ، بوحدة اللغة والثقافة ، والجهاد والعلاقات الدوليـة والوحدة الاقتصادية ، وأن تزال الحاجزات الجمركيـة بين الدول الإسلامية ، بحيث يكون الاكتفاء الذاتي في الأراضي الإسلامية ، وبحيث يكون التعاون على استغلال أراضي المسلمين وصناعاتهم بأقصى ما يمكن ، وبالبداهة لا يرفع اقليم على آخر السلاح قط .

٦٨ – وقد يعترض الذين لا يفقهون وقائع الأحكام ، ولا غايتها ومرادها بأن عمر رضي الله تعالى عنه وضع نظاماً سمي في الفقه الإسلامي ، بأعمال العاشر ، وفهم بعض الفقهاء خطأ بأن ذلـــك من قبيل الجمارك على التصدير والاستيراد .

وذلك خطأ في الفهم ، وإنما سرى ذلك الى الكاتب من حب الرغبة في التقريب بين تفكير علماء المسلمين وما يجري في العصر الحاضر من كلمات ، فانحرفت به هذه الرغبة عن المعنى الأصلي لنظام العاشر .

وفقه الموضوع في نظام العاشر الذي وضعه الإمام العظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه انه عندما فتحت الأقاليم ، كان بعض الناس يخرج من اقليم اسلامي ، أو من مدينة الى أخرى ، وقد وجبت عليه زكوات ، وجزية ، فكان يخشى الفاروق ألا يكون قد أداهـا ، ففرض نظـام العاشر احتياطاً للمحافظة على أموال الدولة ، فقرر رضي الله تبارك وتعالى عنه أن يأخذ العاشر من المسلم نصف عشر المال الذي يحمله من مدينته أو اقليمه إلى المدينة أو الاقليم الآخر ، وعلى الذمّيّ العشر .

ولقد صرحت كتب الفقه بأن ذلك يؤخذ ما لم يثبت المار أنـه قد سدد

الزكوات وما يجب عليه من مـال الجزية ، ويذكر في ذلك الكاساني صاحب بدائع الصنائع في الفقه الحنفي أن المار إذا قدم ما يدل على أنه أدى ما عليه من فرائض مالية لا يأخذ منه العاشر شيئاً .

فنظام العاشر ليس في معنى فَرْضِ جمارك ، ولا مـا يشبه ذلك ، ومن قال ذلك ، فقد أخطأ .

عصر عثمان وما بعده :

٦٩ – كان ما سنه عمر بن الخطاب رضي الله تبارك وتعالى عنه هو المتبع في عهد ذي النورين عثمان رضي الله عنه وعهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة ، والعهد الأموي، وصدر الدولة العباسية كان على شاكلة نظام عمر في علاقة الدولة الإسلامية بالأقاليم الاسلامية وكانت الوحدة القوية بادية في الأمور التي ذكرناها .

وأما الرفق والرحمة بالرعية فقد كانت صفات المتقين منهم كعثمان وعلي ، وعمر بن عبدالعزيز ، ولكن النظام كان واحداً في جميعها .

وكانت السنوات الست الأولى من عهد سيدنا ذي النورين عثمان رضي الله عنه هي امتداد لعهد الفاروق رضي الله تعالى عنه .

وكان ذلك الامتداد لصلاح الراعي والرعية ، فما خرج سيدنا عثمان رضي الله عنه عن سنّة الشيخين أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ ، وعمر الفاروق، وخصوصاً أنه عندما أعطى على نفسه عهداً بأن يعمل بكتاب الله تعـالى ، وسنّة رسوله عليه السلام ، وسنّة الشيخين أبي بكر وعمر . وما كان لمثل عثمان رضي الله تبارك وتعالى عنه أن ينكث في عهد أخذه على نفسه . والحدّ بست سنين كانت الأمـور فيها تجري على سنة الشيخين أبي بكر وعمر ، حد تقريبي فقد تزيد على ذلك وقد تكون في بعض الأقاليم أكثر من ذلـك بكثير .

وإن التغيير الذي حدث بعد ذلك لم يكن من عمل الإمام الأعظم إنما كان من عمل قوم أثاروا الفتن وحاولوا أن يفسدوا أمر المؤمنين بشق الوحدة الإسلامية .

ولعل الشعوبية الدفينة في النفوس قد عملت عملها، وإن لم تظهر بدعاية ؛ أو بمفاضلة بين الشعوب المحكومة بالإسلام وبين العرب ، على ما هو مدون في التاريخ الإسلامي من بعد ذلك في الحركات المسماة الشعوبية .

وانه بلا شك تحركت العصبية الجاهلية، كما سنبين، ونمت، وفرقت المجتمع، وقطعت الوحدة التي أقامها رسول الله ﷺ ، وقام على رعايتها الشيخان من بعده ووسع أمرها عمر الذي لم يفر فريه في الإسلام أحد، كما روي عن رسول الله ﷺ . فقد ابتدأت الفتنة المفرقة بأن ذكروا عن عثمان رضي الله عنه أموراً خالف فيها رسول الله في زعمهم وحسبوا أنه قرب بالقرابة ، وأعطى الولاية من بني أمية من لا يستحقها، ولم يكن لهم في الإسلام سبق يبرر تقديمهم، بل أخذوا عليه جمع القرآن ، وهو إحدى حسناته، وزكاه علي بن أبي طالب وقال لو لم يفعله عثمان لفعلته، وأخذوا عليه أنه حمى من المراعي لإبل الصدقة، ولننقل لك ما رواه الطبري :

جاء جماعة من الكوفيين والبصريين معترضين على عثمان، فجمعهم رضي الله تبارك وتعالى عنه في المسجد وقد أحاط بهم أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال عثمان بعد كلام لهم :

« ان هؤلاء قد ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها عليّ عند من لا يعلم، وقالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم ، ألا واني قدمت بلداً فيه أهلي أو كذلك ؟ قالوا اللهم نعم .

وقالوا حميت حمى (أي منعت مرعى من رعي الناس) وإني والله ماحميت حمى قِبَلي، والله ما حموا شيئاً لأحد، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعيه أحدا، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها، لكيلا يكون

بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ، ولا نحوا أحدا ، ومالي من بعير غير راحلتين، ومالي ثاغية ولا راغية ، وإني قد وليت، وأنا أكثر العرب بعيرا وشاء ، فمالي اليوم شاة ، ولا بعير غير بعيرين لحجي أكذلـك ؟ قالوا اللهم نعم .

قالوا كان القرآن كتبا ، فتركتها إلا واحدة ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع أكذلك ؟ قالوا نعم .

قالوا اني وليت الحكم (وهو الحكم بن العاص قريبه)، وقد سيّره رسول الله ﷺ أكذلك قالوا: اللهم نعم ، وقالوا إني استعملت الأحداث : ولم استعمل إلا مجتمعا محتملاً مرضياً، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل أصل بلدهم ، ولقد ولى من قبلي أحدث منهم وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة أكذلك ؟ قالوا اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لا يفسرون وقالوا إني أعطيت ابن أبي السرح مـا أفاء الله عليه ، وإنمـا نفلته خمس ما أفاء الله عليه فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فردوه عليهم ، وليس ذاك لهم ، أكذلك ؟ قالوا نعم ، وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم ، فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما اعطاؤهم ، فإني أعطيهم من مالي ، ولا أستحـل أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس ، ولقـد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مـالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأنا يومئذ حريص شحيح ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون فيّ ما قالوا ، وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً، فيجوز ذلك ممن قاله ، ولقد رددته عليهم ، وما قدم عليّ إلا الأخماس ، ولا يحل لي منهـم شيء ، فولى المسلمون وضعها في أهلهـا دوني ، وما آكل إلا من مالي :

٧٠ - هـذا دفاع سيدنا ذي النورين عثمان رضي الله عنه أمـام جمع من الصحابة شهدوا له بالصدق ولا شك أنه صادق من غير شهادة أحد ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن أوائل الناس إسلاما وهاجر الهجرتين مرة إلى الحبشة ، والأخرى المباركة إلى المدينة وجهز جيش المسلمين في ساعة العسرة، ووزع البر الذي استورده على أهل المدينة زمن النبي ﷺ ، لأنهـم كانوا في شدة ورفض السّوم في العِير .

ولكن بلا شك نلمح في رده ، وما قد روى من اعتراضهم أنه ولّى ابن أبي السرح ، وكان قد كتب للوحي ، ثم ارتد، وأخذ يضلل الناس في دينهم، فزعم أنه كان يغير فيما يملي عليه النبي ﷺ ، ولقد أباح عليه الصلاة والسلام دمه ، وأنه ان كان تاب،وعفا عنه الرؤوف الرحيم فهو متهم في دينه، فكيف يولى بعد عمرو بن العاص .

ولكن يظهر أن دعاة الفتنة لم يسكنوا،بل استمروا يلجون فيالشكوى، حتى طم السيل ، فاجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، فكلموا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة ، فدخـل على أمير المؤمنين ذي النورين عثمان ، رضي الله عنه ، وقال له :

الناس ورائي ، وقد كلموني فيك ، والله ما أدري ما أقول ، وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك إلى شيء لنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ، ونلت صهره ، وما ابن أبي قحافة بأولى بالحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك، وإنك أقرب إلى رسول الله رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله ما لم ينالا ، ولا سبقاك إلى شيء فالله الله في نفسك ، فانك والله لا تبصّر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بيّن ، وإن أعلام الدين لواضحة تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله إمام عادل ُهدِي وَهدى ، وأقام سنة معلومة ، وأمات

بدعة ، فوالله ، إن كـُلاً لبين وإن السنن لقائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله من ضَلَّ وُضلَّ به ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر ، وليس معه نصير ، ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور فيها ، كما تدور الرحى ، ثم يرتطم في غمرة جهنم ، إني أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه يقال يقتل في هذه الأمة إمام ، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويتركهم شيعا ، فلا يبصرون الحق لعلو الباطل ، يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً .

فقال عثمان ، أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك ، ولا جئت منكراً إن وصلت رحما ، وسددت خلة ، وآويت ضائعا ، ووليت شبيها بمن كان عمر يولي ، أنشدك الله يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال نعم ، قال فتعلم أن عمر ولاه ! قال نعم ، قال فلم تلومني أني وليت ابن عامر (أحد ولاته) وقرابته ؟

قال علي سأخبرك : إن عمر بن الخطاب ، كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقاربك ، قال عثمان : هم أقاربك أيضاً .

فقال علي : لعمري إن رحمهم مني قريبة ، ولكن الفضل في غيرهم .

قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها فقد وليته .

فقال علي : أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من (يرفأ غلام عمر) منه .

قال عثمان نعم .

قال علي : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك ، وأنت لا تعلمها ، فيقول

للناس : هـذا أمر عثمان ثم يبلغك ولا تغير على معـاوية ، ثم خرج عـلي من عنده . [1]

٧١ - لم ينم دعاة الفتنة ، بل إنهم ساوروا المدينة وكان المصريون منهم يلهجون باسم علي كرم الله وجهـه في الآخرة على أنه الأولى بالخلافة منه ، وأحاطوا ببيت عثمان :

فأرسل عثمان إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الآخرة يستدعيه ، وجاء في كتابه :

« لقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين » ،

فإن أك مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولمـا أمزق .

خرج إليه علي رضي الله عنه ليهدىء الأمور ، فيصرف المصريين الذين كانوا يلهجون باسمه ، كما ذكرنا .

وتقدم الى عثمان لإنقاذ الموقف ، فأشار عليه بأن يكلم النـاس بكلام يسمعونه ، يشهد الله على ما في قلبه من النزوع والانابة فتكلم بكلام في هذا، فرق الناس ، وارتفعت الأصوات ، وبكى كثيرون منهم ، وارتدت القلوب الشاردة ، وكادت القضب ترجع إلى أجفانهـا ، وتموت نوازع الشر في خلاياها .

ولكن مروان بن الحكم الأموي جاء إليه يقول له لائما له أو عاتبا ،

بأبي أنت وأمي، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع، فكنت أول من رضي بها ، واعان ، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين،وحلف السيل الزبى،وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل،والله لإقامة على خطيئة تستغفر منها أجمـل من توبة تخوف عليها ، وإنك إن شئت تقربت

(١) تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٩٧ الطبعة القديمة .

بالتوبة ، ولم تقر بالخطيئة وقد اجتمع اليك على الباب مثل الجبال من الناس.

فقال عثمان : فاخرج اليهم فكلمهم ، فإني لاستحيي أن أكلمهم .

فخرج مروان إلى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضا .

فقال : ما شأنكم كأنكم اجتمعتم لنهب ، شاهت الوجوه ، كل إنسان آخذ بأذن صاحبه، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا أما والله لئن رمتمونا ليمرنّ عليكم أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم ، والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا . (١)

هذه مساجلات كلامية جرت بين اثنين من أكبر أصحاب رسول الله ﷺ ، آثرنا أن ننقلها ، بدل أن نلخصها ، أو أن نعلق على الأحداث التي دفعت إلى تلك المساجلات وإن كان قد تدخل فيها بغير منطق الإسلام من لم يكن مكانة الصاحبين الجليلين اللذين نالا صهر رسول الله ﷺ والمبشرين بالجنة.

ولا نبلغ مبلغ من يوجه لوماً لمثل عثمان في تقواه ، وعلي في جهاده،ولكنا نقول في مروان انه كان يلهب الفتنة ، ويضع فيها الوقود الذي يلهبها ، ويذكيها في أسلوب جاهلي ، ويسمي الخلافة في عثمان ملكاً له ، والخلافة والملك يختلفان في سببها وفي السيطرة وفي ثمراتها .

الفتنة التي فرقت القلوب ولم تمزق الوحدة :

وقعت الفتنة التي فرقت القلوب وإن كانت الوحدة الإسلامية لم تتمزق ،

لقد كانت بعد موت عثمان فئتان إحداهما عادلة ، والأخرى باغية ونازعت الباغية صاحب الحق ، واقتتلت الطائفتان ، وقد قال تعالى :

---

(١) الطبري جـ ٥ ص ١١٢ .

﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ ، وإن خروج البغاة لا يعد نقضاً للوحدة ، لأن المعنى الأخوي لا يزال قائماً ، ولو كان النصر الدنيوي للبغاة ، وإن كانوا في البغي الذي أعقب مقتل الإمام عثمان رضي الله تبارك وتعالى عنه ، لم ينتصروا ،بل كان الجمع بعد ذلك في عهد أحد سبطي رسول الله ﷺ ، وهو الحسن رضي الله عنه ، وكرم الله تعالى وجه أبيه في الجنة ، وصلى الله تعالى على جده وسلم :

ولو كان الحكم الذي انتهى إليه الأمر لم يكن قد انتهى إلى من هو خير المؤمنين ، ومن كان حكمه عدلاً ومن كان هو من أهل السبق في الإسلام لكان خيرا ، ولكن الوحدة بهذه الفتنة وذلك البغي قد اهتزت ولم تزل ، بل استمرت قائمة ، والفتوح الإسلامية قد استمرت باسم كلمة الإسلام والسلام الحق ،

فقد كانت الجيوش الإسلامية بقيادة قتيبة بن مسلم قد وصلت إلى الصين شرقاً،ووصلت غرباً بقيادة موسى بن نصير إلى الأندلس غصن الإسلام الرطيب، وفتحته ، وزادت الغصن حياة بروح الإسلام ، واستمر المسلمون سائرين ، حتى تجاوزوا جنوب فرنسا .

ولا نستطيع أن نقول إن الحكم كان عدلاً في كل نواحيه ، ومن كل الولاة ، وحسبنا أن نرى الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي لكي نقرر أن العدل لم يكن شاملاً .

ولكن يجب أن نقول إن الوحدة الإسلامية كانت قائمة ، وإن كانت على دَخَنٍ ، بخروج الخوارج الفينة بعد الأخرى ، ولكن كانت تزول بالحروب الجزئية التي كانت بين مقر الحكم وبينهم .

ومهما تكن حروب الخوارج في أثناء ملوك بني أمية الذين تسموا بالخلفاء، وسمى حكمهم ابن تيمية خلافة ملكية ، وليست خلافة نبوية ، لأنه لم تكن ثمة بيعة اختيارية ، بل كانت ملكاً وراثياً يتلقاه خلف الحاكم أو ولي عهده عمن سبقه .

وإن الوحدة ، وإن كانت ، فقد ضمت في ثناياها أسباب الفرقة التي أخذت تنمو جيلاً بعد جيل حتى أتت من بعد بأشأم الثمرات ، ذلك بأن العدل لم يكن سائداً ، ولم تكن الروح الدينية سائدة ، وإن كانت الألسنة ترددها ، فالوحدة كانت تضم في حشاها ما يهدمها بعد حين .

وإنه مع ذلك بدت العصبية العربية تأخذ طريقها إلى الحياة ، وإنها إن لم تفرق الدولة الإسلامية وتجعلها أجزاء فقد أوجدت ثغرة في القلوب وثغرة القلوب تؤدي إلى الإنقسام ، وإن طال الزمان ، وبعد المدى .

تنبؤ النبي ﷺ بالفتن :

٧٣ – تنبأ النبي ﷺ بهذه الفتن وذكرها عليه السلام في أحاديث صحيحة وردت عن رسول الله ﷺ ، منها ما رواه البخاري عن زينب بنت جحش أنها قالت استيقظ النبي ﷺ محمراً وجهه يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب » .

ولقد جاء في صحيح البخاري « عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه فمن وجد فيها ملجأ أو معاذا فليعذ به .

روى البخاري ومسلم والترمذي بأسنادهم عن حذيفة بن اليمان قال :

كنا عند عمر رضي الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة فقلت أنا ، قال : إنك لحريّ وكيف سمعته يقول فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة ، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال عمر رضي الله عنه : ليس هذا أريد إنما أريد التي تموج كموج البحر فقلت مالك ولها يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، قال فيكسر الباب أو يفتح قلت بل يكسر ، قال ذلك احرى ألاّ يغلق أبدا .

هذه أحاديث من شمائل النبوة تثبت علم النبي ﷺ بوحي من الله تعالى بأمر هذه الفتن التي وقعت من بعده، واستمرت تجيء فتنة بعد فتنة ، وتتولد واحدة من أخرى .

وإن النفوس المؤمنة تقاوم الفتن ولكن قد تخط في غيرها خطوطاً سوداء، تؤثر فيها ، ولقد روى مسلم عن حذيفة أيضاً . « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عودا ، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء [1] ، وأي قلب أنكرها نكتت نكتة بيضاء حتى يصير قلب أبيض مثل الصفا ، فلا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد [2] كالكوز مجخيا [3] لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه ، وفي هذا الحديث كما قال حذيفة مخاطباً أمير المؤمنين عمر : « إن بينك وبينها بابا مغلقاً ، يوشك أن يكسر ، فقال عمر أكسراً لا أبا لك ،فلو أنه فتح كان لعله يعاد .

هذه نبوءات النبي ﷺ وهـذه من شمائل النبوة .

وهنا يسأل سائل ، لماذا كانت هذه الفتن ؟ ، ولماذا أخبر النبي ﷺ .

أما الإجابة عن السؤال الأول ، فإنه يتعلق بإرادة الله تعالى ، والله لا يسأل عما يفعل ، كما قال تبارك وتعالى لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

---

(١) النكتة : الأثر .

(٢) المرباد الذي يكون لونه بين البياض والسواد .

(٣) والمَجْخِي المائل عن الاستقامة ، أو هو المنكوس .

ولكن يجب علينا أن نعلم أن ذلك لحكمة أرادها ، وهو العليم الحكيم الذي لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، وهو السميع البصير .

وانا نحاول أن نتعرف هذه الحكمة ، كما نتعرفها في الادواء التي تصيب المؤمن اختباراً لإيمانه وكشفا ليقينه وكما تختبر الأمم بالبأساء والضراء ، كما قال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، حتى يقول الرسول ، والذين آمنوا معه، متى نصر الله الا إن نصر الله قريب﴾ فهي نوع من ابتلاء الله تعالى لتصقل النفوس، وتتعود المجاهدة، وتتعرف الخير، فتأمر به والشر فتنهى عنه، كما قال تعالى :

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ .

ولا شك أن الفتن تكشف المنافقين ، وتصقل قلوب المؤمنين ، فيزدادوا إيماناً، ويتحفزون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يفوضون الأمور لله ، إذا كان شح مطاع ، وهوى متبع ، والزمان يجعل الفتنة يأكل بعضها بعضاً وتخبو نارها ، وماذا بعد ذلك إلا الحق يقام ، والعدل يستقر .

وأما الإجابة عن السؤال الثاني ، وهو السبب في اخبار النبي ﷺ ، فإنما هو لبيان علاجها في أوقاتها وفيها إشارات إلى من يثيرونها ، وأنها أحياناً تكون من قوم ظاهري الإيمان والتشدد ولكن عقولهم منحرفة ، وقلوبهم ملتوية ، وهم في جملة حالهم غير مدركين ، ولا فاقهين .

ولقد كان الناس كثيراً ما يسألون عن قابل الأمور فيجيبهم النبي ﷺ ،

أخرج الشيخان: البخاري ومسلم — وأبو داود عن حذيفة بن اليمان: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله تعالى بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم قلت فهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن ، فقلت وما الدخن ؟ قال قوم يستنون بغير

سنتي ، ويهتدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت يا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم تكن جماعة ولا إمام ، قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك ».

وترى من هذا أن النبي ﷺ كان يجيب ، ويكشف عما يكون ، وما ينبغي للمؤمن في هذه الفتن .

ولقد روي عن علي كرم الله وجهه في الجنة أنه قال : « قال رسول الله ﷺ : كيف بكم : إذا فسق فتيانكم ، وطغى نساؤكم، قالوا يا رسول الله، وإن ذلك لكائن ! قال نعم وأشد ، كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ، قالوا يا رسول الله : وإن ذلك لكائن ، قال نعم وأشد ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ، قالوا يا رسول الله ، وإن ذلك لكائن، قال نعم وأشد، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا، والمنكر معروفاً قالوا يا رسول الله وإن ذلك لكائن ، قال نعم ، وهنا نرى أن رسول الله ﷺ لم يذكر الأشد في الحال الأخيرة ، لأنه لا يوجد أشد من ذلك في أحوال الأمم ، إذ تفسد الأخلاق وتفسد النفوس ، وتفسد المدارك حتى يرى الخير شراً ، والشر خيراً ، وبذلك تصل الحال إلى أبعد اغوار الجاهلية والله هو المنجي .

وقد أدركنا ذلك الزمان الذي تنبأ به رسول الله ﷺ ، صرنا نرى كل أمر معكوساً ، وكل حق منكوسا ، وقد فسدت الأمور، وشاهت العقول ، وطمس النور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الخلافة والوحدة :

٧٤ – رأينا أن الجماعة الإسلامية خرجت من الفتن موحدة القوى ، قد

اتجهت شرقاً وغرباً في الفتوح حتى وصلت شرقاً إلى الصين،وغربا إلى المحيط، بل إلى جنوب فرنسا ، وإذا خرجت خارجة ، فقد كانت كالبثور في الجسم لا تصيب منه الإحساس بل تمس السطح ، ولا تتجاوز الظاهر ، وتصل إلى الباطن .

ولعل الفضل في بقاء الوحدة هو ما سمي في التاريخ الإسلامي الجماعة ، وقد كانت الجماعة تلتف حول من تسميه خليفة أو تسميه أمير المؤمنين ، سواء أكان قد تولى بشروط الخلافة النبوية ، كما سماها ابن تيمية أم تولاها باسم الملك والسلطان ، ووجبت طاعته ، إذ أن جمهور الفقهاء قرروا أن كل من تغلب ، ورضيته الجماعة وجبت طاعته وقد سمى ابن تيمية من تولى من غير أن يستوفي الشروط النبوية في الخلافة سمى ذلك خلافة ملوك .

ومهما تكن الأسماء ، فإن اسم الخلافة كان له دخل كبير في بقاء الوحدة الإسلامية، ولو لم يكن العدل هو الذي يحكمها ، ويسيطر عليها،وقد وجب علينا أن نتكلم في الخلافة وأسباب الحكم .

لقد تكلم ابن خلدون فيلسوف الإسلام الاجتماعي في الفرق بين الخلافة ، والملك الفاسد ، والملك الصالح فقال : « إن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ،

والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين ، وسياسة الدنيا » .

هذه تفرقة ابن خلدون بين الملك الفاسد ، والملك الصالح ، والخلافة ولا تكون إلا حكماً صالحاً ، ما دام القائم عليها محققاً لمقاصدها وأغراضها .

وان الخلافة كانت حقيقة تتحقق فيها الخواص التي ذكرها ابن خلدون في عهد الراشدين جميعا ، فقد كانوا منفذين لأحكام الشريعة، يحملون الناس عليها ، ويقيمون الحدود ، وكان ذلك شأن الخلافة حتى انقلبت ملكاً عضوضاً في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وتحقق الأثر الصحيح عن النبي ﷺ ، إذ قال فيما يروى عنه ﷺ : « الخلافة بعدي ثلاثون ، ثم تصير ملكاً عضوضاً » ولما للخلافة النبوية من هذه المنزلة في حراسة الدين ، وإقامة حدود الله والرقابة على تنفيذ الشرع الشريف كانت من قبيل فروض الكفاية يجب على الكافة إقامة خليفة ، بحيث يأثمون ، إن لم يعملوا على إقامته أو لم يقم .

قال ابن حزم في كتابه الفصل

« اتفق جميع أهل السنة ، وجميع المرجئة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة ، وإن الأمة عليها واجب الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله تعالى ويسوسهم بأحكام الشريعة التي آتى بها رسول الله ﷺ حاشا النجدات من الخوارج ، فانهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الإمامة ، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وهذه فرقة ما نرى بقي منهم من أحد وهم المنسوبون الى نجدة بن عويمر الحنفي باليمامة ، وقول هذه الفرقة ساقط يكفي في الرد عليه وإبطاله إجماع كل من ذكرنا على بطلانه ، والقرآن والسنة قد وردا بايجاب الإمام ، من ذلك قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ ، مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأئمة ، وإيجاب الإمامة .

وقد تكلم بعد ذلك في وجوب إقامة إمام واحد لعامة المسلمين ، وقال إنه مجمع عليه، وهو معقول المعنى ، لكي تتحقق الوحدة الإسلامية في الحكم، كما هي واجبة ، ولكن أجاز بعض الزيدية إقامة إمامين إذا اقتضت المصلحة ولكنه لم يذكر مخالفة هؤلاء لأنه لا يرى لهذا الرأي اتباعاً .

ويقول في ذلك « ثم اتفق من ذكرنا ممن يرى فرض الإمامة على أنه لا يجوز كون إمامين في وقت واحد في العالم ، ولا يجوز إلا إمام واحد ، إلا محمد بن كرام السجستاني وأبا الصباح السمرقندي وأصحابهما ، فإنهما أجازا كون إمامين وأكثر في وقت واحد .

واحتج هؤلاء بقول الأنصار ، أو من قال منهم يوم السقيفة للمهاجرين منا أمير ، ومنكم أمير ، واحتجوا أيضاً بأمر عليّ والحسن مع معاوية رضي الله عنهم .

وكل هذا لا حجة لهم فيه ، لأن قول الأنصار رضي الله عنهم ذلك كما ذكرنا لم يكن صواباً ، بل كان خطأ أداهم إليه الاجتهاد ، وخالفهم فيه المهاجرون ، ولا بد إذا اختلف القائلان على قولين متناقضين من أن يكون أحدهما حقاً ، والآخر خطأ ، وإذا كان ذلك كذلك ، فواجب رد ما تنازعوا فيه إلى ما افترض الله عز وجل الرد إليه عند التنازع ، إذ يقول سبحانه: ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فنظرنا في ذلك فوجدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد قال : « إذا بويع لإمامين فاقتلوا الآخر منهما » ، وقال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا ، واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .

وإذا كان إمامان فقد حصل التفرق المحرم ، ووجد التنازع ، ووقعت المعصية – فصح أن قول الأنصار رضي الله عنهم - خطأ . رجعوا عنه إلى الحق ، وعصمهم الله تعالى من التمادي عليه .

وأما أمر علي والحسن ، ومعاوية ، فقد صح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أنذر بخارجة تخرج من طائفتين ، وأنه تقتلها أولى الطائفتين بالحق ، فكان قاتل تلك الطائفة عليّ ، السابق إلى الإمامة فهو صاحب الحق بلا شك ، وكذلك أنذر عليه السلام بأن عماراً تقتله الفئة الباغية ، فصح بعد أنه

صاحبها وأن من نازعه فيها فهو مخطىء ، فمعاوية . مخطىء !! لأنه مجتهد، ولا حجة في خطأ المجتهد ، فبطل قول هذه الطائفة أيضا » .

ونحن مع جمهور الفقهاء والمحدثين في أنه لا يصح إقامة إمامين في عصر واحد ، لأن الخلافة جامعة للوحدة الإسلامية ، ولا يمكن أن تكون جامعة، وثمة إمامان ، وان اختيار سيدنا عمر لنفسه ولمن بعده لقب أمير المؤمنين يومىء إلى الإمامة تكون عامة ، لا تختص بجزء من الأرض الإسلامية ، بل تعمها لتكون الوحدة الجامعة ، وليتحقق قول النبي ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

شروط الخلافة النبوية :

٧٥ — ذكر الفقهاء شروطاً فيمن يتولى هذا المنصب بعضها متفق عليه ، وبعضها قد جرى الخلاف في لزومه ، ولقد ذكر ابن خلدون شروط هذا المنصب ، وأشار إلى المختلف فيه منها ، فقال :

« وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ، واختلف في شرط خامس ، وهو النسب القرشي » .

وقد اشترط ابن حزم أن يكون رجلاً لقول النبي ﷺ : « لا يفلح قوم أسند أمرهم إلى امرأة » .

وأحسب أن ذلك الشرط متفق عليه بين علماء المسلمين ، ولم يذكروه لبداهته ، ولكن نص عليه ابن حزم من بينهم ، فكان تصريحاً، بما هو مفهوم عند الجميع ، وما استقر عليه رأي الجميع .

أما الخلاف الذي ذكره ابن خلدون في النسب القرشي ، فهو خلاف مترامي الأطراف مختلف النواحي قال فيه ابن حزم : « اختلف القائلون على وجوب الإمامة في قريش ، فذهب أهل السنة وجميع الشيعة وبعض المعتزلة ،

وجمهور المرجئة إلى أن الإمامة لا تجوز إلا في قريش عامة من ولد فهر بن مالك ، ولا تجوز فيمن كان أبوه من غير بني فهر بن مالك ، وإن كانت أمه من قريش، ولا في حليف ولا في مولى، وذهب الخوارج كلهم وجمهور المعتزلة، وبعض المرجئة إلى أنها جائزة في كل من قام بالكتاب والسنة ، والواجب أن يقدم الحبشي لأنه أسهل لخلعه إذا حاد عن الطريق » .

وكأنه لا يصح عند هؤلاء أن يكون للإمام عصبية تدافع عنه ، ولذلك استحسنوا أن يكون ممن لا عصبية له وان ابن حـــزم ليسترسل في بيان الاختلاف في اشتراط القرشية ، فبعد أن يذكر الخلاف في أصل الشرط ، يذكر الخلاف بين من اشترطوه ، فقال رضي الله تبارك وتعالى عنه :

واختلف القائلون إن الإمامة لا تجوز إلا في قريش ، فقالت طائفة هي جائزة في كل ولد فهر وهذا قول أهل السنة وجمهور المرجئة، وبعض المعتزلة، وقالت طائفة لا تجوز إلا في ولد علي بن أبي طالب ... وبلغنا عن بعض بني الحارث بن عبد المطلب أنه كان يقول لا تجوز الخلافة إلا في بني عبد المطلب خاصة،ويراها في جميع ولد عبدالمطلب ، وهم أبو طالب وأبو لهب ،والحارث والعباس وبلغنا عن رجل كان بالأردن أنه يقول : لا تجوز الخلافة إلا في بني أمية بن عبد شمس ، ورأينا كتاباً مؤلفاً لرجل من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحتج بأن الخلافة لا تجوز إلا لولد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

ومع هذا التفريع والتفصيل الذي ذكره ابن حزم رضي الله عنه لا يذكر الخلاف عند من يرون أنها في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنـــه ، فقد اختلفوا ، ففريق قال : كل ولد لعلي يجوز أن يكون خليفة ، ولو كان منغير فاطمة فمحمد بن الحنفية نودي له بالخلافة ، وهو ليس من أولاد فاطمة .

ومنهم من قال : إن الخلافـة من ولد علي من فاطمة من أولاد الحسن أو الحسين ، وأولئك هم الزيدية ، ومنهم من قرر أن تكون الخلافة من أولاد علي من الحسين ، وأولئك هم الإمامية الاثنا عشرية والإمامية الإسماعيلية

٧٦–ومهما يكن أمر الخلاف بين الذين لم يجوزوا الإمامة إلا في القرشيين، فمن الثابت أن جمهور علماء المسلمين يرون أن الخليفة من قريش،ومن عداهم أقل عدداً وأضعف ناصراً .

٧٧ – وحجة هؤلاء الكثرة من العلماء حديث «الأئمـــة من قريش » وفي رواية « الأمراء في قريش » .

هذا الحديث يحتمل أن يكون تنبؤاً بأمر يكون في المستقبل ،مثل«الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضا » فيكون مؤداه أن الإمامة الجديرة بأن تكون امامة المسلمين الذين ترعى مصالحهم ، وتقيم حدود الله تعالى هي في قريش ، ولقد صدقت نبوءة النبي ﷺ ، فإن الراشدين كانوا الأئمة حقاً ، وأربعتهم من قريش .

ويحتمل ان يكون بياناً لحكم شرعي بإثبات أن الخلافـــة أو الإمامة لا تكون إلا في قريش .

ونقول إن المفسرين للحديث اتجهوا هذين الاتجاهين ، واستمع إلى ما يقوله ابن حجر العسقلاني في شرح حديث ابن عمر عن النبي ﷺ « لا يزال هــذا الأمر في قريش ما بقي اثنان » التقدير لا يزال هذا الأمر فلا يسمى بالخليفة إلا من يكون من قريش الا أن يسمى أحد من غيرهم غلبة وقهرا ، وأما أن يكون المراد به الأمر ، وإن لفظه لفظ الخبر ثم قال ابن حجر .

قال النووي حكم حديث ابن عمر الى يوم القيامة ما بقي من الناس اثنان، وقد ظهر ما قاله ﷺ فمن زمنه إلى الآن لم تزل الخلافة في قريش من غير مزاحمة لهم على ذلك ومن تغلب على الملك بطريق الشوكة لا ينكر أن الخلافة في قريش ، يدعي أن ذلك بالنيابة عنهم » .

ثم قال ابن حجر : « هذا الحديث خبر عن المشروعيـــة ، أي لا تنعقد الإمامة الكبرى إلا لقرشي مهما وجد منهم أحد ، وكأنه جنح الى أنه خبر بمعنى الأمر .

هذا ، وإننا ننتهي من ذلك التفسير إلى أن الحديث يحتمل أن يكون

تنبؤاً ، وأنه لصادق ، ويحتمل أن يكون تكليفاً فيه أمر بألا يكون إمام في الإمامة الكبرى إلا من قريش .

وانه مع هذا الاحتمال لا يمكن الاستدلال به على أنه لا تنعقد الخلافة أو الإمامة الكبرى إلا لقرشي .

وانه على فرض أن الحديث فيه تكليف أو أمر ، فإنه من المؤكد أن الروايات تضافرت على أن أولوية قريش مقيدة بعدلهم ، واقامتهم الحق ، بل ان طاعة كل متول مقيدة بذلك ، ومن ذلك قوله ﷺ مخاطباً قريشاً : وأنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق الا أن تعدلوا عنه فتلحوا كما تلحى هذه الجريدة ، ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فإن لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم ، فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » .

وإن الأخبار يفهم منها أن القرشي أولى من غيره إذا تساوى مع غيره كفاية وعدلاً ، فإن لم يكن في كفاية غيره وعدالته ، فغيره أولى ، ويؤيد ذلك ما روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال إن أدركني أجلي ، وأبو عبيدة حي استخلفته ، فإن أدركني وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل ، ومعاذ بن جبل غير قرشي ، وما كان لعمر الفاروق أن يخالف أمراً أمر به الرسول ﷺ ، إذا كان خبر الأئمة في قريش قصد به الأمر والتكليف .

ولقد قال ﷺ : « إسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » ، هذا وإن أبا بكر رضي الله عنه عندما ناقش الأنصار في أمر الخلافة لم يستدل بخبر « الأمراء في قريش أو الأئمة في قريش » ، إنما استدل بالمصلحة ، فقال رضي الله عنه لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش .

ولو كان هذا الخبر المروي قاطعاً في الدلالة على أولوية قريش بالخلافة ، ما ترك الخبر وأخذ بالرأي القائم على المصلحة العامة لجماهير المسلمين .

ونتتهي من هذا إلى أن شرط القرشية ليس ثابتاً في دلالته على وجه القطع لأن الاحتمال دخل الدليل ، وإذا دخل الاحتمال يبطل الاستدلال ، كما ذكرنا من قبل .

أما الكفاية والعدالة فشرطان لازمان لا ريب في ذلك ، لأن الإمامة ، وإن كانت أمراً دينياً هي في ذاتها أمر مصلحي أقيم لمصلحة الكافة ، ولا يمكن أن تستقيم الأمور مع الظلم ، ولا أن يحقق مصلحة العباد من ليس ذا كفاية ، فلا يمكن أن تتحقق الخلافة النبوية بدونها .

وهنا شرط قد أغفل في أكثر عصور التاريخ الإسلامية وهو الاختيار بالشورى والمبايعة فإن ذلك الشرط أغفل في غير عهد الراشدين .

وإن المبايعة عقد يقوم بين الإمام ، وبين المسلمين على أن يلتزم القيام بتنفيذ الشرع، ويلتزموا بطاعته،ويتمثل تنفيذ هذا العقد في قول الإمام عمر : أعينوني ما أطعت الله فيكم ، وقد كان اختيار أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، وتمت المبايعة عندما سارع إليها عمر حسما لمادة الخلاف وقطعاً للنزاع أو إنهاء،وأبو بكر عندما عهد إلى عمر رضي الله تبارك وتعالى عنهما أخذ البيعة له ، حتى لا يتفرق أمر المؤمنين .

وإن عمر بن الخطاب يشترط قبل المبايعة أن يكون ثمة شورى للمسلمين تنتهي باختيار من يسيرون في مبايعته ، وذلك ليتحقق قوله تعالى : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ فلا يباغت الناس بالمبايعة بل تكون مجاوبة ومشاورة ينتهون فيها الى مبايعة من يرونه أهلاً ، فالمبايعة ثمرة الاختيار ، ولا تكون الثمرة قبل أصلها ، ولقد قال عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه « من بايع رجلا بغير شورى المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه » .

الوحدة مع الولاة والعصاة :

٧٨ – إن الوحدة الإسلامية غاية تستهدف ، والخلافة العادلة التي تعد

الإمامة من ذرائع وجودها ، وإقامتها على قسطاس مستقيم ، ولذلك أجمع العلماء على اشتراط العدالة ، وليس العصاة من أهل العدالة ، فهم بلا ريب ليسوا أهلاً للإمامة العظمى ، وإذا تولوا وهم عدول ثم فسقوا عن أمر ربهم أتسقط توليتهم من تلقاء نفسها ، أم يبقون ولاة في تلك الولاية الكبرى ، ولو سادهم الفسق والفجور .

ولقد اختلف في ولاية الفاسق بأن تأمر ابتداء وهو فاسق وهو غير خليفة ولكنه تغلب وحكم أو تحكم أو ولي على أنه عدل ، فانكشف أمره ، فظهر فاسقاً ، أو كان عدلا ، وحاد عن منهاج العدل وسبحان مقلب القلوب ، ومهما يكن وصف فسقه أو عصيانه .

اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة آراء :

أولها : أن يرد جميع أمره بأن ترفض ولايته ، فلا يطاع في طاعة ، ولا معصية لأن توليه ظلم وطاعته ولو في عدل إقرار للظلم .

وثانيها : وهو أقواها وأبعدها نظراً وعليه الأكثرون أن يطاع في الحق ولا يطاع في معصية لقول النبي ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »

وثالثها : إن الفاسق إذا كان هو الإمام الأعظم يطاع في الطاعة ، ولا يطاع في المعصية وإن كان الفاسق ليس هو الإمام الأعظم ، بل أحد ولاته في الأقاليم ، أو من دون ذلك ، فإنه ترد طاعته في عدل أو ظلم لأن الإمام الأعظم لا يمكن تغييره إلا بفتنة ، والفتنة تمزق الوحدة الإسلامية ، ومن دونه يمكن تغييره بدون فتنة .

فلا بد من حماية العدالة والوحدة معاً .

ويختار الأكثرون من العلماء الرأي الوسط ، ومنهم ابن تيمية [1] .

وان ذلك يدفع إلى النظر في أمرين :

أولهما : حال ما إذا لم تتوافر في الامام الأعظم الطاعة في أمر اهتز سلطانه وكانت الفتنة ، ولا ضير في ذلك بالنسبة لما فيه من تنفيذ لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فإن الطاعة — في الحقيقة — للكتاب والسنة ،وأما حيث يأمر بمعصية فإن المخالفة تكون للكتاب والسنة وطاعتهما أولى من طاعة الرجال مهما يكن شأنهم .

والثاني : الفتنة التي تترتب على رد كل ما يأمر به الإمام الأعظم ، أضرارها أعظم من طاعته في غير معصية ، وترتيب الأمور لتغييره ، ولهذا رجح رأي الجمهور وابن تيمية .

إذا لم يكن من هو أهل للإمامة :

٧٩ - قد تبين أن الإمامة لها شروط شرعية بعضها متفق عليه، وبعضها مختلف فيه ، فأما المتفق عليه فهو العدالة ، والكفاية ، وأن يكون ذلك باختيار الأمة ، وقد تبين أن شرط القرشية مختلف فيه .

فإذا لم تتوافر الشروط كاملة ، أيكون أمر المسلمين فوضى من غير حاكم، ولا شك أن شرط الخلافة لم يعد محققا ؟

يشير ابن تيمية في كتابه « منهاج السنة » ، ويقرر أن الذين يستوفون الشروط المؤهلة للخلافة هم الذين يسمون خلفاء ، وأما الذين يتولون فإنهم يسمون ملوكاً ، ولا يسمون خلفاء ، ولكن يكون الرضا بحكمهم للضرورة لأن الحكم بين المسلمين خير من أن يتركوا في فوضى، وان الطاعة واجبة لهؤلاء

---

(١) « منهاج السنة » ج٢ ، ص ٧٦ ، ٨٧ .

فيما يقومون به من أداء أوامر الدين واجتناب نواهيه لأن هذه الولاية خير من الفوضى على أي صورة كانت ويعد من سمي أميراً أو خليفة من حكام الأمويين والعباسيين ملوكا ، ويقول في ذلك :

« والذي في السنن ، الخـلافة بالنبوة ثلاثون (سنة) ثم يصير ملكاً » .

ويقول في حكم يزيد بن معاوية الذي استباح حرمات أهل المدينة ، وقتل الإمام الحسين أفجر قتلة : يعتقد أهل السنة أنه ملك المسلمين ، وخليفتهم في زمانهم ، وصاحب السيف ، كما كان أمثاله من خلفاء بني أمية ، وبني العباس فيزيد في ولايته هو واحد من هؤلاء الملوك المستخلفين في الأرض » .

وهو يرى كجمهور أهل السنة أنه تجب طاعة هؤلاء الملوك المستخلفين ، وإن لم يكونوا خلفاء نبوة لعدم استيفائهم شروط الخلافة النبوية الصحيحة ، فيجب طاعتهم والخضوع لحكمهم لأنهم ولاة الأمر

وان الرأي الغالب في الفقه الإسلامي أن كل متغلب تجب طاعته ، حتى يغير من غير فتنة ولكن لا يطاع في معصية ، وان أولئك مهما يكن أمرهم يعدون ملوك المسلمين ما داموا الحاكمين ، ولا ينازعهم عدل أمين قد استوفى شروط الخـــلافة النبوية ، ولأنهم يقيمون الجمع والأعياد ، ويقيمون الحدود وينظمون الولايات ويغزون أعداء المسلمين ، ويدافعون عن أرض الإسلام .

وكونهم – أو بعضهم – فجاراً لا يمنع تقديم الطاعة لهم ، مـا دامت الطاعة لا معصية فيها ، أو ليست الطاعة في ذات المعصية والفجور .

ويقول ابن تيمية في هذا « والصواب الجامع في هذا الباب أن من حكم أو قسم بعدل نفذ حكمه وقسمته ومن أمر بمعروف أو نهى عن منكر أعين على ذلك إذا لم يكن في ذلك مفسدة راجحة ،وانه لا بد من اقامة الجمعة والجماعة ، فإن أمكن تولية إمام بر لم يجز تولية فاجر ، ولا مبتدع يظهر بدعته ، فإن هؤلاء يجب الإنكار عليهم بحسب الإمكان ، ولا تجوز توليتهم ، فإن لم يمكن

إلا تولية أحد رجلين : أحدهما فيه دين وضعف عن الجهاد ، والآخر فيه منفعة في الجهاد مع ذنوب له ، كانت تولية هذا الذي ولايته أنفع للمسلمين — خيراً من تولية من ولايته أضر على المسلمين، وإذا لم تمكن صلاة الجمعة والجماعة وغيرهما إلا خلف الفاجر ، والمبتدع صليت خلفه» .

وقبل أن نترك كلام ابن تيمية في هذا المقام نذكر حوله أموراً ثلاثة

الأمر الأول: أنه أشار إلى أنه يجب اتباع الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ما لم يكن في الاتباع مفسدة راجحة؟ ونجيب عن ذلك بأن المفسدة تكون حيث يترتب على الاتباع فتنة وحيث يترتب على اتباع الداعي تخذيل عن الجهاد باضعاف الثقة في القائد ، أو الحاكم الذي يجابه الأعداء ، والحق أن الاستنكار في هذه الحال لا يكون من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل يكون من قبيل الدعوة إلى فتنة .

الأمر الثاني: أنه ينظر في الولاية والتردد فيمن يختار لها إلى نفع المسلمين فمن يكون أكثر نفعاً يطاع في غير معصية ولو كانت له ذنوب ، ومن يكون ضعيفاً فإنه لا يولى لأن ضعفه على المؤمنين .

ولقد سئل الإمام أحمد عن اميرين في الجهاد أحدهما قوي يرتكب وزراً والآخر ضعيف تقي ، مع أيهما يعمل المؤمن فقال رضي الله عنه: « مع القوي الموزور لأن فسقه على نفسه . وقوته للمسلمين ، ولا يعمل مع الضعيف التقي ، لأن تقواه لنفسه وضعفه على المؤمنين .

الأمر الثالث : أن ابن تيمية وغيره من جمهور الفقهاء يرون أن قيام الوحدة الإسلامية من غير تمزيق هي في ذاتها مقصد قائم بذاته ، وأن إقامة الدولة المُوَحَّدة للأمة الإسلامية وحمايتها من أعدائها ، وسد الثغور وتنفيذ النظم التي لا تجانف لإثم ، وتثبيت دعائمها —

غرض مقصود من إقامة الدولة الإسلامية ، فإن أمكن أن يقوم بذلك العدل التقي القوي كان ذلك هو الدين في لبه وصميمه ، وإن لم يمكن إقامة التقي الذي يحمي الذمار ويحسن التدبير ، ووجد الأمير الحسن الرأي والتدبير ، وإن لم يكن تقياً يجب طاعته في غير معصية ، لأن الطاعة في هذا الحال أداء لواجب ديني.

وإن ابن تيمية في هذا يتبع رأي الإمام أحمد الذي ذكرناه آنفاً .

ويقول ابن تيمية في تأصيل فكرة الطاعة لمن يتولى أمر المؤمنين ، ولو لم يكن مستوفياً شروط الإمامة ومنها القرشية في نظره ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ ، وفي الصحيحين عن أبي ذر قال : « إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن ولي عليكم عبد حبشي مجدع الأنف » .

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ قال . « اسمعوا وأطيعوا ، وإن ولي عليكم عبد حبشي مجدع الأنف» وروى البخاري ان رسول الله ﷺ قال: « اسمعوا واطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » . وفي صحيح مسلم عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ بمنى أو بعرفات في حجة الوداع يقول : «إن استعمل عليكم أسود مجدع الأنف يعمل بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا» [1] .

وبهذا يتبين أن فقهاء المسلمين الذين يحكي تفكيرهم ابن تيمية كانوا حريصين على الوحدة الإسلامية من أن تتمزق بسبب عدم تولي من لا يستوفي شروط الولاية كاملة .

الفتنة والوحدة :

٨٠ — لم ينظر جمهور الفقهاء الى الثورات التي تقوم ، ولو كان الحكام ظالمين ،نظرة راضية إلا ما أثر عن أبي حنيفة من رضاه على ثورة زيد بن علي

---

(١) منهاج السنة جـ ٢ ص ٨٧ .

رضي الله عنه ، وإبراهيم بن عبدالله بن حسن أخي محمد النفس الزكية فقد أثر عنه رضي الله عنه أنه لم يستنكر الثورة من هذين الإمــــامين ، والمشهور في تاريخه أنه أيدهما ، ولعل ذلك لمحبته لآل البيت ، وللمظالم التي نزلت بهم ، وقام بها الأمويون منقتل يزيد وجيشه للحسين بن علي واستباحتهمدينة رسول الله ﷺ ، ثم قام بها من بعدهم العباسيون وقد كانت دعوتهم ابتداء تقوم على الانتصاف من بني أمية ، إذ ظلموا آل البيت ، إلا أن جمهور الفقهــــاء كانوا يقفون موقف الحياد في الفتن ، ما لم ينهوا عن أمر مقرر في الشريعة ، ولمــا خرج محمد النفس الزكية على أبي جعفر المنصور ، سئل الإمام مالك أنناصر هؤلاء أم جند أبي جعفر ، فقال رضي الله عنه : « إن خرجوا على مثل عمر ابن عبد العزيز فقاتلهم ، وإن لم يكن مثل عمر بن عبد العزيز ، فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » .

وفي الواقع ان الفتن تقطع أوصال الدولة، وتؤرث الاحن ،ولا تقيم حقاً، ولا تخفض باطلا ، وانه يقع في الفوضى التي تنشئها الفتنة من المفاسد ، ما لا يقع من حاكم مفسد في استبداد سنين .

إن الحكم المنتظم على أي صورة من صوره خير من الفوضى ، ولا عــدل مع الفوضى كما قررنا ، ولا خير قط في فوضى ، وقد يكون خير في حــكم الفاسقين .

وان الاستقراء في التاريخ يثبت لنــــا أنه لم تكن فتنة أقامت عدلا ، أو خفضت ظلما ، بل انها تفتح الباب لدعاة البغي والعدوان والفساد .

وان السعي في التغيير واجب ، ولكن يكون بالإرشاد والموعظة الحسنة وكلمة الحق تقال للحكام الظالمين مهما يترتب عليها لشخص القائل من تعذيب أو سجن .

وان كلمة الحق في هذه الحال جهاد، ولقد قال النبي ﷺ :« أفضل الجهاد

كلمة حق لسلطان جائر » ، وروي أنه قال ﷺ : « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » .

وان كلمات الحق إن تضافر عليها أهل الايمان كان الحاكم مضطراً لأن يغير من حاله إن كان ظالما ، فإن أصوات الاستنكار تجعل الظالم يتردد في ظلمه ، أو يستخفي في فسقه ، فإن الحكام يريدون الحمد دائماً ، فإن يجدوا من يجود عليهم بالمحمدة ويضن بالملامة استمرؤوا ما يصنعون ، وإن وجدوا من لا يضن بالملامة ضعفوا عن الاسترسال في غيهم ، وخافوا على حكمهم .

ويقول ابن تيمية حاكياً رأي أئمة السنة في الفتن والثورات : المشهور عن مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف ، وإن كان فيهم ظلم ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ ، لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة ، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ، ولعلنا لا نكاد نعرف طائفة خرجت على ذي السلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته ، والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم ، وكل باغ كيفما كان ، ولا أمر بقتال الباغين ابتداء ، بل قال تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ فلم يأمر بقتال الباغية ابتداء، وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن عرف برىء ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتابع أثم ، قالوا : أفلا نقاتلهم ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا ، مطلقا » فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتالهم مع أنهم يأتون أموراً منكرة .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه :« انكم سترون بعدي

أثرة وأموراً تنكرونها ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم » .

وقد قال ﷺ : « من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً منكراً لمعصية الله فليكره ما يأتي من معصية ، ولا ينزعن يداً عن طاعة » [1] .

٨١ — وهنا نجد علماء المسلمين ، وخصوصاً علماء الجماعة مقتبسين من أوامر النبي ﷺ ووصاياه كانوا يتجهون الى تحقيق الغاية الاولى وهي الوحدة الاسلامية ، فكانوا يقررون وجوب طاعة الحكام ولو تولوا بغير المنهاج الشرعي وبغير الشورى التي أمر بها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم﴾ ، بل كانوا يأمرون بطاعة الولاة ، ولو كانوا عصاة ، على ألا يطيعوا ما يأمرون به من المعاصي ، فكانوا يرون الطاعة فيما لا معصية فيه ويردون ما فيه معصية .

وكانوا إلا الأقلين منهم يكرهون الثورة على الحكام ، لانها تؤدي إلى الفتنة ، والفتنة تؤدي إلى التفرق ، والفرقة في أي صورة من صورها لا تجوز فكل ما يؤدي اليها لا يجوز .

وان ذلك الذي قالوه هو صريح ما دعا إليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روينا بعض أقوال الرسول الكريم الذي ما كان ينطق عن الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ .

وإن الفقهاء إذ يقررون الطاعة المطلقة في غير معصية يرون وجوب تغيير الحاكم الظالم ولكن من غير فتنة ، بل يرون ان ذلك يتم بالارشاد والكلمة المجاهدة ، فعلى العلماء جهاد بألسنتهم كجهاد المحاربين بسيوفهم ، وقد قلنا في غير هذا المقام : « إن ألسنة العلماء وهم يغضبون للحق ، تعمل ما لا تعمل السيوف العضاب » .

---

(١) « منهاج السنة » ج ٢ ، ص ٨٧ .

فهي جهادهم ، وهي أمر الله تعالى ، اذ قال تعالى فيما أخذه سبحانه وتعالى على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . فكانوا يبينون ويدعون إلى الحق ويقولون كلمته ، لا يخافون في الله لومة لائم .

ونقصد بالعلماء الذين يقولون الحق لذات الحق ، لا يبغون اتجاراً في دين الله ولا علواً في الأرض ولا فساداً .

الفرقة بعد الوحدة

٨٢ – هذا هو الباب الثالث من بحثنا، وقد تكلمنا في تكوين محمد ﷺ للوحدة ثم تكلمنا على استمرارها في عهد الراشدين وأشرنا إلى بعض الفتن التي أصابت النفس العربية ، ولم تصب الوحدة الاسلامية التي كونها محمد ﷺ على أسس من التآلف والتقوى .

ثم كيف استمرت الوحدة في عهد ملوك بني أمية وملوك بني العباس على تعرضها للوهن ، وكيف لم يؤثر فيها عصاة الملوك ما دامت قلوب أهل الايمان مطمئنة راضية بحكم الله ، نافرة عن حكم الطاغوت .

والآن نتكلم عما أصاب الأمة من وهن فى النفوس استمكن ، حتى تفرق المسلمون بعد الاجتماع ، وقد يقول قائل : إن الموضوع هو الوحدة الاسلامية فكيف نجعل الفرقة عنصراً من عناصر القول فيه ، والوحدة والفرقة نقيضان لا يجتمعان ، ونجيب عن ذلك بأن المسلمين متفرقون قد توزعتهم الارض ، وحمل بعضهم السيف على بعض ، ونريد أن تعود الوحدة جذعا كما بدأت .

ولا يمكن أن نذكر مقومات الاعادة من غير أن نعرف أسباب التفرقة حتى نتلافاها في وحدتنا التي نرجو أن يوفق الله تعالى المسلمين لاعادتها فإن المسلمين لا يصلح آخرهم إلا بما صلح به أولهم ، وحدة في غير انقسام وائتلاف في غير انفصام ، وجمع لا تفرق فيه بل يكونون كما قال النبي ﷺ : « مثل

المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ويتحقق قوله ﷺ : « المسلم أخـو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله».

ولذلك وجب أن نذكر أسباب الانقسام ، ولن نحصي هذه الاسباب في ذلك البحث الموجز ، كما لا نستطيـع أن نعرف متى ابتدأت تلك الاسباب .

إن الظواهر الاجتماعية نراها واضحة جلية ، ولكن إن أردنا أن نعرف متى وجدت تعصى علينا الأمر ، ولا يكون البحث فيه هيناً لينـــاً ، كمن يرى شجرة عالية متدلية الاغصان فإنه يراها عالية شامخة تهتز وتتمايل،ولكن لا يعرف امتداد جذورها ، وإن أحصى فروعها .

ونحن إذا نظرنا إلى أسباب الفرقة الإسلامية التيهي ناتئة ظاهرة مشؤومة فاننا نرجع إلى بروز أول الفتن فإنها وإن كانت لم تؤثر في الوحدة ، كأمر ظاهر فإنها بلا شك ، كانت أساساً .

وفي الجملة إن تعرف الاسباب لأمر ظاهر من أصعب ما يكون ، فمبادىء الأمور حلها صعب ، حتى نرى آثارها بارزة للعيان ، اذ أن هذه الأسباب تتفاعل حتى تكون مزيجاً يظهر أثره ، ثم لا يكون اختفاء بعد ظهور الأثر.

الاسباب المعنوية :

٨٣ – إن الوحدة ائتلاف فكل ما ينافي الائتلاف ، ويوجد النفور إنمـا هو سير في طريق الفرقة ، والاسباب المعنوية كثيرة متضافرة ، تكاثفتحتى اعتكرت بها النفس الإسلامية ، فاستعدت للافتراق بعد الاجتماع ، والاعمال التي قام بها الحكام في الفرقة فانما حرثت أرضها لهم الامور المعنوية .

وقد ظن الكثيرون أن السبب الأكبر هو قيام العصبية العربية من سباتها وانبعاثها من مرقدها ، ولا شك أن ذلك جزء من الاسباب ، ولكنها جاءت

في هذه المرة ليست تنازعاً بين مضرية وربعية ، وان ظهر شيء من ذلك في الفرق الإسلامية .

انما كانت العصبية العربية ، ومعها الشعوبية غـــير العربية ، فانبعث من وراء ذلك ، ومن وراء الفرق الإسلامية ، الملوك وشهواتهم ، واتخاذ كل ملك حيزاً من الارض يذود دونه حتى أكاوا جميعاً ، وتفرق المسلمون وجاء التتار فما أبقوا ملـــكاً على ملكه ، وأبادوا كل الملوك ولم يبقوا منهم دياراً ولا نافخ نار .

١ – العرب والموالي :

٨٤ – نقصد بالموالي غير العرب الذين دخلوا في الإسلام وسموا موالي لما ذكرنا من أن الذين يسلمون من غير العرب كانوا بعقد موالاة ، وهو يشبه عقد الاخاء مع عربي ، بحيث يكون في ضمن أسرة هذا العربي وتعقل عنه تلك الاسرة العربية ، وعند الحنفية ترثه إذا مات عن غير وارث من الاقارب ، على خـــلاف بينهم وبين بعض من الفقهاء على ما ذكرنا عند الكلام على عقد الموالاة .

وليس المراد من الموالي العتقاء أو نحو ذلك ، انما فهم ذلك من لا يعرف التاريخ الإسلامي على وجهه ، ولا يعرف أحكام الفقه المأخوذة من الهـــدي النبوي في هذا .

وقد قلنا في موضعه إن الموالاة بين المسلم غير العربي ، والعربي ، كالاخاء بين المهاجري ، والانصاري .

ولقد كان شيخ الفقهاء أبو حنيفة النعمان من موالي بني تيم ، ولذلك كان يقال عنه أبو حنيفة التيمي ، ولقد روي أن بعض التيميين الذين ينتمي اليهم أبو حنيفة . قال للامام الأعظم : أنت مولاي ، فقال له الامام المعتز بالله

وعلمه : « أنا والله أشرف لك منك لي» أي أن ذلك التيمي يتشرف بعقد الموالاة هذا أكثر مما يتشرف به أبو حنيفة رضي الله عنه .

وإن الإسلام سوى بين الناس في الشرف ، ولا تفاضل فيه بين عربي واعجمي إلا بالتقوى ، كما صرح القرآن الكريم وكما قرر النبي الامين ، وقد تلونا فيما مضى الآيات الواردة في ذلك ، وروينا الاحاديث الموضحة التي كانت توجه أهل الإسلام لأن يندمجوا في الإسلام ، ولا يكون فارق إلا بالتقوى .

وكان الناس كذلك في عهد الراشدين ، وإن كانت بقايا العصبية تبدو أحياناً في تفاخر لا ينفع وقد يضر . يروى في هذا أن سلمان الفارسي كان يجلس مع قوم يذكرون شرف نسبهم العربي ، فقال له بعض الحاضرين : ابن من أنت ؟ فقال المؤمن التقي سلمان : « أنا ابن الإسلام » فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب ، فبكى وقال : وأنا ابن الإسلام .

وبذلك كان الاندماج ، وكانت الوحدة ، أو السير في طريقها حتى يبلغ الإسلام غايته .

٨٥ – ولكن ما إن جاءت الدولة الاموية ، وقد كانت عربية ، وكانت شديدة التعصب للعرب ، ولم تعط الموالي حقهم الكامل في الإسلام ، وأرادت الإسلام عربيا ، ولم تفهم أنه دين الكافة ، لأن الله بعث محمداً بشيراً ونذيراً للكافة ، لا لقوم دون قوم ، ولا جيل دون جيل ، بل هو دين الخليقة إلى يوم الدين .

ولشدة التعصب للعرب من الدولة الأموية روي انه في الجيش ما كان يقسم لغير العربي إذا اشترك في الجهاد ، مع أن حكمه على غير العربي ، كالعربي على سواء ، بل كان يرضخ له إذا جاهد مع المجاهدين أي يعطى عطاء غير مقدور من غير أن يقتسم من العرب .

وتلك في حكم الإسلام قسمة ضيزى ، ما كانت عدلاً لأن الجهاد على الجميع

والغنائم للجميع لكل فيها سهم معلوم وحـــظ مقسوم ، وتلك جاهلية في الإسلام وما كانت لتجوز في ظل خليفة أو من هو قائم مقام الخليفة .

وإن غير العرب لبعدهم عن السلطان في العهد الأموي انصرفوا إلى الفقه والعلوم بشكل عام، ولما ابتدأت الترجمة في آخر العصر الاموي،واخذالفكر الفارسي يغزو الفكرالعربي كان الموالي‌هم الذين يحملون عبءذلك‌ويسيرون‌به.

ومع ذلك كان الأمويون ينفسون عليهم ذلك ويتبرمون به .

جاء في كتاب مناقب أبي‌حنيفة للمكي،من حديث جرى بين‌عطاء التابعي وهشام بن عبد الملك الذي كان يسمي نفسه امير المؤمنين ، ولا يقول امير العرب وحدهم وهذا الحديث هو :

قال عطاء : « دخلت على هشام بن عبد الملك بالرصافة فقال يا عطاء ، هل لك علم بعلماء الأمصار . قلت‌بلى يا أمير امؤمنين فقـــال فمن فقيه أهل المدينة ؟ قلت نافع مولى عبدالله بن عمر قال: فمن فقيه مكة ، قلت: عطاء بن أبي رباح ، قال : أمولى هو أم عربي ؟ قلت : بل مولى ، قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قلت : طاووس بن كيسان . قال : مولى هو أم عربي ؟ قلت : بل هو مولى . قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قلت : يحيى بن كثير . قال : مولى أم عربي ؟ قلت لا بل هو مولى ، قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قلت : مكحول . قال : مولى أم عربي ؟ قلت : لا بل هو مولى ، قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : مولى أم عربي ؟ قلت لا بل مولى . قال : فمن فقيه خراسان؟ قلت : الضحاك بن مزاحم. قال: مولى أم عربي ؟ قلت لابل مولى.قال:فمن فقيه‌أهل البصرة؟قلت:الحسن وابن سيرين قال : موليان أم عربيان ؟ قلت : لا بل موليان . قال : فمن فقيه أهـل الكوفة ؟ قلت : ابراهيم النخعي ، قـال : مولى أم عربي ؟ قلت : عربي . قال هشام : كادت تخرج نفسي ، ولا تقول واحد عربي » .

وكان التعصب ضدّ غير العرب من المسلمين يبـــدو نفسياً لا من الحكام

والأمراء فقط كما رأيت من هشام بن عبد الملك بل كان من الشعوب والولاة الذين دون الأمير ، فقد كانوا ينفسون كهشام على اخوانهم غير العرب مكانتهم العلمية ، وسيطرتهم على العلوم الإسلامية ، إذ أنهم قد فقدوا السلطان السياسي ، فاستعاضوا عنه بالسلطان العلمي ، وهو أبعد أثراً ، وأقوى تأثيراً وقد امتدت العصبية العربية الى أول العصر العباسي ، فاستمرت حتى كان عصر المأمون .

روى صاحب العقد الفريد : « قال لي ابن أبي ليلى . قال لي عيسى بن موسى شديد العصبية ، من كان فقيه العراق ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن . قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : فما هما قلت : موليان ، قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالٍ ، قال : فمن فقهاء المدينة؟ فقلت : زيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبي نجيح . قال : فمن هؤلاء ؟ قلت : موالٍ ، فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأي . وابن أبي الزناد قال : فما كانا ؟ قلت من الموالي فاربد وجهه ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه ، وابن منبه . قال : ومن هؤلاء ؟ قلت : من الموالي ، فانتفخت أوداجه وانتصب قائماً . قال : فمن كا ن فقيه خراسان؟ قلت : عطاء بن عبدالله الخراساني .قال : فمن كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى ، فازداد وجهه تربداً ، واسود اسوداداً حتى خشيته .ثم قال : فمن فقيه الشام ؟ قلت : مكحول قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى فتنفس الصعداء . ثم قال : فمن فقيه الكوفة ؟ فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة ، وحماد بن أبي سليمان ، ولكني رأيت فيه الشر فقلت: ابراهيم النخعي والشعبي ، قال فما هما ؟ فقلت عربيان .فقال : الله اكبر وسكن جأشه [1] .

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه – جـ٢ ص ٢٦٢ طبع الازهرية .

٨٦ – ولا شك أن تلك الصورة التي رويت عن حاكم المسلمين الأكبر ، وعن أمراء للمسلمين ، تصور ألماً نفسياً لكثيرين من العرب ، لأنهم تخلفوا في العلم ، وخصوصاً علم الإسلام ، وبالأخص علم الفقه الذي هو ذاته تتبع لآثار النبي ﷺ ، وإنه إذ كان التخلف في جانب العرب كان التقدم العلمي في جانب غير العرب

ولعل الأمر العظيم الذي كان يخشى على الإسلام منه ليس هو أن يكون العلم في غير العرب لأنه لا يزال علم الإسلام في المسلمين وإن كانوا غير عرب ، وإنما الذي كان يخشى منه على الاسلام ، هو أن العقول غير العربية معها دراسات أخرى وتقاليد موروثة ، وأكثر أولئك من غير العرب متأثرون بها ، وتسري في اقوالهم وكتبهم، شاعرين بها أو غير شاعرين، وبذلك يثيرون في الاسلام أموراً ليست من جوهره بل تنافيه ، وليست من دعائمه ، بل ربما تهدمه ، ولذلك كانوا ، أو على الأقل المخلصون المدركون منهم ، يخافون على الحقائق الإسلامية . أن تشوهها عجمة أولئك الأعاجم .

ولا شك أننا إن فرضنا حسن النية في أولئك العلماء من غير العرب – ولا بد أن نفرض ذلك – فإن عقولهم قد تكون مأخوذة بماضيهم ، وتسري اليها بحكم التقاليد والعادات الموروثة وبحكم الثقافة الثابتة ، وإن الافكار الراكزة لا تخلع خلعا .

وإنه بلا ريب كان بجوار أولئك الذين تأثروا بحضاراتهم نوعان قد يكونان متباينين :

أولهما – أولئك الذين أخلصوا دينهم لله ، وقدموا في الإسلام علماً غزيراً وفكراً قوياً كأبي حنيفة النعمان ، ومثل كثيرين من المحدثين ، وعلماء السلف كالحسن البصري ، وابن سيرين ، ونافع مولى عبدالله بن عمر . وغيرهم كثير .

والفريق الثاني – أولئك الذين حنقوا على الإسلام ، لأنه أزال ملكهم ، وقوض

دولتهم ، وجعلهم تابعين ، بعد أن كانوا متبوعين ولم ينظروا إلى الإسلام إلا من هذه النظرة غير الهادية بل الغاوية .

ولقد ذكر ابن حزم أن أسباب الفرقة حقد أهل فارس على الإسلام ،فقد قال : رضي الله تبارك وتعالى عنه في خروج طوائف عن الإسلام « والأصل فيخروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع العرب وجلالة الخطر في أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء وكانوا يعدون جميع الناس عبيداً لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً تعاظمت الأمور وتضاعفت لها المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات كثيرة ففي كل ذلك كان يظهر الله الحق فأظهر قوم منهم الاسلام، واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة آل البيت ، واستشناع ظلم علي رضي الله عنه ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الإسلام ... »

من أجل ذلك كان يتخوف كثيرون من أن يكون قادة الفكر في الفقه والعقيدة ، والخلافة من غير العرب وإن كان الصادقون في إيمانهم منهم على سواء فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى ..»

وفي الحق ان غير العرب خدموا الإسلام في جملة أحوالهم والذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وأخفوا الكفر باطناً ظهر أمرهم كالمقنع الخراساني ، وغيره ممن حاربوا المسلمين في صدر الدولة العباسية .

ومهما يكن أمر هؤلاء منغير العرب،فانه بلا شك كان لهم دخل عظيم في الفرق الاسلامية حاشا الخوارج ، وان الفرق الإسلامية ما عدا من ذكرنا كان حماتها ودعاتها من غير العرب ، ولا يعد من الفرق الإسلامية الجماعة الذين اعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يخوضوا مع الخائضين .

الفرق الاسلامية

من اسباب الفرقة

٨٧ – إن الفرق الإسلامية وانقسامها كانت منذرائع الفرقة وفك الوحدة الإسلامية ، وهي وغيرها من الاسباب المعنوية تصيب الجسم الجماعي ، كما تصيب الأمراض جسم الحي تكمن فيه ، وما دام الجسم قوياً ، فان حيويته تخفيها ، فإذا كان الضعف ، ووهن العظم وعرق اللحم فانه حينئذ تظهر الأمراض، ويتضاعف الوهن ، ويمتد التخاذل ، وتتقطع الأوصال،وكذلك قد كان على ما سنبين إن شاء الله تعالى :

روي أن النبي ﷺ قال : « افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترقأمتي على ثلاثوسبعين فرقة » وفي بعض الروايات عدم ذكر النصارى ، وفي بعضها زيادة كلها في النار إلا واحدة .

وقال المقبلي في كتابه « العلم الشامخ » حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضاً ، بحيث لا تبقى ريبة في حاصل معناه .

وإن ذلك الحديث الذي تزكى رواياته بعضها ببعض لا نرى أن كلمةسبعين للاحصاء ، وإن كان التتبع والاستقراء قد يصل بها إلى ذلك العدد ، ولكن نقول إن العدد للكثرة ، وقد تكون فوق السبعين ، فان عدد السبعين يذكر في اللغة للتكثير . قال تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ .

وإن نشأة الفرق الإسلامية ابتدأت غير عربية ، واننا اذ نرجع إلىالوراء قليلاً نجدها كذلك ، والوقائع تؤيد ما نقول .

إن الدعوة لعلي كرم الله تعالى وجهه في عهد ذي النورين عثمان رضي الله

تبارك وتعالى عنه ابتدأت في الامصار باشاعة السوء عن ولاة سيدنا عثمان رضي الله عنه ، ومن أظهر من تولوا كبر هذا عبد الله بن سبأ اليهودي فقد أخذ هو ومن معه يشيعون قالة السوء عن عثمان وشيعته ويذكرون بالخير علياً وآله .

ومن هذا المنبت غير العربي نبتت نابتة الشيعة .

وإن من الشيعة من يرجع بتاريخ ابتداء التشيع إلى وفاة النبي ﷺ ، إذ أن فريقاً من الصحابة كانوا يرون علياً أولى بالخلافة من أبي بكر رضي الله عنهما ، وذكروا أن من هؤلاء الزبير بن العوام ، وعمار بن ياسر ويعد ابن أبي الحديد في شرحه لمنهج البلاغة عدداً كبيراً .

ويزعمون بذلك أن منبت التشيع عربي قرشي ، وليس فارسياً كما يذكر الكثيرون من المؤرخين ، وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح فانه من المؤكد الواقع أن التشيع لم يظهر كفرقة قائمة بذاتها إلا في آخر عهد علي كرم الله وجهه في الجنة وكان الغلو معه وعلى كل حال هو لم يظهر على أشده إلا بعد مقتله كرم الله وجهه في الجنة ، واشتد وتزايد بعد مقتل الحسين رضي الله عنه وصلى الله تعالى على جده وسلم ، وبكته الأمة كلها .

وإنا بعون الله تعالى نتعرض في بحثنا هذا إلى الفرق السياسية ، فانها هي التي كانت تثير الفتن ابتداء ، ثم صارت من بعد ذلك جرحاً في جنب الدولة ، حتى تمزقت مزقاً وتفرقت دولاً ، أو جزيئات من دول وأظهر الفرق السياسية التي ظهرت .

الشيعة والخوارج :

٨٨ — نبتت نابتة الفرقتين في وقت واحد وهو خلافة علي كرم الله وجهه ، وفي حربه مع البغاة عقب واقعة صفين التي أثار بها معاوية الفتنة في جيش علي كرم الله وجهه في الجنة وجزى الله الذين وضعوا أول ثلمة في الإسلام ، وإن هاتين الفرقتين وغيرهما من الفرق التي تجعل جزءاً من عملها سياسياً

تجعل الدين أساساً فيها تدور حول محوره ، فتبعد عن لب الدين أو تقترب ، ولكنها في حالي القرب والبعد تجعل الدين هو الأساس الذي تبني عليه قولها في السياسة .

ولذلك كان يقترن بآرائها في السياسة الدينية آراء في الاعتقاد ، فكثرة الشيعة تنحو نحو المعتزلة في آرائهم في الاعتقاد ومنهم من يدرسون الفروع دراسة علمية مبناها مذهبهم الذي يعتنقونه ،ولذلك وجدت آراء للشيعة نسبوا أصولها الى الإمامين زيد بن علي زين العابدين ، وأبي عبدالله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين وقد أثر عن الخوارج الاباضية آراء في الفروع تابعوا فيها إمامهم عبدالله بن إباض .

الشيعة والدولة التى قامت بأسمها :

٨٩ – الشيعة كما ذكرنا،وكما يقرر علماء تاريخ الفرق أقدم الفرق الإسلامية وقد أشرنا الى أنهم ظهروا بمذهبهم السياسي في آخر عصر عثمان رضي الله عنه، ونما وترعرع فيعهد علي كرم الله وجهه في الجنة،إذ كان كلما اختلط رضي الله عنه بالناس وخاطبهم ازدادوا إعجاباً به .

ولما جاء العصر الأموي وقعت المظالم على العلويين واشتد نزول أذى الأمويين بهم فثارت دفائن المحبة لهم ، ورأى الناس في علي وأولاده شهداء هذا الظلم فاتسع نطاق التشيع وكثر انصاره .

وقوام هذا المذهب المبادىء الآتية :

أولها – أن الإمامة لا تفوض الى نظر الأمة، لأنها ليست من المصالح التي تفوض للناس، ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين،وقاعدة الإسلام، ولا يمكن اغفالها بل يجب تعيين الإمام لهم من النبي ﷺ ويكون معصوماً من الكبائر [1]

(١) مقدمة ابن خلدون .

ثانيها – أن علي بن أبي طالب كان هو الخليفة المختار من النبي ﷺ ، ويدعي الشيعة أنهم ليسوا وحدهم الذين قالوا ذلك بل ادعوا أنه كان يقول ذلك عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي وجابر بن عبدالله ، وأبي بن كعب ، وحذيفة بن اليمان ، وبريدة ، وأبوأيوب الأنصاري ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وخزيمة بن ثابت ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، والعباس بن عبد المطلب وبنوه ، وبنو هاشم كافة ، وكان الزبير بن العوام من القائلين ذلك ، ثم رجع ومن بني أمية سعيد بن العاص .

المبدأ الثالث : تفضيل علي على كل الصحابة :

والشيعة ليسوا على رأي واحد بعد اتفاقهم على المباديء السابقة ، بل منهم الغالون في تقدير علي وبنيه ، وروي عنهم أنهم يكفرون الشيخين أبابكر وعمر . ومنهم المعتدلون المقتصدون ، وقد حكى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نحلة المعتدلين الذين يعد نفسه منهم ، قال : « كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز في هذه المسألة ، لأنهم سلكوا طريقاً مقتصدة .

قالوا : هو (أي علي) أفضل الخلق في الآخرة ، وأعلاهم منزلة في الدنيا وأكثرهم خصائص ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فانه عدو الله سبحانه وتعالى ، خالد في النار مع الكفار والمنافقين إلا أن يكون ممن قد ثبتت توبته ، ومات على توليه وحبه ، فأما الافاضل من المهاجرين والانصار الذين أوتوا الامانة قبله ، فلو أنكر امامتهم ، وسخط فعلهم ، فضلاً عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو إلى نفسه لقلنا إنهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله ﷺ ، لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ وآله قال : « حربك حربي وسلمك سلمي » ، وأنه قال : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » وقال له : « لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » ، ولكنا رأيناه رضي إمامتهم وبايعهم ، وصلى خلفهم ، وانكحهم وأكل فيئهم ، فلم

يكن لنا أن نتعدى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ، الا ترى انه لما برىء من معاوية برئنا منه ولما لعنه لعناه ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص ، وعبدالله ابنه ، وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم ، والحاصل اننا لم نجعل بينه وبين النبي ﷺ وآله إلا رتبة النبوة وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه ، ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم به عليه السلام [1] .. »

وإن هذا الذي ذكره ابن أبي الحديد هو مذهب الإمام زيد رضي الله عنه الذي ذكر عنه، بيد أن الإمام زيداً رضي الله تبارك وتعالى عنه صرح بأمرين لم يصرح بهما ابن أبي الحديد أولهما أنه تجوز امامة المفضول ، ولذلك جوز إمامة أبي بكر وعمر وإن كان علي أفضل منهما فى نظر الشيعة جميعاً ، وهذا فهم ضمنا من كلام ابن أبي الحديد ، وإن لم يصرح به لانه ذكر أن علياً كرم الله وجهه في الجنة بايعهما بامامتهما .

وثانيهما — أن الزيدية يشترطون أن يطالب من يكون إماماً بالدعوة لنفسه، فليست الإمامة بوصاية من النبي ﷺ ، ولكنها بالاختيار من أولاد علي من فاطمة وذريتهم .

هذا وإن الشيعة كان لهم أثر في وحدة الأمة وكان منهم أمراء في بعض البلاد الإسلامية فكان منهم ببلاد المغرب ، وكان منهم بمصر ، وكان منهم باليمن، وقد امتد تاريخهم في اليمن إلى الإمام أحمد بن يحيى الذي ينسب إلى الإمام الهادي ، وكان يأخذ بمذهب الشيعة الزيدية ، وهو من أئمتهم .

وكان منهم من كان له أثر في أيام التتار مما قد نعرض له في عصر الفرقة وآثارها ومن أجل هذا وجب ذكرهم ببعض من التفصيل الموجز المناسب .

---

(١) شرح منهج البلاغة لابن أبي الحديد .

ولسنا نتعرض لفرق الخوارج ، لأنـــه قضي على دعواتهم ، ولم يكن لهم من بعد ذلك إلا فرقة في جنوب الجزائر تنسب الى عبدالله بن إباض ، لأن لها مذهباً فقهياً فهي باقية ببقائه .

فرق الشيعة :

٩٠ — تعددت فرق الشيعة على نحل مختلفة ، منهم الغلاة ، ومنهم أمة مقتصدة ، كما ذكرنا ومنهم من خرجوا بتشيعهم عن الإسلام ، لانهـم ألهوا علياً رضي الله عنه واعتقدوا بحلول الألوهية فيه وفي الأوصياء من بعده ومنهم من قال إن النبوة كانت لعلي ثم أخطأ جبريل ، ونزل على محمد ، لأنه يشبهه كما يشبه الغراب الغراب ؟ .

ولكن الشيعة في العصر الحاضر ينكرون أن أولئك منهم ونحن نضرب صفحاً عن ذكرهم ما داموا ينكرون أنهم منهم ، ولنقتصر على ذكر من لا يجدون محيصاً عن الاعتراف بهم .

وإن الذين يعتبرونهم ليسوا أمة واحدة ، بل منهم غلاة ، وإن لم يخرجوا عن نطاق الإسلام ، ومنهم مقتصدون يقربون من الجماعة الإسلامية .

وانا نذكر الذين لم يخلعوا الربقة ويعدون من أهل القبلة .

الكيسانية :

٩١ — وهم أتباع المختار بن عبيد الثقفي ، وقد كان خارجياً ثم صار من شيعة علي كرم الله وجهه وقد قدم الكوفة مع مسلم بن عقيل الذي أرسله الحسين بن علي رضي الله عنهما ليعلم حالها ، ويُعلِم ابن عمه بأمرها.

ولكن قبض عليه عبيدالله بن زياد والي الكوفة من قبل يزيد بن معاوية وضربه وحبسه ، إلى أن استشهد الحسين وارتكب كبر هذا عبيدالله بن زياد ولذا قال الحسن البصري باكياً . « ماذا دهى هذه الأمة قتل ابن دَعيّها ابن نبيها » والدّعي هو زياد ابن أبيه ، وابن النبي الحسين .

وقد شفع للمختار زوج أخته عبدالله بن عمر ، فأطلق سراحه ومنذ ذلك الوقت ، أخذ يعمل على الأخذ بثأر الحسين إما انتقاماً لنفسه لحبسه ، وإما غضبة لله ولقد أثر عنه أنه قال وهو عائد الى الحجاز .

« سأطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين ، وابن بنت سيد المرسلين الحسين بن علي ، فوربك لأقتلن بقتله عدة من قتل على دم يحيى بن زكريا » .

ثم لحق بابن الزبير وبايعه على أن يوليه أعماله إذا ظهر ، وقاتل معه أهل الشام الى أن مات يزيد ثم عاد إلى الكوفة .

عاد الى الكوفة على أنه مبعوث من محمد بن الحنفية الذي سماه المهدي ، وقال للناس : المهدي الوصي بعثني إليكم أميناً ووزيراً ،وأمرني بقتل الملحدين ، والطلب بدم أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء ، وقد ذكر محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب لأنه ولي دم الحسين إذ هو كان أقرب آل البيت الراشدين إليه من الرجال ولان ابن الحنفية كان ذا منزلة بين الناس وكان كما قال الشهرستاني في الملل والنحل : « كثير العلم غزير المعرفة رواد الفكر ، مصيب النظر في العواقب ،وقد أخبره أبوه أمير المؤمنين علي أبي طالب رضي الله عنه أخبار الملاحم » .

ولكن المختار لم يلتزم بعد ذلك الجادة والاعتدال في دين الله تعالى وأخذ يتكهن ويسجع سجع الكهان ولذلك أعلن محمد بن الحنفية البراءة منه على الملأ من الأمة ، إذ عرف خبيئة نفسه .

ومما قال المختار : « أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار لأقتلن كل جبار ،بكل لدن خطار ،ومهند بتار » .

وقد أخذ المختار يحارب أعداء العلويين ، وأكثر من القتل الذريع فيهم ، ولم يعلم أن أحداً اشترك في الجيش الذي استشهد فيه الحسين إلا قتله ،فحببه ذلك في نفوس الناس ، فالتفوا حوله ، وقاتلوا معه .

ولكن أرسل إليه عبدالله بن الزبير أخاه مصعب لما تفاقم أمره ، وقاتله وقتله بعد أن انتصر عليه وخلاصة مذهب المختار هـذا الذي هو مذهب الكيسانية .

وخلاصة المبادىء التي يؤمن بها الكيسانية ما يأتي :

أولها — أنهم يؤمنون برجعة الإمام الذي اختير من النبي ﷺ ، ثم كان الاختيار على من بعده ، فكان الأول علياً والثاني الحسن والثالث الحسين، والرابع محمد بن الحنفية .

ويقول في ذلك شعراً :

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يتبعه اللواء
تغيب لا يرى عنهم زمانا	برضوى عنده عسل وماء

وثانيها — البَدَاء ، وهو أن الله سبحانه يغير إرادته تبعاً لتغير علمه ، وقد أخذ بهذا غيره من الشيعة لأنه كان يدعي الاخبار عن المغيب في المستقبل فيخبر فتجيء الوقائع بغير ما أخبر ، فيقول قد بدا لربكم .

والمبدأ الثالث :

أنهم قالوا بتناسخ الأرواح كالهنود،وهو خروج الروح من جسد ، وحلولها في جسد آخر ..

ونكتفي من الكيسانية بهذا القدر ، لأنهم طائفة انقرضت ، ولم يكن لها شأن من بعد في تاريخ الوحدة الإسلامية سلباً أو إيجاباً، وقد غمرهم التاريخ، فلم يعرف لهم في ثناياه أتباع .

الزيدية :

٩٢ — وهم الذين ينتسبون إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين الذي خرج على هشام بن عبد الملك ، وخذله أهل العراق ، فقتل في سنة ١٢٢ هـ .

وقد كان خروجه على أثر مشادة عنيفة بينه وبين هشام بن عبد الملك .

وإن مذهب الإمام زيد رضي الله تبارك وتعالى عنه أقرب المذاهب الى الجماعة في الإمامة ، وهو مختلط في الفروع بمذهب الجماعة ، وقوام المذهب الزيدي كما روي عن الإمام زيد يتلخص في المبادىء الآتية

أولها : ان الإمام معرف من النبي ﷺ بوصفه ، لا باسمه وأوصاف الإمام التي قالوها : انه لا بد أن يخرج للناس ، ويبايعوه ، وأن يكون علويا فاطميا ، ورعاً ، عادلاً ، سخيا ، يخرج داعياً الناس لنفسه وقد خالفه في شرط الخروج داعياً بعض الشيعة ، وناقشه في ذلك أخوه محمد الباقر « على قضية مذهبك والدك ليس إماماً فإنه لم يخرج » .

ثانيها: أن هذه عندهم هي للإمام الأمثل الذي لا يتصور في الامامة أعلى منه.

ثالثها : انه تجوز امامة المفضول ، إذا اختار أهل الحل والعقد ذلك ، فإذا اختاروا إماماً لم يستوف بعض هذه الشروط وبايعوه صحت إمامته ، ووجبت طاعته ، ولزمت العامة بيعته ، ولذا لم يكفر ولم يفسق الإمامين أبا بكر وعمر

وكان زيد يرى « أن علي بن أبي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت لابي بكر ، لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً وسيف أمير المؤمنين علي عليه السلام من دماء المشركين لم يجف ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي ، فما كانت القلوب تميل اليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا من عرف

باللين والتودد والتقدم بالسِّن ، والسبق في الإسلام ، والقرب من رسول الله ﷺ [١] .

ولكن الذي ظل راكزاً في نفس شيعة العراق هو ألا يقر شيعي بامامة الشيخين

قال البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق

« لما استمر القتال بينه (زيد) وبين يوسف بن عمر الثقفي ، قالوا إننا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن أبي طالب قال زيد « إني لا أقول فيهما إلا خيراً ، وإنما خرجت على بني أمية الذين قتلوا جدي الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار » ففارقوه عند ذلك .

وكان الامام زيد رضي الله تبارك وتعالى عنه يرى جواز اقامة امامين إذا تباعدت الاقاليم ، ونحن نرى أن ذلك يتنافى مع الوحدة الإسلامية التي ندعو اليها ، إذ أنه يجب أن يكون الراعي للمؤمنين واحداً ، ولا تتحقق الوحدة ، إذا توزعت الإمامة .

ونحن نرى أنه لا يجيز النزاع بينهما حرصاً على الوحدة . لأنه أول إمام بارز بين أئمة الشيعة بل بين علماء المسلمين ، دعا الى الوحدة الإسلامية أو بعبارة أدق دعا الى ألا تفترق الأمة الإسلامية وكان يقول رضي الله تعالى عنه وعن آبائه الكرام « لو أني علقت في الثريا ، وقطعت جزءاً جزءاً على أن تجتمع أمة محمد ﷺ ، لرضيت » فكيف يقال إنه يجيز الفرقة ، وقد كانت نبتت نابتتها ولم تكن قد تجاوزت كل معقول إسلامي والأحاديث النبوية تمنع ذلك منعاً باتاً .

٩٣ — ولقد كان أتباع المذهب الزيدي قليلين ، ولكنهم كانوا يعملون

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني عند الكلام في فرقة الزيدية .

ويظهرون بناء على مذهبه من وجوب أن يظهر الإمام معلناً نفسه داعياً .

وقد ظهر من بعد مقتل زيد ابنه يحيى ، خرج على الأمويين ولكن قتل في آخر عهد الأمويين كما قتل أبوه من قبل .

والمذهب يجعل أولى الناس بالخلافة أبناء علي من فاطمة ، سواء أكانوا من ذرية الحسين أم كانوا من ذرية الحسن ، ولذا خرج ولدا عبد الله بن حسن ،على المنصور وخرج عليه بالمدينة محمد النفس الزكية ، وقيل إن دعوته كانت مبنية على أحقيته أولاً ، وعلى ظلم أبي جعفر المنصور ثانياً ، وأن بيعته أخذت بإكراه ثالثاً .

ولقد كان الإمام مالك بالمدينة يروي أحاديث رسول الله ﷺ ويدرّس مسائل الفقه ، فروى حديث : ليس لمستكره يمين ، فكان يعتمد على ذلك محمد النفس الزكية ، وقد نهي مالك عن روايته ، فلم ينته ، وكيف يمتنع إمام دار الهجرة عن رواية حديث الرسول .

ولذلك أنزل أبو جعفر المنصور بالإمام مالك أشد الأذى بعد مقتل محمد النفس الزكية . أما أخوه إبراهيم فقد خرج بالكوفة ، وكان الإمام أبوحنيفة يؤيده في مجالسه العلمية ، وقد أخذها عليه أيضاً أبو جعفر المنصور ، وكان يتربص به حتى أنزل به أذى ، إذ سجنه سجناً اتصل بموته ، وكان يضربه أعوان أبي جعفر في محبسه ، ولم يرحموا شيخوخته .

وهكذا نجد أن ذلك المذهب كان له أثر في استنكار ظلم الخلفاء ، وكانت الدعوة العملية التي اشتهر بها تجعله واضح الحركات ، ولم يكن كل عمل أتباعه في بث النحل الهادمة في نفس الشعب ، كما نسب إلى غيره من دعاة التشيع الآخرين وإن كانت قد ظهرت من بعد ذلك ، ففي دول منفصلة ، لا في انتفاضات تذهب بعد الهزيمة ، وإن كان للمذهب الزيدي دولة من بعد ، كما سنشير .

الجارودية :

٩٤ – وان المذهب ، وإن كانت له بعض تلك المظاهر العملية ، فإنه أخذ بعد مقتل عبد الله بن حسن يتغير عند بعض أتباعه بالأخذ من الشيعة الإمامية كما سنبين .

فقد ظهرت فيهم فرقة الجارودية وهم أصحاب أبي الجارود بن المنذر العبدي ، وقد خرجوا عن آراء الإمام زيد ، وإن قالوا بإمامته ، فقد قالوا إن الرسول نص على الإمام بالوصف ، وقالوا ان إمامة غيره لا تجوز ، لأن الوصف كان واضحاً لا ينطبق على غير علي ، وحكموا بأن الصحابة ضلوا إذ اختاروا غيره ، وبذلك رفضوا إمامة الشيخين ، وكانوا بذلك من الرافضة ، والإمام زيد لم يقرر أن هناك مهدياً من العلويين وسيظهر في آخر الزمان ، فزاد هؤلاء ذلك ، ويقولون برجعة الإمام كالإمامية .

والجارودية قد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً كثيراً . ويقول النوبختي فيهم : سموا كلهم في الجملة زيدية إلا أنهم مختلفون فيما بينهم في القرآن والسنن والشرائع والفرائض والأحكام [1] .

السليمانية :

٩٥ – وهؤلاء أشد استمساكاً بآراء الإمام زيد من الجارودية، وإن خالفوه في بعض الأمور ، وهم أصحاب سليمان بن جرير ، وكان يقول : « ان الإمامة شورى فيما بين الخلق » (ويصح أن تعقد الخلافة بعقد رجلين من الأمة على أن يكونا من خيار المسلمين) .

وإمامة المفضول تصح عند هؤلاء كالامام زيد مع وجود الأفضل ، وان الامامين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان اختيارهما اجتهاداً منهما وممن

---

(١) فرق الشيعة للنوبختي ص ٥٠ طبع استانبول .

بايعوهما ، وهو خطأ لا يصل إلى درجة الفسق ، وأنهم لذلك ينزهون أنفسهم عن الطعن فيهما ولكنهم يتناولون بالطعن ذا النورين عثمان بن عفان، ويكفرانه ويذهب بهم الغلو المذهبي إلى أن يكفروا أم المؤمنين عائشة، وطلحة بن عبدالله والزبير بن العوام « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » .

وقد استنكروا على الإمامية والكيسانية القول بالبداء ، كما استنكره الإمام زيد .

واستنكروا مبدأ التقية بغير ضرورة ملجئة ، لأنهم وجدوا الذين يدعون الاخذ بالتقية ، يقولون ما يكون ممالأة للظالمين ، وليس بحق ، ولا ضرورة تدعو إلى القول ، فإذا أقيم الدليل على بطلانه ادعوا أنهم قالوا ما قالوا تقية.

وأن القول ممالأة انما كان من المدعين للتشيع لا من آ ل البيت أنفسهم ، رضوان الله تبارك وتعالى عنهم .

البترية :

٩٦ – وهم أتباع كثير النووي الأبتر، وقد وافقه على رأيه الحسن بن صالح ابن حي ، ولذا يقال لهذه الفرقة البترية والصالحية .

وهم في آرائهم كالسليمانية ، ولكنهم لم يكفروا سيدنا عثمان رضي الله عنه، بل توقفوا في شأنه ، وقالوا إن ماضيه يجعله من أهـــل الجنة فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وكان له فضل في نصرة الإسلام بما له من مواقف سامية .

ولكنه في خلافته ولى الظالمين من بني أمية ، وترك شورى عمر ،فتحيروا بين ماضيه قبل الخلافة وحاله في نظرهم بعدهـــا فتوقفوا ووكلوا أمره إلى أحكم الحاكمين .

وجوزوا إمامة المفضول وترك الأفضل ولكنهم اشترطوا رضا الافضل ، وقد يكون اختلاف بين نظرهم ، وما روي عن الإمام ، فالإمام زيد نظر

إلى المصلحة ، لا إلى رضا الإمام على المجرد ، وإن كان كلامه قد يفيد أنه أقر إمامة الشيخين لرضـــا من علي كرم الله وجهه .ولقد اشترطوا في ولاية الامام صباحة وجهه ، وهو شرط أولوية ، فاذا دعا اثنان لأنفسهما بالخلافة وقد تساويا في كل شيء ، ولكن أحدهما أصبح من الآخر ، كان أولى .

وقد جوزوا أن يكون ثمة إمامان من أولاد فاطمة ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة ويقولون قولاً غريبا ، وهو أنه يجوز أن يفتي أو يحكم أحدهما بغير ما يحكم الآخر ، وكل منهما يصيب في اجتهاده ، وإن أفتى باستحلال دم الآخر [1] .

وهذا رأي غريب ، وهذا يؤدي الى أن يستحل فريق من المسلمين دم الآخرين وكيف يستباح دم مسلم بالرأي ، ثم ان هذا الرأي يؤدي الى الفرقة التي لا يقبلها الامام زيد الذي كان يود جمع المسلمين ، ولو كان بتعليقه في الثريا وتقطيعه جزءاً جزءاً .

وان الذي يتصور مع الوحدة الاسلامية بالنسبة لوجود امامين هو أن يكون كل واحد منهما في اقليم من الارض ويتعارفان ولا يتنافران ، كما حدث في تاريخ الزيدية في الحكم على ما سنبين ، إن شاء الله تعالى .

ولقد وصف الشهرستاني رأي هذه الطائفة من الزيديين في قولهم في الامامين بأنه « خبط »

تقام دول على أساس المذهب الزيدي

٩٧–في القرن الثالث الهجري أخذت يد العباسيين تهن عن أن تدير دولة الاسلام التي صارت تمتد من بحر الظلمات غرباً الى الصين شرقاً ، فكانت الاجزاء المتطرفة تتناثر من قبضتها جزءاً جزءاً .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢ ص ٢١٨ هامش الفصل .

وفي ذلك العصر (القرن الثالث الهجري) . كانت الدولة معرضة لمذهبين أحدهما يبني والآخر غير ذلك ، أما المذهب الذي يبني فهو المذهب الزيدي، وأما المذهب الآخر فهو مذهب بعض الغلاة من القرامطة .

والمذهب ظهر منه إمامان جليلان امتازا بالعلم وقوة الدين – أولهما – أبو محمد الحسن بن علي بن الحسن ، وينتهي الى الحسن رضي الله عنهم جميعاً ، ويلقب في التاريخ الزيدي بالأطروش ، لطرش أصيب بـه ويسمى الناصر الكبير تمييزاً له عمن جاء بعده باسم الناصر .

ولد سنة ٢٠٣ من بعد الهجرة وتوفي سنة ٣٠٤هـ،وقد كان الذين يظهرون ويعلنون أنفسهم من الزيدية ، يقاتلون ويقتلون أما هو فقد اتخذ العلم سبيله ، ولم يظهر بنحلة سياسية، وان كان علمه في العقائد والفروع على مقتضى المذهب الزيدي. وقد تتبعه العباسيون ليقتلوه،وخصوصاً المتوكل الذي كان ناصبياً،ناصب آل علي العداء ، ففر الى أرض الجبل والديلم ، وكان أهل هذه البلاد غير مسلمين ، فاتخذها مستقراً لدعايته إلى الاسلام ، وتعليمهم فروعه على أساس المذهب الزيدي ، فكان بذلك ينشر الاسلام ، وينشر العلم الزيدي معه ، واستقر له الحكم بالخلافة الاسلامية وبهذا يعد الناصر محيي الامامة الزيدية وأول إمام استقامت له الامامة في بقعة من الارض وان كانت نائية . ولقد قال في ذلك الشهرستاني « لم ينتظم أمر الزيدية ، حتى ظهر في خراسان ناصر الأطروش ، فطلب مكانه ليقتل فاختفى ، واعتزل الى بلاد الديلم والجبل وهم لم يتحلوا بدين الاسلام ، فدعا الناس الى الاسلام على مذهب زيد بن علي ، فدانوا بذلك ونشؤوا عليه ، وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرة ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الائمة ، ويلي أمرهم »[1]

إذن هؤلاء الزيدية اضافوا إلى الاسلام بلاداً ، ولكنها مستقلة عن الدولة

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني جـ ١ ص ٢١١ على هامش الفصل .

العباسية التي كانت تتبع الزيدية ، وتقتلهم . فأنشؤوا لأنفسهم إمامة ، وتولوا اماماً بعد امام .

ولا نستطيع أن نقول ان إنشاء هذا الإقليم وقيام دولة شيعية زيدية فيه اقتطاع جزء من الدولة الكبرى للإسلام ، ولكن بلا ريب يتنافى مع الوحدة الإسلامية الجامعة التي لا تختلف فيها النزعات الدينية ، وإن كان ذلك لم يصحبه تناحر أو تنازع مع الدولة العباسية التي كانت تضم الجماعة الكبرى الإسلامية ، قبل أن تتفرق عنها الاقاليم .

الهادي :

٩٨ – في الوقت الذي كان ناصر الأطروش ينشىء ملكاً سماه إمامة زيدية في الديلم ولم يكن تابعاً لبني العباس كان الهادي ينشىء دولة في اليمن ، والهادي ينتهي في نسبه الى الحسن بن علي ، وقد ولد في سنة ٢٤٥ هـ وتوفي سنة ٢٩٨ هـ أي أنه عاش نحو ثلاث وخمسين سنة ، أنشأ دولة أو إمامة كانت باقية آثارها الى سنة ١٣٨٠ هـ . وقد ولد بالمدينة ، وقام هادياً مرشداً يدعو الى الله والى طريق مستقيم ، وكان فقيها باحثاً يرجع اليه العلماء من كل الطوائف الإسلامية يسألونه ، فيجيبهم ، ويستفتونه فيفتيهم ، وكان يرد برسائل قيمة أثرت عنه [1].

وقد ذهب الى اليمن سنة ٢٨٠ هـ ، فوجد فيها أرضاً خصبة ، فبذر فيها بذراً طيباً نقياً من العلم السلفي الصالح وكان يبث المذهب الزيدي النقي في لبابه .

وقد عاد الى الحجاز بعد أن تعلقت به القلوب ، وصار له اتباع من أهل اليمن .

واليمن في هذه الأيام لم تكن محل عناية ملوك بني العباس ، وقد استغل ذلك قوم ، اشتهروا في التاريخ الإسلامي باسم القرامطة ، فكانوا يساورون

---

(١) راجع بعض هذه الرسائل في كتاب الإمام زيد لمحمد أبي زهرة .

اليمن ، ويريدون أن يقتلعوه من الحكومة العباسية ، والأهالي يتبرمون بالقرامطة وما يفعلون .

لذلك اتجهوا الى الهادي وأرادوه إماماً لهم ، فذهبوا اليه في بلاد الحجاز ، وأخرجوه من محرابه في المدينة الطاهرة — وفاء إليهم . فبايعوه على الامامة ، فعاهدهم عهداً سلفياً وقال فيه :

« أيها الناس اني اشترط لكم أربعاً على نفسي . الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والأثرة لكم على نفسي فيما جعله بيني وبينكم ، أوثركم فلا أفضل عليكم ، وأقدمكم عند العطاء قبلي ، وأتقدم عليكم عند لقـــاء عدوي وعدوكم وأشترط لنفسي عليكم اثنتين : النصيحة لله في السر والعلانية ، والطاعة لأمري على كل حالاتكم ما أطعت الله تعالى فيكم فان خالفت فلا طاعة لي عليـــكم وإن ملت وعدلت عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فلا حجة لي عليكم فهذه سبيلي أدعو الله على بصيرة أنا ومن اتبعني . »

بهذه البيعة تقدم ، وأخذ على نفسه ما أخذ من العهود ، ووفى ، وحاول أن يجمع بين المسلمين ، وكان يقول « لوددت أن الله اصلح هذه الأمة ، وأني جُعْت يوماً وشبعت يوماً » .

وبهذا يتبين أنه ما أراد ملكا ، إنما أراد إصلاح الأمة ، وإرادة اصلاحها جمع كلمتها ، وتحقيق وحدتها ، كما تركها النبي ﷺ والراشدون من بعده .

وان الاصلاح لا يكون إلا بالعدل ، وتوزيعه بالقسطاس بـــين الناس ، ليطمئنوا ، وإذا اطمأنوا ائتلفوا واذا ائتلفوا كانت الوحدة قريبة ، ولا تكون بعيدة غير دانية .

وعلى رأس العدالة — العدالة الاجتماعية ، فنظم بيت المال وجمع الزكوات وبعد أن أقام العدل عمل على وحدة اليمن ، وما يجاورها من البلدان ، وضم نجران إلى اليمن .

وأقام الحدود كلها ، ولم يعف منها كبيراً لكبره، بل نفذها في غيرهوادة وبعد أن جمع القلوب ، وأقام العدل ، ونفذ الشرع اتجه إلى الجهاد فجاهد القرامطة ، وقد أخذوا يعيثون في الأرض فساداً .

ولقد وقع الإسلام بين الغلاة في الشرق والغرب ، ففي الغرب كان القرامطة ، يساورون حدود اليمن ويريدون أن يقنصوها من حاكم بغداد الذي كان لا يزال يسمي نفسه خليفة ، وإن وهنت يده عن أن تقبض على ناصية في أرضه .

وفي المغرب كان الباطنية الذين أنشأوا الدولة الفاطمية ، واستولوا على مصر ، وشرق ملكهم وغرب ، تقدم الهادي للقرامطة ، وحاربهم خمس سنين دأباً .

وقد جرح سنة ٢٩٨ ، ومات من بعد ذلك راضياً مرضياً .

دولتان منفصلتان عن حكم بغداد :

٩٩ – ونلاحظ هنا أن الزيدية أقاموا دولتين : إحداهما دولة الناصر الأطروش ، وأقامها في الديلم والجبل وتعاقب فيها من بعده خلفاؤه،ولا نقول انه انتزعها من ملك العباسيين ببغداد ، ولكن نقول انهم أقاموها في مكان لا سلطان لأحد من المسلمين عليه ، ولم يكن بينهم وبين الحكم العباسي مغالبة .

والثانية في اليمن : وقد أقامها الهادي ، واستمرت قائمة الى حوالي سنة ١٣٨٠ هـ وآخرهم أحمد بن يحيى وقد تخلفت في آخر عهدهم .

ولا يقال انهم انتزعوها من أيدي العباسيين ، لأن القرامطة قد غلبوا على ما حولها وكانوا يقصدون أن يغلبوا عليها ، فجاء الهادي وخلفاؤه فأزالوهم ، حتى كانت جهودهم من بعد في المغرب ونلاحظ هنا أيضاً أن الأطروش ، والهادي ، كلاهما كان يلقب بلقب الإمامة ، ولم يكن له تبعية للدولة العباسية في العراق .

وكلا إمامي الزيدية كان يعترف لصاحبه ، وان ذلك فيه تطبيق للمذهب الزيدي الذي يجيز إقامة إمامين في قطرين متباعدين .

وإن الأسباب قد توافرت لاقامة هاتين الدولتين ، فالناصر أدخل الإسلام في اقليم لم تمتد اليه يد الدولة العباسية التي قصرت في ذلك الإبان

والهادي نشر راية العدل والاصلاح في وسط التخاذل والفساد ، وأزال القرامطة من حكمه .

فلم يمكنهم من أن يقطعوا البلاد لغاليـــة الشيعة كما كان حكم الباطنية في الغرب الذي انحدر الى مصر ، ثم اجتازها إلى الشام وبذلك تقطعت الدولة الإسلامية وذهبت الوحدة .

الامامية من الشيعة

١٠٠ — هذه الطائفة التي تحمل اسم الشيعة الإمامية يدخل في عمومهـــا أكثر المذاهب الشيعية التي سارت في التاريخ ، ولا يزال كثيرون منها إلى الآن في العالم الاسلامي في ايران والعراق ، وما وراءها من باكستان واندونيسيا والهند .

ويدخل في حكمها طوائف لم تنحرف في اعتقادها إلى درجة أن تخالف نصاً من نصوص القرآن ، إلى أي أمر علم من الدين بالضرورة .

وتشمل طوائف أخرى فيها انحراف شديد .

والجامع لهؤلاء المقتصد منهم في الاعتقاد والقول ، وغير المقتصد هو اسم الامامية .

وأنهم يقولون أن الأئمة عينوا من النبي ﷺ بالشخص ، لا بالوصف ، فعين النبي ﷺ علياً وهو يعين من بعده بوصية من النبي ﷺ ، وكذلك من بعده الخ .

وقد أجمع الامامية على إمامة علي كرم الله تعالى وجهه في الجنة ، وأنها

قد ثبتت بالنص عليه بالذات من النبي ﷺ نصا ظاهراً ويقيناً صادقاً من غير تعريف بالوصف ، بل بالعين .

قالوا : « وما كان في الدين أمر أهم من تعيين الإمام ، حتى يفارق عليه السلام الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فانه إذا كان قد بعث لرفع الخلاف ، وتقرير الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الامة ويترك الناس هملاً ، يرى كل واحد منهم طريقاً ، ولا يوافقه عليه غيره ... بل يجب أن يعين شخصاً هو المرجوع اليه ، وينص على واحد هو الموثوق به والمعول عليه [1] . وعلي هو الذي عين بنص نبوي .

ويستدلون على ذلك بأدلة من السنة ،يعتقدون صدق سندها، وباستنباطات من أعمال النبي ﷺ ، اختص علياً كرم الله تعالى وجهه في الآخرة .

وليس هذا المقام مقام توضيح المذهب ، فليرجع اليه في مواضعه [2] .

وكما اتفق الإمامية فيما بينهم على أن الامام علياً كرم الله وجههوصي النبي ﷺ بالنص قرروا أن الأوصياء من بعد علي هم أولادهمن فاطمة: الحسن ، ثم الحسين رضي الله عنهما ، ثم اختلفوا من بعد ذلك على فرق مختلفة في الائمةبعد هؤلاء ، بل قيل انهم اختلفوا من بعد ذلك على أكثر من سبعين فرقة .

وأظهرها فرقتان ، وهما الباقيتان الاثنا عشرية ، والاسماعيلية .

الاثنا عشرية :

١٠١ – ترى الاثنا عشرية ان الاوصياء إثنا عشر وصياً ، وأن الوصي أو الإمام بعد الحسين ابنه علي زين العابدين ومن بعد علي زين العابدين محمد الباقر ابنه ، ومن بعد محمد الباقر ، جعفر بن محمد الباقر .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني .

(٢) راجع في هذا كتاب الفرق بين الفرق وكتاب تاريخ المذاهب الاعتقاد والسياسة لمحمد ابي زهرة .

ومن بعد جعفر ابنه موسى الكاظم ، ثم علي الرضا ثم محمد الجواد ، ثم علي الهادي ثم الحسن العسكري ثم محمد ابنه وهو الإمام الثاني عشر . ويعتقدون أنه دخل سرداباً في دار أبيه بسُرَّ مَنْ رَأى ، ولم يعد إلى الآن، وقد اختلفوا في سنه عند اختفائه ، فقيل كانت سنه أربع سنين ، وقيل كانت ثماني سنين ، وقال بعضهم أو أكثرهم : كان في هذه السن عالماً ما يجب أن يعلمه الإمام ، وان ذلك يتفق مع أصل المذهب في علم الأوصياء لأنهم يقولون : ان علمهم إلهامي لا كسبي .

وقال آخرون كان الحكم لأهل مذهبه .

والاثنا عشرية يوجدون الآن في العراق وعددهم كثير يقارب النصف وهم يسيرون على مقتضى المذهب الاثنا عشري في عقائدهم ، ونظمهم في أحكام الأسرة من الزواج وأحكام الأولاد والمواريث والوصايا والأوقاف والزكوات والعبادات كلها .

وكذلك أكثر أهل ايران على المذهب الاثنا عشري .

ومنهم من يقيمون في لبنان وسوريا وكثير من البلاد الاسلامية ، وهم على ود مع إخوانهم من أهل الجماعة ولا ينافرونهم .

وان الامامية الاثنا عشرية كغيرهم من الامامية يفرضون في الامام سلطاناً مقدساً يأخذه بايصاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكما أن ولايته للامة كانت بوصاية تنتهي إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فتصرفاته كلها مشتقة من صاحب هذه الوصاية .

ونكتفي من بيان المذهب بذلك وليرجع الى بقية البحث في مصادره .

الاسماعيلية :

١٠٢ – والاسماعيلية طائفة من الامامية كما ذكرنا ، وهي منبثة في أقاليم

متفرقة من البلاد الاسلامية ، وبعضها في جنوب افريقية ووسطها ، وبعضها في بلاد الشام ، وكثير منها في الهند ، وباكستان ، وكان لها دولة الفاطميين التي كانت من المغرب إلى مصر ، وحكمت معها الشام .

والقرامطة الذين سيطروا وقتاً ما على عـــدة أقاليم اسلامية كانوا منهم وإن لم تكن لهم دولة قائمة بذاتها وهذا المذهب ينتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وعند اسماعيل يفترقون عن الاثنا عشرية ، إذ يعدون الوصي بعد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم ، ثم تكون الوصاية من بعده في أولاده ، أما الاسماعيلية فيعدون اسماعيل هو الوصي بعد أبيه جعفر بن محمد .

ويلاحظ أن اسماعيل مات قبل أبيه جعفر ، ولكنهم قالوا ان جعفراً نص عليه ، فكان إعمال النص بأن تبقى الامامة في عقبه ، فان النص الذي يقوله الامام إعماله أولى من إهماله إذ أن أقوال الامام عندهم كنصوص الشارع تماماً فلا عجب في قولهم هذا .

وقد انتقلت الامامة عن طريق اسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ، وهذا أول الائمة المكتومين أو المستورين اذ هم يقولون إن الامام يصح أن يكون مستوراً ، ولا يمنع ذلك من امامته وتجب طاعته ومن بعد محمـــد المكتوم ابنه جعفر المصدق ، وبعده ابنه الحبيب وبعده ابنه عبدالله المهدي الذي ظهر في شمال افريقيا وملك المغرب ثم كان من عقبه من انشأ الدولة الفاطمية في مصر .

وقد نشأ مذهب الاسماعيلية بالعراق كغيره من المذاهب الشيعيـــة ، واضطهد فيه كما اضطهد غيره من المذاهب الشيعية أو بالأحرى الرجال الذين كانوا يظهرون دعاة له .

وخرج المعتنقون له تحت تأثير الاضطهاد إلى بلاد فارس وخراسان ، وما وراء ذلك كالهند وتركستان وان هؤلاء الاسماعيلية قد اتصلوا بأهل المذاهب القديمة ، فاتصلوا بالكلدان والبراهمة والفلاسفة الاشرافيين ومنهم من أوغل في دراسة هذه المناهج ، ومنهم من أخذ منها وكان بمقدار إيغاله وأخذه يكون

بعده عن الاسلام أو قربه منه ، فبعضهم أخذ بقدر لم يفارق به الاسلام ، وبعضهم أخذ بمقادير جرته الى الخروج عن الاسلام .

وانهم قد أحاطوا أنفسهم بالسرية في تفكيرهم ، ومبـــادلتهم الآراء ، وكانت تظهر أحياناً كما كان من القرامطة وغيرهم ، ولكنهم يبيتون ما يبيتون فيما كانوا يستأنسون بالناس .

وانه بلغ لهم من الكتمان حد أن كانوا يكتبون الرسائل ، ولا يعلنون اسماء كاتبيها ، كما ترى في رسائل اخوان الصفا التي اشتملت على علم غزير وفلسفة عميقة ، فقد ذكر المؤرخون انهم هم الذين كتبوها ، ولم يعرف العلماء الذين كتبوها ، وهي تشرفهم لو ظهروا ، ولعلهم معروفون عندهم [1] .

وقد سموا الباطنية أو الباطنيين ، وذلك لاتجاههم الى الاستخفاء ، عن الناس وقد ابتدأ الاستخفاء بسبب الاضطهاد ، أو خشية الاضطهاد ،ولكنهم من بعد ذلك استمرؤوه وألفوه ، واتخذوه سبيلاً للتدبير المحكم ومنهم طائفة سموا في التاريخ باسم الحشاشين ، وقد ظهرت أعمالهم في إبان الحروب الصليبية وإبان حروب التتار وكان بعضها سوءاً على الاسلام والمسلمين ، وقد لاقى منهم صلاح الدين الأيوبي العنت الكبير .

ومن أسباب تسميتهم بالباطنية انهم قالوا بالإمام المستور ، وقـد استمر امامهم مستوراً ، الى ان ظهر متغلبا في المغرب ، ثم اجتـــاز شمال افريقيا الى مصر .

ومن الاسباب أيضاً أنهم يقولون إن للقرآن ظاهراً، وباطناً ، وان للباطن باطناً حتى نصل إلى سبعة بواطن وما عند الإمام من اسرار علم باطن .

وقد شاركهم في هذا الاثنا عشرية ، وهو الجزء الخاص بعلم الباطن بجوار علم الظاهر .

---

(١) راجع في اخبار الاسماعيلية كتاب أصول الشيعة ، وكتاب تاريخ المذهب والاعتقادية السياسية لمحمد أبي أمين زهره ، والشافي للشريف المرتضى .

١٠٣ – وقد بنيت الآراء التي يعتنقونها على ثلاثة مبادىء ، شاركهم في بعضها الاثنا عشرية أولها – الفيض الالهي من المعرفة الذي يفيض الله تعالى به على الائمة فيجعلهم بمقتضى إمامتهم فوق الناس علماً واحتسابا ، وقربا من النبي ﷺ ، وربه ، فعندهم علم الشريعة قد أوتوه دون الناس .

والثاني – ان الإمام لا يلزم أن يكون ظاهراً معروفاً ، بل يصح أن يكون خفياً مستوراً ، ومع ذلك تجب طاعته. وإن المهدي الذي يهدي الناس في قابل الأيام ، وان لم يظهر في جيل من الاجيال ، فانه لا بد ظاهر من بعد ، ولن تقوم القيامة ، حتى يظهر ، ويملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً .

الثالثة – ان الإمام ليس مسؤولاً أمام أحد من الناس ، وليس لأحد من الناس أن يخطئه فيما يقول من اقوال ، وفيما يأتي من افعال ، ففعله دائماً خير لا شر فيه ، لأن عنده من العلم ما ليس عند غيره ومن هذا المبدأ قرروا أن الائمة معصومون ، لا بمعنى انهم لا يرتكبون خطايا فقط ، بل بمعنى أعمق من ذلك ، وهو ان ما نسميه نحن خطايا قد يكون عندهم من العلم ما ينير السبيل لهم فيه ويكون سائغاً بالنسبة لهم ، وليس سائغاً لغيرهم من الناس .

وليس في هذه المباديء التي ذكرناها ما يخرجهم من إطار الاسلام الى غيره ، فليس فيها ما يصح أنه خالف أمراً صريحاً في الكتاب أو السنة .

ولا شك أن بعض نواحي التفكير التي عند الباطنية ليس فيها ما يصح أن يكون كفراً صريحاً ، وأقصى ما نقول فيها اننا لا نعرف بها كتاباً ولا سنة .

ولكن في أهل هذا التفكير وجدنا من خلعوا الربقة ، وكانت السرية التي اتخذتها هذه الفرقة مدرجة لهذا الخروج ففي ظلها فرضت آراؤهم ، وكانت سبباً في أن وجد الحاكمية ، وهم أولئك الغلاة الذين تجاوزوا حدود الاسلام ،

ولقد غالى بعضهم في معنى الاشراق الروحي الالهي ، حتى زعم أن الاله يحل في نفس ، ودعا إلى عبادته (أي الامام) .

الحاكمية

١٠٤ – وانه كان على رأس هؤلاء الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي تنسب اليه الطائفة الحاكمية وقد ادعى أن الاله حل فيه .

وقد اختفى الحاكم ، ثم مات أو قتل على اختلاف الرواة ، وان الراجح أنه قتله بعض أقاربه ، ولكن أنكر مريدوه واتباع مذهبه الذي ظهر بعد موته – أنه مات ، وزعموا أنه يعيش مستوراً عن الناس ، وانه سيرجع وقد سميت الطائفة التي تتبعه بالحاكمية ، والدروز الذين يكثرون بلبنان وسوريا لهم صلة وثيقة بالحاكمية ، وان كنا نظن ان كثيرين منهم لا يقولون ما يقول الحاكمية في الحاكم .

وإن بعض المؤرخين يقول إن الذي وسوس إلى الحاكم أن يخرج على الناس بهذه الآراء الغالية رجل فارسي اسمه حمزة الدرزي .

ومهما يكن من أثر الحاكم ، فإن بعض الدروز يعلنون آراءهم ، ولا نجد فيها ما ينافي الإسلام ومنهم من كانت له مواقف مشهورة مذكورة في الدفاع عن الإسلام مثل المرحوم شكيب ارسلان ، وكثيرون يستخفون بآرائهم واعمالهم والله أعلم بحالهم :

وبجوار الحاكمية والدروز فرقة تسمى النصيرية لا تنسب نفسها للإسماعيلية ، والكلام في هذه الطائفة كثير ، ونضرب الآن صفحا عن ذكره ، وليرجع إلى الكلام فيها في مصادره [١] .

---

(١) مراجعة تاريخ المذاهب الاعتقادية والسياسية في الإسلام وكتاب ابن تيمية وكلاهما لمحمد ابي زهرة .

نتائج الطائفية :

١٠٥ – كان يبــدو بادي الرأي أن الاختلاف الطائفي اختلاف علمي ونظري فقط، والاختلاف النظري أو العلمي ليس من شأنه أن يفرق الجماعات، ولا يمزق الوحدة ، ولا يجعل بأسها بينها شديداً ، لأن الاختلاف العلمي لا يتجاوز مواطن التفكير ، ومواضع النظر .

ولكن الاختلاف الطـائفي الشيعي أدى الى أن تنشأ دول تفك الوحدة التي عقدها النبي ﷺ . ووثقها عليه السلام ، بالاخاء ، وبالموالاة ، كما أشرنا من قبل .

ولم تكن تبعة هذا الاختلاف أو الافتراق تقع على الشيعة وحدهم ، بل على العباسيين لأنهم لم يعالجوا الأمر بالتلاقي على أحكام القرآن والسنة ، بل عالجوه كما يعالج الملوك الخارجين عليهم بالقتال والقتل وبث العيون ، وتتبع الناس بالسعاية ونحوها .

فمهروا في الاستتار والاستخفاء ودبروا مادبروا في ظل الكتمان، واتخذوا من ظلامه درقة اتقوا بها سيف القتال ودبروا أمرهم، وأحكموا التدبير .

وصارت دعوى الإمامة متنازعة بين ثلاث دول متفرقة .

أولاها : إمامة الناصر الأطروش في بلاد الديلم والجبل ، وهو يدعي أنه إمام ، وإن كان لا ينازع إمامة بني العباس ، لأنه في أرض نائية عنهم ، وله فيها فضل الانشاء .

والثانية : إمامة الهادي ، وهي في اليمن ، وامتدت الى ما يجاوره ، ولم تكن لتنقص الأرض من أطرافها على بني العباس ، بــل كان لها الفضل في القضاء على القرامطة الذين كانوا يقضون مضاجع العباسيين .

وهاتان الامامتان ظهرتا في القرن الثالث الهجري، وتوطدت دعائم الهادي، حتى بقي ما سمي الإمامة الى بضع سنين خلت .

وفي القرن الرابع الهجري ظهر إمام الفاطميين الذي انبعث من بين الباطنيين أو الاسماعيليين وابتدأ حكمه في المغرب ثم انتقل إلى مصر ، وأخذ الشام ، واستمر حكمهم الى أن قضى عليهم الأيوبيون في القرن السادس الهجري .

وبذلك صارت الإمامة الى القرن السادس الهجري مضطرباً بين أربعة أئمتهم أمير المؤمنين العباسي والإمام الناصر الأطروش وذريته ، والإمام الهادي وذريته ، والمعز لدين الله وأولاده الى أن أدال الله منهم بالدولة الأيوبية .

وكان سلطان الخليفـــة العباسي اسميا ، وليس حقيقياً يتبع في الحكم والسلطان .

تقطع الدولة في العهد العباسي

كانت الطائفية لها الأثر في تفريق الوحدة من الناحية العملية ، على النحو الذي ذكرناه ، فقامت دول وانفكت الوحدة الاسلامية التي كانت تمثلهـــا الخلافة ، ولو اسمياً ، ولم تكن للخلافة النبوية حقيقة قائمة بل كانت الملكية هي المتحكمة ، وان تسمت بالخلافة وامرة المؤمنين .

ولقد قلت ان الوحدة كانت قائمة في عهد ملوك بني أمية ، وان كانت على دخن ، لأنه لم يكن حكم الاسلام قائماً على الوجه الاكمل ، ولأنها لم تقم على أصول الاختيار بالشورى الاسلامية .

فلما آل الأمر إلى بني العباس ، وكانوا أقرب رحماً بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان يكونوا في حكمهم أعدل وأشمل ، ولكن كانوا أقل تعصباً للعرب ، ثم آل الأمر إلى العنصر الفارسي ثم العنصر التركي ، ثم كان استبداد هؤلاء ، وأولاء بمن تسموا بالخلفاء من بني العباس .

الحكم الأموي بالأندلس :

١٠٦ — والدولة العباسية في إبان قوتها ، ونشأتها القوية الفتية ، وفي عهد

أبي جعفر المنصور الذي يعد أقوى منشىء للدولة العباسية نشأت دولة بني مروان بالأندلس .

ذلك أنه عندمـــا نزل الاضطهاد العباسي بالأمويين ، وتتبعوهم قتلاً وتشريداً ، جزاء ما قدمت أيديهم بالنسبة لآل علي كرم الله وجهه في الجنة وان كان العباسيون ساروا على مثل منهجهم .

في هذا الوقت ، وفي عصر أبي جعفر المنصور ، فر عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبدالملك الى الأندلس ولم يكن العرب الذين بها ، قـــد اقتنعوا بالتغيير والتبديل في العراق والشام والمدينة ، فدانوا لعبد الرحمن بالطاعة وارتضوه حاكماً عليهم ، وسمي في التاريخ بعبد الرحمن الداخل ، وسماه أبو جعفر المنصور تقديراً لهمته وإعجاباً به صقر قريش .

ظهر صقر قريش في الأندلس فاستولى عليها وضبط الأمور وجمعها تحت سلطان واحد .

واقترنت الحضارة الأندلسية بالدولة المروانية هذه في ذلـــك الوادي الخصيب ، حتى لقد قال ابن حزم إن دولة بني أمية بالأندلس كانت أنبل دول الإسلام ، وأنكاها في العدو ، وقد بلغت من العز والنصر ما لا زيادة عليه [1] . ولم يكن الملوك الأمويون المروانيون بالأندلس يدعون أنفسهم باسم الخلفاء أو أمراء المؤمنين بل كانوا ملوكاً ، ولم يدعوا الخلافة حتى لا يكون بين جماعة المسلمين خليفتان ، ولم يكن قد انفتق الخرق ، فلم يريدوا أن يكونوا المبتدعين للافتراق .

ولكن ضعف أمر الخلافة العباسية ، واستبد بالخلفاء منهم الفرس ، ثم الأتراك وضعف شأنهم وخرج بالامامة أو الامرة عليهم الناصر الأطروش والهادي في القرن الثالث ، ثم نشأت الدولة الفاطمية على يدي المهدي الذي انتقل أحفاده من بعده إلى مصر .

---

(١) نفح الطيب جـ ٣ ص ٧١ .

رأى هذا عبد الرحمن الناصر في مطلع المائة الرابعة من التاريخ الهجري ، فعندئذ ادعى الخلافة لنفسه ، ولقب نفسه بلقب أمير المؤمنين ، ثم صار ذلك اسماً لمن جاء بعده من ملوك بني أمية في ذلك الإقليم الخصيب .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر هذا بلغ ذلك الإقليم الإسلامي الذروة في العز والسؤدد والرفعة ، وأخاف الفرنجة وأرهبهم ، وامتد سلطانه في البلاد الإسلامية إلى المغرب ونازع المهدي من الإسماعيلية ، فيمم وجهه شطر مصر.

ولكن ما بعد ارتفاع الشمس في كبد السماء إلا زوالها ، فإنه قد سار على الأمر من بعده ابنه الحكم على منهاجه وسياسته ، فلم تضعف الأندلس .

ولكن لم يدم ملكه طويلاً كأبيه ، إذ أن أباه عاش ملكاً وخليفة نحو خمسين سنة ، أما الحكم فقد عاش خليفة ست عشرة سنة فقط .

ولقد اعترى الحكم بعد ذلك ضعف إذ تولى غلام كالشأن في كل الحكم الوراثي ، إذ قد يتولاه الضعفاء كما يتولاه الأقوياء .

ولنترك هذا إلى موضعه في دراسة تاريخ الأندلس .

وإن المقصود بذلك السياق الذي سقناه كيف ابتدأ تفرق الوحدة الاسلامية بعد العصر الأموي مباشرة وفي عصر فتوة العصر العباسي وازدهاره .

ولقد ضعف بعد ذلك الخليفة العباسي وكانت تتساقط أجزاء دولته ، حتى آل الأمر إلى الافتراق الذي نعاني منه الآن تفرق كلمة المسلمين ، وأن يكون بعضهم حرباً على بعض أو على الأقل لا يشعر كل اقليم منهم بما يعانيه الإقليم الآخر أو يشعر ولكن ينظر اليه نظر من لا يهمه الأمر فيه ، والنبي ﷺ يقول « من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » .

الدولة الطولونية ثم الأخشيدية :

١٠٧ ــ أخذت الاقاليم بعض الاستقلال عن دولة العباسيين ، فأحمد بن

طولون تولى مصر ومن بعده أولاده ، وكان خاضعاً للدولة العباسية ينـــادي بالتبعية لها ويعمل على حفظ مـــا تحت يده ويقدم الخراج والهدايا الى الدولة، وكانت دولته وراثية،ثم جاء الاخشيدية كذلك ، ومؤسس الدولة الأولى أحمد بن طولون ، كان ابوه مملوكاً تركيا ، أهدي الى المأمون بن الرشيد وكان من الجنود الاتراك الاكفاء وولد له أحمد سنة ٢٣٠ وقد تولى حكم مصر من قبل المسيطرين في الدولة العباسية سنة ٢٥٤ فتولى ادارة الدولة والأعمال الخارجية.

وقد استقل بها أحمد سنة ٢٥٨ ، ودعي له بها بعد الدعاء للخليفة. وكانت وراثية لمن بعده ، حتى أخذها كافور الأخشيدي .

وكان الأمر قد اضطرب بعض الاضطراب،حتى اقتنصتها الدولة الفاطمية. وناوأت العباسية التي لم يكن لها من الخلافة إلا الاسم .

الحال في الدولة العباسية :

١٠٨ – وجدت الدولة العباسية ، وهي تحمل في نفسها عوامل انهيارها واضطرابها.

لقد قامت على التأييد الفارسي،فالدعوة الفـارسية كانت هي التي تقوم بالدعـــاية لتلك الدولة . وقد ابتدأت الدعوة علوية ، ثم حولت من علوية إلى عباسية .

فكانت بسبب ذلك مربوطة بالعلويين والفارسيين معاً ، فالعلويون كانوا لا يسكتون عنهم ، ولا ينون عن الخروج عليهم والقرامطة الذين اتخـذوا العلوية مظهراً أقضوا مضجعهم الوقت بعد الآخر ، وهكذا .

والفـــارسيون كان يخشى بأسهم من وقت أن قامت الدولة ، فأبو مسلم الخراساني الذي انتزع الملك من الامويين ، وأعطاه للسفاح ثم للمنصور ، كان أخشى من يخشاه أبو جعفر حتى بادر بقتله ، فتغداه قبل أن يتعشاه ، وجاء المقنع الخراساني فثار على حكم المهدي ، وتولى نشر الزندقة ، فتلقاه المهدي بالمقاومة الشديدة ، وحاربه في ميدان الحرب ، وميدان القلم .

حاربه حتى هزمه وقضى على قوته .

ودفع المعتزلة اليه يحاربون الزندقة التي كان يبثها المقنع الخراساني وانتصر في الميدانين ، ولكن بقي أصل الداء لم يستأصله .

وجاء من بعد ذلك عهد الرشيد ، فتقرب اليه البرامكة زلفى ثم اكتشف أنهم يعملون لفارس لا للعرب ، ولما تكشف له ذلك نكبهم ، ولكن بعدأن نصروا الشعوبية على العربية .

ولما عهد الى الأمين ثم المأمون ، وقد كان الثاني أسَنّ من الاول ، وقعت المعركة سافرة بين العرب والفرس ، إذ أيد العرب الأمين وقد كان ذا نزعة عربية ، وأيد الفرس المأمون ، عندما تنازعا وانتهى الأمر بمقتل الأمين وهزيمة الجيش العربي ، واشاعة قالة السوء عن الأمين .

وهكذا كان العنصر العربي يضعف ، وغير العربي يقوى ، وقد اتخذ المأمون من الفرس الحجاب والوزراء والقواد وكانت دولته في حقيقتها فارسية وان كانت في زيّ عربي .

ثم جاء المعتصم ، فأضاف إلى العنصر الفارسي العنصر التركي ، وهكذا توالت العناصر غير العربية على السيطرة على الحكم .

وقد يقول قائل وما الذي في هذا والاسلام دين عام خالد لكل الاجناس، ولكل الأجيال ، فاذا كان المتغلب عربياً أو المتغلب فارسياً أو تركياً ، فهم على سواء ، لأن الإسلام سوى بينهم .

وان ذلك الكلام ظاهره الحق ولكن عند فحصه يتبين أنه بعيد عنه ،ذلك أن الذي نأخذه على نظام الحكم المغالبة ، فكما انا أخذنا على الحكم الأموي التعصب العربي ، فانا نأخذ على التغلب الفارسي وغيره التعصب والمغالبة ولو كان الأمر معاونة بين العرب والاعاجم لكان الخير المتفق مع حقائق الإسلام.

إن الوحدة الإسلامية تقتضي مزجاً يشبه المزج الكيمائي ، ولا تكون

خلطاً وإن المزج يوجب أن تختفي كل الخواص الجزئية الخاصة بعناصر أجزاء المركب ، بحيث لا يتغلب عنصر على عنصر بل يكون البارز هو صفات المزيج وحده وكذلك الأمر في الوحدات الاجتماعية عامة ، وفي الوحدة الاسلامية خاصة .

السامانية :

١٠٩ – أخذ كل الدولة العباسية يختفي من الحكم ، ففي المغرب ، كانت دولة الأدارسة ثم دولة المهدي الفاطمي وأولاده الذين أنشؤوا الدولة الفاطمية بمصر ، وأزالت كل أثر للعباسيين في مصر والشام .

وفي الشرق كان يتنازع الحكم كثيرون من أولاد فارس ، وغيرهم ، وكان منهم ، الذين استبدوا بملك خراسان وتوارثوه أكثر من سبعين ومائة سنة وكان الملك فيهم وراثياً ، وقد قضوا على كل سلطان للخليفة في التنفيذ ، ولم يبق له من الخلافة إلا الاسم .

ويقول استاذنا المرحوم الخضري المؤرخ الأول في هذا العصر للإسلام :

تنسب هذه الاسرة السامانية الى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فهي أسرة عريقة المجد في الأمة الفارسية ، كان في عهد المأمون من تلك الاسرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعى حقوق الحرمة لبعض البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم ، وكانت بلاد ما وراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان ، فكان نوح بن أسد في سمرقند وأحمد بن أسد في فَرْغانه ، ويحيى بن أسد في الشاس، وأشروسنة ، والياس بن أسد في هراة،وكان أحمد بن أسد عفيف النفس ، رضي السيرة ، لا يأخذ رشوة ، ولا أحد من أصحابه ، ولما توفي استخلف ابنه نصراً على أعمال سمرقند وما وراءها فبقي عاملاً بها...[١].

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية ص ٣١٠ .

وهكذا كما قررنا ان الدولة العباسية كانت تحمل في نفسها عوامل هدمها، وتفريق الناس عن الوحدة الإسلامية الجامعة . فإن أولاد سامان توارثوا الملك ، وصاروا دولة داخل الدولة العباسية .

والنتيجة الطبيعية لهذه السياسة أن يستضعف الخلفاء ، وأن يقتلوا خليفة بعد خليفة ، أو بالاحرى ملكاً ضعيفاً بعد ملك ، ويتساقط نفوذهم تساقط الذباب على موائد من ولوهم .

ولقد ذكر أستاذنا الخضري النتيجة الحتمية لذلك وهو تفرق الوحدة الإسلامية وتقطع أجزاء الدولة التي كان يرجى أن تكون جامعة لأمرها، مهما يكن نوع حكمها ، ومن أي طريق كان سلطان ملوكها .

مما تقدم يفهم أن البلاد الشرقية تقلص عنها ظل الدولة العباسية فعلاً ، وإن كان يدعى لهم ببعضها اسماً .

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان ، وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر .وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبني العباس بطاعة .

أما بالغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بني العباس برقة ومصر، وسوريا وهي دولة أحمد بن طولون [1] ، وإنه خلف ابن طولون وأولاده الأخشيديون ، وخلف من بعدهم دولة الفاطميين ، وقد جاؤوا من المغرب ، وهؤلاء ساوروا ملك العباسيين ولم يدينوا لهم بطاعة ، بل أغرى بينهم بالعداوة والبغضاء .

بنو بويه :

١١٠ — وقد انقبض سلطان بني العباس ، وصار نفوذهم العملي والاداري مقصوراً على بغداد وما حولها من العراق وأما بقية الدولة فقد خرج من

(١) محاضرات تاريخ الامم الإسلامية العباسية ص ٣١٠

من أيديهم ، وصارت الولاية الحقيقية للسلاطين والولاة الذين استقلوا بهذه البلاد القاصي منها والداني .

حتى جاء بنو بويه ، وأزالوا ما بقي لهم من سلطان في إدارة بغداد والعراق ، ولم يبق لهم إلا السلطان الاسمي وصاروا لا يملكون من أمورهم الشخصية أكثرها ، وذلك على أيدي بني بويه .

وقد ظهرت هذه الأسرة في وقت اضطرب فيه الأمر بين الحكام الذين استلبوا النفوذ في بلاد المشرق من دولة بني العباس ، وصار الحكم فيه لمن غلب .

ولقد أصاب بعضهم الترف والطغيان ، حتى أنه جعل له سريراً من ذهب كان يجلس عليه وسريراً من فضة كان يجلس عليه أكابر قواده .

واتخذ شارة الملك الفارسي وما يماثله ، فكان إذا جلس على سريره الذهبي يقف الجند صفاً ، صفاً بعيدين عنه رهبة أو ليصوروه للناس مرهوبا .

لا يصل اليه أحد إلا الحجاب الذين جعلهم رتباً ، رتبة فوق رتبة ، واتخذ لحمل الناس على طاعته السبيل الذي يتخذه كل جبار طاغية ، وهو مكون من أمرين أحدهما الخوف الشديد ، وبذلك لا يفكر أحد في مقاومته أو مجابهته أو لومه أو نقده ، أو أن يقول له اتق ، وكان لسان حاله يقول « من قال لي اتق الله قطعت عنقه » .

والعنصر الثاني : البذل والعطاء ، وإن كان من مال الدولة ، وكان بذله لمن يعاونه في سلطانه ويقدمون له مظاهر الطاعة العمياء .

وهذا الحاكم الطاغية اسمه مرداويج من الديلم ، وقد غلب على حكام كانوا على شاكلته ، وسلكوا مثل طريقه ، وأخذ منهم السلطان بحد السيف ، وما كان منه كان صورة للمغالبات في داخل الدولة الاسلامية الكبرى التي فرقت وحدة المسلمين ، وقسمتهم فرقاً ، ودولاً ، أو جزيئات من دول .

انضم إلى نصرة هذا الطاغية أولاد بني بويه وهم علي والحسن وأحمد ، والطامعون دائماً يلجؤون إلى الركن الشديد ، ذي الغلب والقوة ويقول في شأنهم أستاذنا الخضري .

«ولما استقر قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم .. وهم علي والحسن وأحمد أولاد بويه .. وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التي امتلكت ناصية بلاد العراق ، وما يحيط بها من البلاد الاسلامية وهي التي تكون الدور الثاني من أدوار الخلافة العباسية » .

والادوار التي يشير اليها المؤرخ العظيم ، دور قوة الخلفاء وهو العصر العباسي الاول ، عصر الازدهار ، والدور الثاني بقاء الخلافة اسماً ، وتحكم موالي العباسيين من الفارسيين ، والاتراك ، مع بقاء نوع من النفوذ والسلطان ويظهر ذلك في العزل والتولية أحياناً ، أما الدور الثالث وهو الاخير ، فهو الذي أخذ الحكم والسلطان فيه بنو بويه ولم يبقوا للخليفة فيه شيئاً .

وبنو بويه ، قبل أن يؤول اليهم السلطان ، لم يكن لهم نسب معروف ولكن بعد أن آل كتب لهم تاريخ ونسب ينتهي إلى بهرام جور الملك ، ولكن أبا الريحان البيروني يرجح أن هذا النسب جاء به سلطانهم بعد أن صار لهم سلطان وقوة ، والذي درنه هو أبو اسحاق بن هلال الصابي ، وقد أثر عنه ان بعض الأدباء دخل على ابراهيم الصابي ، وقد اعتكف لكتابة تاريخ تلك الدولة فسأله ماذا تكتب فقال له «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها».

استطاع علي بن بويه أكبرهم أن يصل إلى قلب الطاغية مرداويج حتى عينه والياً على الكرج ، وكتب له بذلك العهود والمواثيق . وقد استطاع علي أن يعمل لنفسه ، لا لمن ولاه الذي أوجس منه خيفة ، بعد أن فصل عنه ، وأحس بذلك علي بن مرداويج ، فتألب عليه ، وانتهى الأمر بينهما بموت مرداويج قتله جنوده من الترك اذ كان فظاً غليظاً ، وكان يؤثر قومه من الديلم على الترك فثاروا عليه .

وانتهى أمر كل المنافسين لعلي بن بويه، فكان في يده ما كان تحت سلطان

مرداويج من الأرض ، وسير أخاه الحسن إلى بلاد الجبل ، ومعه جند قوي .

وعين أخاه أحمد وسيره إلى الاهواز ، فاستولى عليه ، ثم سار إلى واسط واستطاع الاتصال بقواد بغداد فدعوه اليها .

فدخلها دخول الظافر القوي في ١١ من جمادى الاولى سنة ٣٣٤ ، والخليفة هو المكتفي ، فبايع أحمد على أن ينادى بالمكتفي على أنه الخليفة وينادى بأحمد بن بويه على أنه السلطان .

وإن الخليفة لم يكتف بما خلعه على أحمد من لقب السلطان ، بل شرف كل بني بويه بالألقاب الفخمة ، فلقب علياً أخاهم الأكبر بلقب عماد الدولة وهو صاحب بلاد فارس ، ولقب الحسن صاحب الري والجبل بلقب ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العراق بلقب معز الدولة .

ويقول استاذنا الخضري « وهذا هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم ، وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً ، لا أمر له ولا وزير ، وانما له كاتب يدير اقطاعاته ، واخراجاته ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء »[1] .

تمزقت الدولة العباسية ذلك التمزق ، وزالت الخلافة حقيقة ، وإن بقيت حكماً على حد تعبير الفقهاء .

ولم يكن للمسلمين جامعة سياسية أو دينية تجمعهم ، بل تفرقت وحدتهم ، ولم يعودوا في الوجود شيئاً قائماً بذاته ؛ ومن الحق علينا أن نترك الكلمة لأستاذنا شيخ مؤرخي الاسلام في هذا العصر الخضري اذ يقول رضي الله عنه : « كان السلطان في ذلك الوقت ببلاد الاندلس لبني أمية ، والقائم بالأمر منهم عبدالرحمن الناصر ، وقد لقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما وصلت اليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد .

---

(١) الكتاب المذكور بهامش ص ٢٠٠ - ص ٣٧٨ .

وبلاد افريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على انقاض الأغلبية ، والادارسة والقائم بالأمر منهم اسماعيل بن منصور ، وهو ثاني خلفائهم ، وكان يلقب بأمير المؤمنين .

وبمصر والشام الاخشيديون وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسي . وبحلب والثغور سيف الدولة علي بن عبدالله بن حمدان الشيباني ويخطب باسم الخليفة العباسي » ثم يحصي رضي الله تبارك وتعالى عنه الأقسام التي كانت في القرن الرابع الهجري ، وبذلك تجزأت الوحدة وتقطعت اسبابها ثم يختم قوله بقوله :

هذه هي القوى الكبرى التي كانت لأسر ملوكية في الرقعة الاسلامية ، فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقاً غريباً بعد أن كان متماسكاً الأعصر كلها ، حاضرة كبرى تجمع شتاته ، ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شيء من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة الحمداني فانهما من عنصر عربي ، ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد للقواد الاتراك ولم يكن لهما استقلال سياسي ، بل كان امر بني بويه فوقهما ، وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي [1] .

آل سلجوق

١١١ - نذكر آل سلجوق بكلمة لأنهم ورثوا بني بويه ، وقاموا من بعدهم ، ولأن استيلاءهم على بغداد يصور كيف كان الخليفة لا حول له ولا قوة إذ أنه عندما استحكم الفساد دعاهم لانقاذ البلاد ، وان الخليفة صار لا يستطيع المحافظة على نفسه ، حتى انه كان يودع عند بعض الحكام كوديعة يحافظ عليها ، ولأن آل سلجوق عاصروا الحركات الصليبية ، وقاوموا فيها ، حتى أخذ الراية منهم صلاح الدين يوسف الايوبي .

---

(١) تاريخ الامم الاسلامية الدولة العباسية المرحوم الخضري ص ٣٨٠

وآل سلجوق من تركستان كانوا تحت حكم ملك الترك بها، وقد أوجسوا منه خيفة فهاجروا إلى أرض الاسلام ، ولم يكونوا قد دخلوا في الاسلام ، فدخلوا فيه وخرجوا من عقائدهم الجاهلية إلى العقيدة الاسلامية .

وقد ربطوا حبالهم ببعض ملوك السامانية ، إذ أن أولئـــك اختلفوا ، فاستعان بعضهم بسلجوق رأس الاسرة ، فأعانه وأخذ أولاد سلجوق يعملون في البلاد الإسلامية متعرضين للخطر دائماً يعاونون من يستعين بهم .

وتفرقوا في البلاد يحكمون ويتسلطون ، وكان أظهر أحفاد سلجوق طغرلبك وقد تم له الاستيلاء على أرض إسلامية كبيرة ، وهي خوارزم ، وخراسان ، وبلاد الري ووصلت مقدمات جنوده الى البلاد العراقية .

وفي هذا الوقت كانت الأحوال قد ساءت في بغداد ، لأن آل بويـــه قد تفرقت كلمتهم ، وزالت من القلوب هيبتهم فلم يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارىء ، ولا من لصوصها ، فأعدوا البلاد لقبول ما يغير من هذه الحال [1] وانه في هذه الاثناء جاء بعض من يناصر الفاطميين بمصر والشام ، والذين تاخم سلطانهم العراق ، وحاول هذا أن يدعو للفاطمـــي المتولي أمر مصر بالخلافة على منابر بغداد .

علم الخليفة العباسي بذلك،فكتب الى السلطان طغرلبك السلجوقي مستغيثاً وقد كانت هذه أمنيته ، وكاتبه من بغداد من الأفراد والرؤساء يبذلون له الطاعة وأن يخطبوا له على المنابر .

جاء طغرلبك الى بغداد وأظهر للخليفة الطاعة وتقدم الخليفة فأمر الخطباء بأن يخطبوا في جوامع بغداد لطغرلبك فخطبوا ، وكان ذلك يوم الجمعة ٢٢ من المحرم سنة ٤٤٨ ، واذ صار له السلطان قبض على آخر سلاطين بني بويه

---

(١) الكتاب المذكور ص ٤١٧ .

وبذلك انتهت دولتهم ، وحل محلهم السلاجقة .

وقد قامت فتن وحروب اشترك فيها ضد طغرلبك ، بعض بني عمومته ، وكانت الحروب بالموصل والجزيرة واشترك ضد طغرلبك بعض العرب،ولكنه تغلب على كل مناوئيه ، ورضي بذلك الخليفة الذي ليس له من الامر شيء . وقد خلع عليه الخلع والشارات .

واستمر الأمر في نزاع بين السلاجقة وبعض العرب، وبين السلاجقةبعضهم مع بعض أحياناً ، والخليفة لا أمر له ، حتى انه في اثناء المعركة بين بعض العرب والسلاجقة ، دخل المناوئون لطغرلبك بغداد، ودعوا لخليفة الفاطميين والخليفة العباسي قد خرج من قصره على أن يكون في ذمـــام رئيس القوة العربية قريش بن بدران العقيلي ولقد قال استاذنا المرحوم الخضري في ذلك واستذم منه (أي من قريش بن بدران) بذمام الله تعالى وذمام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذمام العرب ، فأعطاه ذلك ، ونزع قريش قلنسوته فأعطاها الخليفة ثم حمله الى معسكره وعليه السواد والبردة ، وبيده السيف ، وعلى رأسه اللواء ، وأنزله في خيمة .

هذه حال الدولة الى أول القرن السادس الهجري ، وقد مزقتها الاهواء وحكمتها العصابات المتغلبة فكل ملك يريد أن يحكم البلاد ينازل الآخر ، والخليفة قد ضاقت يده ، حتى صار لا يملك إلا عقاره ونشبه ، ولا يهمه إلا أن تبقى لهتلكالدعة ، وصار ينطبق عليه قول الحطيئة في الزبرقانبن بدر .

دع المكارم لا ترحـــل لبغيتها واقعد فانك أنتالطاعم الكاسي

اكتفى الخليفة بأن يكون آمناً في سربه عند متعته ، وتحقيق رغبته وهان أمره حتى اذا كانت حرب حوله ، لم يكن له فيها ناقة ولا جمـــل ، وكانوا ينقلونه الى خيمة الحرب ، كما تنقل النساء والذراري .

هذا أمر الخلافة الكبرى التي كانت للمسلمين ، فلم يكن غريباً أن يمزقوا

كل ممزق وان يكون الخليفة نهب المقتسمين ، وهدف المغتصبين ، وأن يتحقق فيهم ما قاله النبي ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم تداعي الأكلة على قصعتها قالوا ومن قلة نحن يا رسول الله ، قال : بل أنتم اليوم كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم ، وليذيقنكم الوهن ، قالوا وما الوهن يا رسول قال حب الدنيا وكراهية الموت » .

غارة الصليبيين :

١١٢ — انتهى القرن الخامس ، والمسلمون في المشرق على ذلك التدابر والتنازع ، ولا جامع يجمعهم ، ولا رابط يربطهم ، وقانون الغاب هو الذي يحكمهم ، ولا يستقر الأمر لغالب حتى يبادر إلى الانتقام ممن غلبهم ، والمغلوب يتحين الفرصة للانقضاض وهكذا استمرت الحال على ذلك والشعب مأكول من الغالب والمغلوب على سواء ، ومصالح الأمة ضائعة في كل حال ، كانت هذه الحال مغرية للصليبيين لأن يقبضوا قبضة من ذلك النهب الضائع ، ورسلهم تجيء إلى المسلمين وتعرف حالهم في خفي أمرهم مع ظاهره ولم يكن فيه خفاء يحتاج إلى تعرف .

أخذ بطرس الراهب يحرض ملوك أوربا على الشرق ، ويدعوهم إلى الأرض المقدسة ، يدعوهم مرة باسم المسيحية ومولد المسيح ، وأرض نشأته ، وبها نشأته ، وبها كنائسه ومرة باسم المادة ، لأنها تفيض لبنا وعسلاً ، وتقدم هو بجمع ، وإن لم يكن منظماً ، ففتح الطريق للجيوش المنظمة .

فاندفعت تلك الجيوش ، واستولت على الأرض المقدسة وعاثوا فيها فساداً وقتلاً ذريعاً ، ويجب أن نذكر هنا الفضل لرجلين عظيمي الشأن في الإسلام.

أحدهما — محمود نور الدين زنكي السلجوقي ، فانه جمع الصفوف من جيش المسلمين المنهزم ، وأخذ يقاوم الصليبيين ، وينازعهم الأرض شبراً شبراً فعاق تقدمهم ، ومنعهم من أن يتغلغلوا في البلاد الإسلامية وفي أول الأمر ظنوا الطريق مفتوحاً .

ولكنه لم يقف عند ذلك ، بل أراد أن يسترد منهم بيت المقدس والارض المقدسة التي دنسوها وهي التي بارك الله فيها .

والرجل الثاني – هو يوسف صلاح الدين الأيوبي الذي كان قائداً من قواد نورالدين ، ثم حمل العبء كاملاً من بعده ، وقد عمل عملين : أولهما أنه قضى على الدولة الفاطمية في مصر لأنه رآها عامل تَخْذيل لا عامل تأييد ولأن فريقاً من الفاطميين كانوا على الجيش الإسلامي ، وكانوا يتصلون بالفرنجة الغزاة من وراء ، ولعلهم كانوا على صلة بالفاطميين .

العمل الثاني – أنه جمع الجموع من البلاد الاسلامية وأكثرها من البلاد العربية . وأخرج الصليبيين من الأرض المقدسة ، وطهرها من رجسهم ، وظلمهم الذي كان يَشْمَل النصارى من سكان البلاد الاسلامية ولا يقتصر على المسلمين .

وقد استمرت من بعد ذلك الحروب الصليبية ، ولكنها كانت غارات تتابع ولم يكن فيها انتصار لهم حتى كانت مدينة المنصورة مقبرتهم الأخيرة في عهد دولة المماليك .

التتر :

١١٣ – وما ان خفت ويلات الصليبيين ، وأخرجوا من الأرض المقدسة وصارت الحرب من بعد ذلك سجالاً ، لا يغلبون ولا يسيطرون ، وإن لم يقهروا ، وتتوالى منهم الغارات ،ولكن يتلقاها المسلمون بالصبر ، وقد أبلوا في ذلك بلاء حسناً .

وما ان كان ذلك ، حتى فوجىء المشرق بمن هم أدهى وأمر ، وهم المغول أو التتر ، فقد انقضوا انقضاضاً على الممالك الإسلامية المجزأة فحطموها.

ولقد اختلف الرواة في سببها فقيل إن بعض المغالبين لخوارزم شاه أحد ملوك المسلمين حرضهم عليه ، لشغله بهم وأخذه على غرّة وهو مشغول بهم ،

وكان غريباً أن يعين قوماً غير مسلمين على ملك مسلم ، ولكنه الطمع الذي يعمي ويصم ، وضعف الخلق والدين والرجولة تجتمع فيكون منها ذلك .

وقيل إن السبب أن جنكيز ملك التتر الوثني عقد مع خوارزم شاه اتفاقاً تجارياً ، ارسل بمقتضاه رسلاً اربعمائة ومعهم المتاجر فقتل اتباع خوارزم شاه التجار وأخذوا ما معهم ، فأرسل من يذكره بعهده فقتله .

ولعل ذلك كان السبب ظاهراً ، ولكن الطمع في البلاد الإسلامية التي كانت بلاد الخصب والنماء والثروة هو الباعث الأول أو الثاني ولكنه كان باعثاً على كل حال .

انسابت الجيوش التترية المغولية في الأرض الإسلامية ، حتى جاءت إلى بغداد ، وساروا في طريقهم حتى وصلوا إلى دمشق ، وكانوا من بعد بغداد قد دخلوا في الإسلام ، ولم يمنعهم من الفساد والاسترسال ، حتى لقيهم قطز ومن بعده الظاهر بيبرس البندقدار .

وإن الذي يهمنا في هذا المقام هو ما فعلوه في الشرق عامة وفي بغداد خاصة ، وفي المسمى خليفة المسلمين بشكل اخص ولنترك الكلمة في هذا لابن الأثير في كتابه الكامل قال :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً ، كارهاً لذكرها ، وهأنذا أقدم رجلاواؤخر اخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذلك ، فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، إلا اني حثني جماعة من الاصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي نفعاً . . فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل : ان العالم منذ خلق الله تعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لا تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل

هذه الحادثة ، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج،هؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال والحوامل ، وقتلوا الأجنة وإنا لله وانا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها ، وعم ضررها ، وسارت في البـــلاد كالرياح استدبرتها الريح « ان قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر فملكوها ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان ، فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً ، ثم يتجاوزونها الى الري وهمذان إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد أذربيجان ، ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج منهم الا الشريد النادر — في أقل من سنة ،هذا ما لم يسمع بمثله . ثم قصدوا بلاد قفجاق ، وهم من أكثر الترك عدداً ، فقتلوا كل من وقف لهم ، فهرب الباقون الى الغياض ورؤوس الجبال ، وفارقوا بلادهم ، واستولى هؤلاء التتر عليها ، فعلوا هذا في أسرع زمان ، ولم يلبثوا الا بمقدار مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها . من بلاد الهند ، وسجستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد ، هذا مما لم يطرق الاسماع فان الاسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة ، انما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحداً ، انما رضي من الناس بالطاعة ، وهؤلاء ملكوا أكثر المعمورة من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض سيرة — في نحو سنة ، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها ، الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه ، ثم انهم لا يحتاجون الى مـــدد يأتيهم ، فانهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير ، وأمـــا دوابهم التي يركبونها ، فانها تحفر الأرض بحوافرها ، وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير ، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون الى شيء من خارج .

وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئـــاً ، يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحاً

بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فاذا جاء الولد لا يعرف أبوه .

هذا وصف هؤلاء التتر الذين دخلوا الديار الاسلامية وأتموا تمزيقها بعد أن مزقها أهلها .

دخولهم بغداد :

١١٤—واننا لا نكتفي بهذا الوصف العام ، بل لا بد أن نشير إلى ماكان ببغداد.كيف تم الاستيلاء عليها فانه ينطبق عليهابعض القول ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي الكافرين ذلك أن وزير الخليفة إبان ذاك كان مؤيد الدين بن العلقمي ، وكان شيعياً متشدداً ، ذلك أن السلاجقة والبويهيين من قبلهم كان فيهم تشيع ، وكانوا يحمون الشيعة ، كما كانوا يحمون ذات الخليفة العباسي ، واذا كانت سياستهم قد منعتهم من أن يعينوا خليفة شيعياً فانها لم تمنعهم من أن يعينوا وزيراً شيعياً .

لقد كانت الفتنة قائمة على أشدها بين أهل السنة والشيعة ، والتتر يساورون بغداد ، ونال السنيون من الشيعة ، وتغلبوا عليهم ، فأحْنَق ذلك ابن العلقمي .

وبغداد في هذا الوقت ، كانت مبتلاة من داخلها ، كما هي في بلاء من خارجها ، ففي الخارج كان التتر ، وهم وحدهم يزيلون كل حضارة أو فيهم الكفاية الكاملة لذلك ، ولقد مالأهم من داخل بغداد اليهود والنصارى الذين نقموا على الإسلام إذ آواهم وحماهم وكفل لهم الحرية الدينية من غير اضطهاد أو أذى .

وكان فيها ابن العلقمي الناقم على السنيين وخليفتهم ، ولو كان خليفة بالاسم لا بالحقيقة فدفعه حقده وحب الانتقام أن يختارممالأة التتر عبدةالشمس على اخوانه المسلمين عبدة الواحد القهار ، لقد عمل على اضعاف المسلمين عن المقاومة .

كان في بغداد مائة ألف جندي معهم السلاح والعدة والعتاد ، وكان فيها الامراء الأكابر الذين كان فيهم حمية الأسود الكواسر ، فأخذ في تقليل العدد حتى نزل إلى عشرة آلاف ، ثم أطمع التتر وكشف لهم الحال وضعف الرجال.

ولم يكتف بذلك الذي قدمه ، بل انه عندما أقبلوا كالوحوش الضارية حسّن للخليفة مصالحتهم على أن يترك لهم نصف خراج العراق ويكون للخليفة النصف ، فرضي ، وذهب الخليفة ليفاوض ، فاعاده هولاكو قائدهم مذموما مدحوراً ، إذ أشار الوزير العلقمي على هولاكو الا يقبل المصالحة لأن الخليفة ينقضها بعد سنة، وأشار عليه بأن يقتله فقتله وأيد العلقمي في قوله هذا نصير الطوسي الذي كان في صحبته ، ليكون كاشفاً لحال البلاد الإسلامية التي يفتحها .

قتل الخليفة باشارة وزيره ابن العلقمي وانساب التتر يقتلون ويخربون، ولم ينج من أهل بغداد إلا اليهود ، والنصارى، ومن لجأ إلى العلقمي [1] فهؤلاء وحدهم كان لهم الأمان .

هذه صورة لذلك العصر ، وكيف كان المسلمون والبلاء بلاء ، وكان ما يفعله التتر ابادة لا تبقي ولا تذر ، ولا تفرق بين مذهب ومذهب ، إذ نهبت محلة الرافضة أهل مذهب ابن العلقمي ، ونهبت دور ناس لهم قرابات بابن العلقمي ، فأثار ذلك حنقه وهاجه ، ولعله ندم على أنه دبر ما دبر مما كانت عاقبته وخيمة على الإسلام وأهله ولات ساعة مندم وانه مع هذه الثورة البشعة المؤلمة صورة أخرى أشد شناعة وأشد اقتتاماً وهي تبين كيف كان أثر التعصب الطائفي إذ فرق المسلمين أولاً، وقدمهم لقمة سائغة للعدو أخيراً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) تاريخ البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٣ ص ١

الخلافة من بعد بغداد :

١١٥ – دخل التتار حلب بعد بغداد ، وذهبوا إلى دمشق ، فاستولوا عليها سنة ٦٥٨ من الهجرة ودخلوها ، ولكنهم لم يمكثوا بها أمداً طويلاً ، فقد جاءت الجيوش المصرية في آخر رمضان من السنة نفسها بقيادة ملكها المظفر قطز ، فقد بلغه أنهم قاصدوه ، فبادرهم قبل أن يبادروه ، وتغداهم قبل أن يتعشوه فالتقى الجيش المصري في عين جالوت بالجيش التتري فانهزم التتر لأول مرة وتبعتهم الجيوش المصرية تذيقهم بعض مـــا أذاقوه الآمنين ، فقتلوهم وشردوهم ، حتى انذعروا في البلاد فارين .

ولم يكتف المصريون باجلائهم عن دمشق بل أجلوهم بقيادة الظافر بيبرس من بعد قطز عن البلاد العربية كلها وثغورها ، وبذلك تكسرت تلك الصخرة التي جاءت من الصين هاوية على رؤوس الناس عامة والمسلمين خاصة وهنا يجب أن نذكر أن الاسلام وصل الى قلوب هؤلاء التتر ، وذاقوا بشاشته بعد فترة من الزمان .

لهذه المكانة التي نالتها مصر بانتصارها على التتر لأول مرة ، اتجه التفكير إلى أن تكون دار الخلافة بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد .

أراد الظاهر أن يعيد الخلافة الاسلامية وأن يجعل موطنها القاهرة ، وقد شغر منصب الخليفة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦ هـ إلى سنة ٦٥٩ هـ ، حيث بويع المستنصر العباسي خليفة ليسير في سياسة بني العباس .

وان اقامة خليفة مهما يكن ضعفه فيها رمز للوحدة ، وعسى أن يكون الرمز حقيقة .

وكان المظنون أن تعود الخلافة اسماً لا معنى له ، وشكلاً لا حقيقة له ، ولكن المستنصر أرادها قوة موجهة ، وأن يعيد للاسلام معناه ، وللشكل حقيقته .

وقد استفاد الظاهر من وجود الخليفة عنده ، وهو صاحب السلطان الشرعي في نظر الأكثرين والجمهور الأعظم ، وقد جعل المستنصر للظاهر سلطان المسلمين عامة لا سلطان مصر وحدها .

تقدم الخليفة ليثبت سلطانه وسلطان من عيّنه بقوّة السيف ، فقتل ساعياً ، بدل أن يقتل ضعيفاً مستخذيا .

بايع من بعده الظاهر أخاه الحاكم في الثاني من المحرم سنة ٦٦١ هـ .

وفي اليوم التالي لتوليه ارتقى المنبر يوم الجمعة ، وخطب داعياً إلى الوحدة والجهاد ، وجاء في خطبته ما يدل على أمله ، ورغبته في الوحدة الإسلامية ، فقد جاء فيها :

« إعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سيبت الحرم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب الجرائم ، فلو جاهدتم أعداء الإسلام ، لما دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال ، وسبوا النساء والبنات ، وأيتموهم من الآباء والأمهات ، وهتكوا حرم الخليفة والحريم ، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم العظيم ، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه ، فشمّروا عباد الله عن ساق الجد في إحياء فرض الجهاد ، واتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين ، وهذا السلطان الملك الظاهر هو السيد الأجل الكامل العادل المجاهد المؤيد ، ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، وأصبحت الخلافة بهمته منتظمة العقود ،والدولة العباسية متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله تعالى إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، ولا يزعجكم ما

جرى ، فالحرب سجال ، والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان ، والأجر للمتقين، جمع الله تعالى على الهـــدى أمركم ، وأعز بالإسلام نصركم ، وأستغفر الله لي وللمسلمين ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم »[1] ..

ونرى في هذه الخطبة دعوة إلى الجهاد في ظل الظاهر بيبرس ، وقــد اشتملت من الثناء عليه ما اشتملت ، وفيها دعوة إلى جمع الكلمة .

ولكن هل عادت الخلافة العباسية كما ابتدأت ، إن عيشها في ظل سلطان لا يجري فيها دماء الحياة ، ولا يحيي مواتها ، لأنها تكون طائعة له

ولذلك استمرت تتبادلها أيدي السلاطين من المماليك حتى جاء آل عثمان واقتطعوها وادعوها لأنفسهم فكانوا يلقبون بأمراء المؤمنين،والدول الإسلامية تنتقص جزءاً جزءاً وما ينتقص يكون تحت حكم غير المسلمين .

الاندلس والمغرب :

١١٦ – كانت مصر بعد أن فتحها الله تعالى على المسلمين في عهد أمـــير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه المكان الذي كانت تنبعث منه جيوش الفتح الإسلامي إلى شمال إفريقيا، وعبرت البحر إلى الاندلس،وانسابت فيها الجيوش الاسلامية حتى وصلت إلى جنوب فرنسا ، واحتلته أكثر من عشرين عاماً ، ولذلك نرى في سكان جنوب فرنسا ما يدل على أنهم من بقايا اولئك الغزاة .

وانه مع اتساع ذلك الفتح ترك الفاتحون الجبـــال في شمال الاندلس إلى الغرب فاتخذت مثابة اوى اليها المنهزمون من الوندال ورجال الكنيسة وامراء البلاد الذين نجوا من حد السيف ، وما كان العرب ليهتموا بسكان هذه الجبال لأنهم كانوا اقوياء مسيطرين ، وإن كان هؤلاء يكونون داء يخشى أن ينفجر وقتاً ما ، فإن قوة الجسم تهزمه لا محالة .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء الثالث عشر ص ٢٣٨ .

ولكن حكام الاندلس من بعد عبد الرحمن الناصر ، كان فيهم ضعف ، فمنهم من انغمر في الشهوات يجترع منها اجتراعاً ، ومن لم ينغمس في حرام أترفه النعيم ، واسترخى بالعيش الفاكه ، وذهب البأس العربي ، وزاد الطين بلة الفتن التي توالت .

ولما تولى بعض الخلفاء بولاية العهد في سن العاشرة استولى على الحكم الوزير أبو منصور العامري ، وفيه بأس وقوة ، ولم يسترح في حياته بنعيم ، وكان سكان الجبال ابتدأوا يقتطعون أجزاء من أرض المسلمين ، فردهم على أعقابهم خاسرين .

ولكن من بعده اضطربت الامور ، فالامويون اختلفوا فيما بينهم ، ثم كان انحلال الحكم الاموي ، ومجيء ملوك الطوائف ، وصار كل اقليم له حاكمه ، فتفرق المسلمون في الاندلس ، والعدو يترصدهم وينقص الارض عليهم من أطرافها

ولكن المرابطين بالمغرب جاؤوا بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين ، وأزال الحكم المتفرق ، وقاوم الفرنجة ، ولكن يجيء من بعد ذلك الموحدون ويخرجون المرابطين .

وهكذا أصبحت الأندلس عرضة للتفرق والانقسام ، وغارات المسلمين من المغرب ، وغارات الفرنجة من الشمال يقتطعون من تحت أيديهم الارض مدينة مدينة .

وفي هذه الاثناء كان عماد الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، يردون جحافل الصليبيين عند بيت المقدس ، حتى ينتزعوه منهم ، وتتبعوهم حتى أجلوهم ، أو أضعفوهم فجاءت فلول منهم وانضموا الى المغيرين على المسلمين في الأندلس .

فكانت حربهم صليبية ، تتعاون على المسلمين ، والمسلمون متفرقون ليس

لهم غرض مقصود ، ولا جامعة تجمعهم ، بـــل تفرقوا أيدي سبأ ، فرقهم الهوى ابتداء ثم مزقهم الضعف انتهاء ، لأنه لا وحدة توحّد لهم الغاية والمقصد وأعداؤهم قد توحدت غايتهم .

لقد أرسل المسلمون بالأندلس يستغيثون بمن يظنون فيهم قدرة على النجدة فلم يجدوا إلا المماليك في مصر ، مع بعد الشقة ، وعظم المشقة في الاغاثة فأرسل حكام المماليك الى الترك العثمانيين الذين يمثلون القوة الاسلامية الكبرى ، أرسلوا اليهم يستحثونهم على معاونة إخوانهم المسلمين لينقذوهم وهم يعذبون وتفتش وتفتت محاكم التفتيش قلوبهم .

ومن الغريب أن المسلمين كان يحدث لهم ذلك كله ، وجيوش سليمان القانوني تدك أسوار فينا دكا ، وما كان كل ذلك إلا لأن الوحدة الإسلامية تفرقت بعد اجتماع ، وصار حب الغلب هو المسيطر ، وليس الرغبـــة في إعزاز الإسلام والمسلمين ، والرغبة في إعلاء كلمة الدين ، ونسي الجميع قـــول النبي ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يسلمه ولا يخذله ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » ، فاستنصر المسلم في الكريهة والشديدة فلم ينصروه لأنه لا وحدة للمسلمين .

موت اللغة العربية :

١١٧ – لا نقصد بموت اللغة العربية ضياعها ، ولكن نقصد بذلك أن اللغات الأعجمية من الفارسية والتركية والرومية وغيرها من اللغات التي كانت قد طوتها اللغة العربية في ظلها ابان علو شأن المسلمين ، والإسلام ، واعتبار القرآن الجامع بينهم ، ولو تنزلنـــا وقلنا كما يجمع الصليب النصارى ، والتلمود اليهود ، لكان كلامنا موضع ظن في القول ، ولكن نعوذ بالله من هذا التشبيه الذي يخطر بالبال ، فالقرآن أعلى لأنه حق وغيره باطـــل ، ولا يشبه الحق بالباطل .

لقد كانت اللغة العربية هي الجامعة بين الشعوب الإسلامية تجمعهم ديناً ، لأنها وعاء الإسلام ، إذ هي لغة النبي ﷺ ، وبها نزل القرآن . ومن الفروض أن يعرف المسلم من اللغة العربية قدراً يصحح به دينه .

وهي لغة التفاهم بين المسلمين ، وبها يتعارفون ، ويتلاقون ، ويجتمعون ، وقد كان لعلماء الفرس وغيرهم المقام في العلوم الإسلامية الـــتي دونوها باللغة العربية .

ولما تفرق الحكم الإسلامي ، واضطرب بسيطرة أهواء الملوك والحاكمين وسيطرة قانون الغلب بدل قانون الإسلام ، لما صارت الأمور كذلك ، كانت اللغة العربية جامعة ، وكان المسلم يسير بين المسلمين ، لا يجد فيهم مجاهل لأنه يعرف خطابهم ، وتجمعه بهم لغة القرآن

ولماذا ضعفت اللغة ضعفاً يصح أن يعبر عنه بالموت ، وإن كان الموت لا يمكن تحققه ؟ لانها لغة القرآن ، وما بقي القرآن ، فهي باقية ، وانها إذا اعتراها عارض الفناء جددها القرآن وأعادها ، ان لم يكن كما ابتدأت فإن المحاولة تجـددها ، وتمدها بعناصر العلم .

ونجيب عن هذا السؤال الحائر ، وهو لماذا ضعفت العربية أو أوشكت أن تموت .

ونقول في الجواب انه سنة الوجود تجعل اللغة كائناً حياً ككل الاحياء وحياة الحي تتبع المكان والبيئة التي يعيش فيها ، فإن كانت تمده بالغـذاء القوي قوي ، وأن ضعفت ضعف ، فكان ضعف العرب في وسط ذلك الخضم الذي كان في العصر العباسي ، وما حوله مؤدياً إلى ضعف اللغة ، والناس انما يحاولون تقليد الأقوياء في لغتهم ، فينطقون كما ينطق القوي ، فإن كان فصيح اللسان قلدوه ، وإن كان ملتوي البيـــان حاكوه ، وإنا لنرى ذلك يجري بين أيدينا ، فلما ضعف العرب ضعفت معهم لغتهم ، ولولا القرآن لماتت ولكنه باق فبقيت ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ .

وضعف العربية كان له مظهران ، ولكل مظهر سبب قائم بذاته،أولهما: سيادة العامية وثانيهما : احياء اللغات القومية لغير العرب لنزعة الشعوبية .

العـــامية :

١١٨ – ابتدأ الذين يتكلمون العربية من كبار المتكلمين يلحنون ، فلا ينطقون بالفصحى سليمة من الخطأ في أواخر الكلمات أو بنيتها وقد لوحظ ذلك في العصر الاموي ، بل في آخر عصر الراشدين . حتى أن اللحن ترتب عليه أمران احدهما خير ، وهو ضبط العربية بعلم النحو الذي يكون مقياساً لضبط آخر الكلمات ،والصرف الذي يضبط بنيتها .

ولقد كان اللحن من الخطباء غير كثير في عهد الأمويين ، ولكنه أخذ يكثر ويزيد في عهد العباسيين ، حتى لقد روى ابو عمرو الشيباني قال :«تكلم ابو جعفر المنصور في مجلس فيه أعرابي فلحن فـَصَر [1] الأعرابي اذنيه فلحن مرة أخرى أعظم من الاولى فقال الاعرابي : أف لهـــذا ما هذا ، ثم تكلم المنصور ، فلحن الثالثة ، فقال الأعرابي : اشهد لقد وليت هـــذا الأمر بقضاء وقدر .

وعن الواقدي : صلى رجل من آل الزبير خلف المنصور ، وقرأ ألهاكم التكاثر ، فلحن في موضعين ، فلما سلم التفت الزبيري إلى من يجانبه ، وقال : « ما كان أهون هذا القرشي على أهله [2] » .

وأخذ اللحن يفشو ، حتى أخذ الناس يتحللون من الفصحى إلى العامية ، حتى لا يتعرضوا لتخطئة النحاة ، ومن لف لفهم ، كما نرى في الخطبة بالعامية في مواطن الفصحى ، وهبوط البيان العربي .

وان فشو العامية لهذا السبب ، ولدخول الأعاجم الذين كانت تلتوي

(١) معنى صرها صرفها للاستماع .

(٢) كتاب المرحوم الاستاذ نجاتي رحمه الله لطلبة دار العلوم .

ألسنتهم بالفصحى فلا تحسنها ، فلما كثر اختلاط العرب بالأعاجم ازداد فشو العامية وكانت البلاد العربية تدخلها العجمة ، ولكن بجوارها الفصحى أما فارس ، وخوارزم ، وخراسان وغيرها من بلاد الأعاجم فان العربية كانت العامية ، وبجوارها كانت لغتهم السائدة المسيطرة .

الشعوبية واحياء اللغات القديمة :

١١٩ - استيقظت الشعوبية قوية لجبة ، وهي التي تفضل الأعاجم على العرب ، وقويت في العصر العباسي الثاني الذي صار الحكم فيه لغير العرب وإن كانت بذورها قد وجدت في العصر الأموي ، ولكن لم تظهر نباتاً قد خرج نبته ثم أخرج شطأه إلا في العصر العباسي الأول ، ثم استوى على سوقه بعد ذلك في العصر العباسي الثاني في الدول التابعة للخلافة العباسية التي استبدت بالملك والسلطان ، فكان جزءاً من سياستها أن تضعف شأن العرب وأن تعلي العنصر الديلمي ، ثم العناصر الأخرى غير العرب ، وما كانت لسان الاكثرين منهم تطوع للعربية ، وتطوع لها لغتهم الأصلية .

وكانت اللغة العربية القريبة من الفصحى حيث لا تكون حضارة ، تسيرها العجمة . وكان البدو من العرب والقريبون منهم يتشددون في العربية ، وكانوا حريصين على ألا يساكنوا الأعاجم ، حتى لا يؤثروا في لغتهم بالعدوى

ويقول الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط في مادة عكد ان عكاد جبل باليمن قرب مدينة زبيد ، وأهله باقون على اللغة الفصيحة وقد زاد شارحه مرتضى الزبيدي ، ولا يقيم الغريب في بلادهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم ولسان البدو النازلين في الجنوب من شبه الجزيرة العربية لا يزال الى اليوم قريباً من الفصيح ، ويشبهه في بعض الوجوه[1] وإن ذلك التشدد في العربية في مقابل النزعة الشعوبية التي بدأت تدعو الى غير العربية حقداً وعجزاً ومهما يكن من الشعوبية فإن سيل العامية لم يوقف .

---

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ص ٣٩ للاستاذ المرحوم نجاتي .

ولما قبض آل بويه على الحكم طغى سيل العامية في العراق العربي، ونزحت العناصر العربية عنها ، هروبا من الطغيان الاعجمي ومن بقي في العراق اندمج في الاعاجم بالتزاوج وكل ذلك زاد العامية انتشاراً ، والفصحى افولاً .

أما في غير البلاد العربية فإن حظ العربية حتى العامية أخذ ينقص، وكلما انقبضت العربية ولو عامية انبسطت لغة الأقاليم وسيطرت ، واستيقظت من من سباتها وقامت من مرقدها .

وقد نمت تلك الحال سريعاً، فما ان امتد نفوذ بني بويه في الأقاليم الشرقية حتى نشطت اللغات الأخرى واستردت حياتها ، وطوردت اللغة العربية من بلاد سكنتها وازدهرت فيها حتى صارت بلادها

وها هو ذا المتنبي في القرن الرابع الهجري خرج قاصداً فارس ، فما كاد يغادر بغداد ويدخل أرض فارس حتى هاله الأمر، فلم يجد لسانا عربياً يخاطبه بل وجد لساناً أعجمياً ، وقد قال في وصف الحال عند شعب بوان .

مغاني الشعب طيباً في المغاني   بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيهـا   غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنـة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمـان [١]

ولم يكن للعربية الفصحى نصيب إلا في بعض المكاتبات والرسائل تكون بين بغداد ، وغيرها من البلدان وكان أولئك الملوك من الأعاجم يحرصون على تشجيع الكاتبين بالعربية في الأدب وإن لم يكن مترسلاً بل كان السجع يسوده ولذلك كان من بين هؤلاء الأعاجم من الأدباء من زخر بهم علم الأدب ، مثل مقامات الخوارزمي ومقامات بديع الزمان الهمذاني فكانت اللغة العربية وعاء الادب في الجملة .

ولكن بجوار ذلك وجد من كان يتعصب للفارسية في الأدب ، فشجع

(١) الكتاب المذكور .

الذين يسجلون أدبهم باللغة الفارسية ، ومن هـؤلاء ، أو من أولهم السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي الذي كان له نفوذ وسلطان، فقد شجع الفردوسي على أن يكتب الشاهنامة بالفارسية ، وعلى أوزان الشعر العربي .

وان الفرس من ايام بني بويه ومن شابهم أخذوا يهجرون العربية ليحيوا لغتهم ، ومنهم من جهل العربية جهلاً تاماً ، ومنهم من كان يعرف اللغتين ، ولكن خطابه ومعاملاته بلغته ، لأنها اللغة التي عادت إلى الشعب ، بعـد افتراق عنه ، وإن كان إلى خير منها ، وهي لغة القرآن .

وكانت اللغة التركية تجد لها حياة وقوة في وسط المعترك اللغوي بـين العربية والفارسية ، وصارت لسان الترك حتى إذا آلت الخلافة الاسمية إلى آل عثمان رفعوا التركية ، وفرضوها على كل الأقاليم الإسلامية الخاضعة ، ثم كان أن انسلخت من العربية حتى في الشكل والكتابة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

خلاصة ونتيجة :

١٢٠ — اننا الآن مفترقون ، بل بيننا تناحر وتنازع في بعض نواحينا . وان ذلك داء اعترانا بعد أن لم يكن ، وعارض عرض على أصل كياننا ، ورأينا مقدساتنا كيف تتهدم بأيدي أعداء الله واعداء الحق ، وأعـداء الاسلام ، ووجدنا من لحن اقوالهم ومراميهم أنهم يرومون البيت الحرام ، وروضة النبي ﷺ ، وقال قائلهم بعد أن استولوا على أيليا والمسجد الاقصى ، لقد صار الطريق إلى مكة والمدينة مفتوحاً وهم متفقون على باطلهم ، ونحن متفرقون متنازعون على حقنا .

داء لا بد من أن نعالجه ، ولكي نعالجه لا بد من معرفة الكيان الاصيل للوحدة الإسلامية الذي اعتراه الداء ، ولا بد أن نعرف كيف دخل الداء ، ولا بد أن نعرف حقيقته وذاته ، فليس الطبيب الماهر هو الذي يستطيع أن

يكتب الدواء إنما الطبيب النطاسي هو الذي يستطيع أن يكشف الداء ، وقوة البناء الجسمي ، وأصل تكوينه ، وابعاده ، وما أثر فيه في الماضي ، ومايؤثر فيه في الحاضر .

ولذلك اتجهنا إلى أصل تكوين الوحدة الاسلامية ، فذكرنا تكوين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكيف ألف الله تعالى قلوب المؤمنين ، وكيف حولهم من عداوة على شفا حفرة من النار ، إلى وحدة تجمعها المحبة ، وتقربهم من نعيم الجنة ، وعز الدنيا ، والغلب العادل ، والفتح المبين .

ثم ذكرنا كيف استمرت هذه الوحدة بعد أن انتقل الاسلام بالعرب فجعلهم يندمجون في غيرهم من الأمم ، وكيف صار شكل الوحدة في عهد الراشدين رضوان الله تعالى عنهم ، وكيف كانت المساواة تجمع ، والعدالة تقوي الوحدة ، وكيف كانت الأمة كلها عرباً وعجماً كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وكيف زالت الحجزات بين الأقاليم الاسلامية التي كانت تدين بالقرآن ، وحكم الله الذي كان الخلفاء من أصحاب رسول الله تعالى الأولين لا ينطقون إلا به ، ولا يصدرون إلا عن كتابه وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وخيرات البلاد الاسلامية يفيض بعضها على بعض ، لا يحتكر اقليم على اقليم ، ولا يضن قوم بفيض خيرهم على الآخرين ، والتعارف يربطهم ، والمساواة العادلة تجمعهم ، والتعاون على البر والتقوى قوتهم التي يدرعون بها أمام اعدائهم ، وبه يهاجمون الشر في مواضعه ، وتحقق فيهم قول الله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير ﴾ .

ومن تكوين الوحدة وقيامها علمنا كيف يمكن إعادتها ، وكيف يستطيع الحكيم المصلح أن يعيد الجمع المتفرق إلى وحدته والنفور المستحكم الى الائتلاف .

وقد صورنا كيف أخذ سوس الفرقة يتغلغل في الأمة الاسلامية ، وكيف

حلت الاقليمية محل الوحدة الاسلامية ، ولم تستطع أن تعيش معها ، والعدل يوجب أن يأتلفا ، لأن الوطنية يوجب الاسلام فيها ألا يعتدي الوطني على غيره ، فان ذلك هو العصبية المقيتة وقد روينا في ذلك قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ان العصبية أن يعين قومه على الظلم » وبينا أن عناية كل وطني بوطنه في ظل الاسلام ، والجمع الاسلامي يجعل من الأوطـــان القوية المتحدة قوة للجماعة الاسلامية ، اذا كانت الهيعة لنصرة الاسلام واستجابت كل الأوطان القوية .

ولقد ذكرنا التفرق وكيف دخل شيئاً فشيئاً إلى الجماعات الاسلامية ، حتى نسي الناس الاسلام الجامع ، ولم يذكروا الا الوطنية الجامحة المفرقة .

واننا بعد أن سرنا في تلك الرحلة الشاقة رحلة التفرق والانقسام فابتدأنا من وحدة جامعة في عهد الراشدين ثم سارت في الدانية في العصر الأموي ، ثم وجدنا اجزاء الجسم يتساقط بعضها عضواً عضواً ، حتى صارت أشلاء متفرقة وأخذت الذئاب تنوشها شلوا شلوا ، ثم أخذت تفترسها جميعاً ، حتى انتهى الأمر فلم نجد جمعاً متلاقياً ، بل وجدنا أجزاء تنوشها ذئاب الغرب بل الشرق أيضاً .

وما جاء القرن الرابع عشر الهجري الموافق له المتمم للعشرين الميلادي ، ولا يوجد اقليم اسلامي مستقل ، أو غير خاضع لنفوذ دولة أخرى غربية لا ترجو للاسلام وقاراً ، بل انها صليبية في ثوب جديد من الصليبية ، حتى ان ملك الانجليز عندما قابل المنتصر في فلسطين قال له لقد انتصرت في آخر حرب صليبية ، والقائد الفرنسي في الشام زار قبر صلاح الدين الأيوبي وقال : ها نحن أولاء قد عدنا يا صلاح الدين .

١٣١ — والآن نلخص اسباب التفرق ، بـــل التجزؤ والسير في طريق الفناء ، كما رأينا في سير التاريخ الذي سقناه فيما يلي :

- أولها — وهو أعظمها أثراً ،فساد الحكم عند الحكام، وصيرورته ملكية

تتغالب مع غيرها ، وتطبيق قانون الغابة على المسلمين بعضهم مع بعض ، فلم يفرق الحكام بين حكم نبوي يستمد اصوله من الاسلام ، وحكم الغلب والقهر.

وان فساد الحكم نجم من ثلاثة عناصر مخالفة كل المخالفة لأحكام القرآن ، وسنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

(أ) اهمال الشورى عند تعيين الحاكم ، وفي حكمه ، فان الله تعالى يقول « وأمرهم شورى بينهم » وان ذلك يقتضي ألا يختار الحاكم إلا بشورى المؤمنين وان تكون بعد الشورى حرية المبايعة وأن يوفي الحاكم بحق البيعة ويوفي المحكوم بحقها ، وحقها من الحاكم العدل وألا يهلك الحرث والنسل وأن يعمل ما فيه خير المسلمين ، وأن يستشير حتماً أهل الرأي والخبرة ، على حسب النظام الذي يناسب الزمان ، وحقها على المحكوم الطاعة في غير معصية الله تعالى أو كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المنشط والمكره الا أن يؤمر بمعصية ، ومن حق المبايعة النصيحة لأولي الأمر ان اشتطوا أو جاروا ، وذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله تعالى قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم » .

(ب) ومن عناصر الفساد جعل الحكم وراثياً – يتلقاه الخلف عن السلف، كأن الشعوب مادة تورث ، وأن الحكم حق ينتقل من مالك الى مالك ، وما نظر الاسلام إلى الشعوب هذه النظرة ، وقد وصف الرسول هذا النوع من الحكم بأنه ملك عضوض ، وانه ترتب على جعل الحكم وراثياً أن تولاه غلمان لا يدركون ، ويتلعب بهم .

وقد نتج من اهمال الشورى ، وصيرورة الحكم استبدادياً في إقامته ، وفي نظامه ، إهمال رأي الجماعة الإسلامية إهمالاً تاماً ، فانقطع الاتصال بين الحاكم والمحكوم ، وطغى الحاكم وذل المحكوم .

ومن فساد الحكم اهمال الأحكام الإسلامية ، فتشيع المحاباة ، وتباح الدماء

ويهمل القصاص . وتهمل الحدود التي أمر الله تعالى باقامتها ، وإقامتها فريضة محكمة لا مناص من اتباعها والقيام بحقها .

(ج) ومن فساد الحكم المغالبة التي كانت بين حكام الأقاليم ، بحيث ينظر حاكم كل اقليم إلى الآخر نظر المتربص الذي يريد الفتك بصاحبه ، فإن لم يسبقه سبقه ، والسابق والمسبوق في النار .

(د) وشر مظهر من مظاهر الفساد في الحكم الإسلامي أن يستعان بغير المسلم على المسلم ، كما استعان الفاطميون على الايوبيين بالصليبيين ، وكما استعان ابن العلقمي بالتتر على من سمي خليفة المسلمين ، وكما روي من أن أول من فتح أعين التتر على المؤمنين ، وال ناقم أو ملك غاشم .

ومن ذلك النوع ممالأة الحاكم المسلم مع غير المسلم ضد بعض المسلمين ، وقد كان ذلك في الماضي ، فكان الملك الأموي يمالىء الروم في القسطنطينية ، وهو على عداوة مع العباسيين ، فكان هؤلاء يذهبون إلى الاندلس ويهادونهم وأولئك يكرمون وفادتهم ، وكان العباسيون يمالئون شارلمان وغيره من الفرنجة الذين يساورون الاندلسيين ويحاولون أن يخرجوهم من ديارهم .

ومن هذا النوع سكوت الحاكم المسلم القوي عن معاونة من يستغيث من ضعفاء المسلمين ، كما فعل العثمانيون مع أهل الاندلس ، وهم يستغيثون ولا مغيث وتركهم سليم الأول وسليمان القانوني حتى شردوا ، ومزقوا كل ممزق ، وذهبت دولة الاندلس ، غصن الإسلام الرطيب .

الطائفية :

١٢٢ — والسبب الثاني من الاسباب التي فرقت المسلمين الطائفية ، وكانت الطائفية أول طريق اتجه بالمسلمين إلى الفرقة والانقسام ، ولكن المعول الأول رد على صاحبه ، وذلك لأن الجدار الإسلامي كان قوياً ، يحطم من يحاول أن يحطمه ، ولكن الأثر امتد لما بعده .

فالطائفية ظهرت في أسباب مقتل الشهيد ذي النورين عثمان رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وقد رأيت مما سقنا كيف ترتب عليها انه نادى بالأمر من ليس أهلا له متمسحا بدم عثمان رضي الله عنه ، وكيف انقلب بعد ذلك أمر الحكم الإسلامي من خلافة نبوية إلى ملك عضوض متوارث .

ولقد كانت الطائفية سبباً في الفتن أو الثورات المتوالية على بني أمية أولاً ثم بني العباس ثانياً ، ونحن لا نقول ان الذين ثاروا على الحكم الاموي كانوا أقل فضلاً من ملوك بني أمية ، فما كان زيد بن علي استاذ أبي حنيفة أقل فضلاً من هشام بن عبد الملك وكذلك ما كان محمد النفس الزكية ولا اخوه ابراهيم أقل فضلاً من أبي جعفر المنصور ،ولكن مهما تكن أسباب الخروج عادلة في ذاتها ، فإن الخروج ، وفشله يؤدي إلى أمرين لا محالة .

أحدهما – توهين شأن الوحدة ، وبلبلة افكار المسلمين نحو حكامهم ومن غير نتيجة .

ثانيهما – ان الخروج وان أضعف الثقة في الحكام يزيد الحكام عنفاً ، ويزيد الشعب ضعفاً وما ذلك من المصلحة في شيء .

وقد ترتب على الطائفية أن انقسمت الحكومة الاسلامية الى حكومات متفرقة . فكان الأدارسة بالمغرب ثم الفاطمية بالمغرب ومصر والشام ،وأخذت تنقص الأرض من أطرافها على العباسيين ، وكل ذلك على حساب الوحدة الاسلامية .

وكان من آثار الطائفية ان قامت دولة الناصر الأطروش بالديلم والجبل ، وقامت دولة الهادي ومن بعده باليمن ، وتوارث ذلك بنوه من بعده .

ولا ننظر أي هؤلاء أعدل ، وأقوم للحق والقسطاس ، ولكنها فرقة على أي صورة كانت ومن التفريق يدخل الضعف ، وتذهب قوة الجمع ، ويكون أمر المسلمين من بعد فوضى لا رابطة تربطهم .

وانه في وسط الثورات الطائفية ، أو الانقسام بسبب الطائفية وجدت النحل الفاسدة سبلها للدخول في جماعات المسلمين هادمين ، مثيرين فتنة القول والاعتقاد ، كما كان الأمر في القرامطة وغيرهم من الفئات التي تسهل دخول الانحلال الديني الى القلوب ، فضلاً عن الفرقة والانقسام وجعل بأس المسلمين بينهم شديداً ، وقد أخذهم الأعداء الذين كانوا يتربصون بهم من كل جانب .

وقد ذكرنا في صلب البحث أثر الطائفية في حرب التتر وزوال الدولة العباسية وفي حرب الصليبيين ؛ ولم يكن أثر الطائفية مقصوراً على ما ذكرنا هنا ، وما ذكرناه من قبل ، بل كان لها أثر أشد وأفعل وأقوى تأثيراً ، وربما كان تفرق الحكام أثراً من آثاره ، وذلك في أمرين :

أحدهما – الافتراق النفسي ، فقد كانت كل طائفة– تحسب نفسها مسلمين منفصلين عن الآخرين ، وكل فرقة تحسب أن اتباعها هم وحدهم المسلمون ، ولقد وجدنا في بعض كتب الشيعة انهم لا يعدون غيرهم من المسلمين مؤمنين، وان كانوا يعدونهم من أهل القبلة ووجدنا ان الشيعة لا يقبلون شهادة واحد من السنة ولو كان في ذاته عدلاً مستقيم السيرة ، ويقبلون شهادة الشيعي ، ويردون بها شهادة السني ، ولو كان الشيعي فاسقاً في ذاته ولا نريد أن نقول ان ذلك حق أم باطل ، ولكن نقول انه فرقة في النفوس وقد أدى في الماضي إلى أن يكون لكل دولة ، ويؤدي في الحاضر إلى الضرر الدائم المستمر ، اللهم ألف القلوب في الحاضر ، كما ألفتها في الماضي ، اللهم انك رؤوف بعبادك ، فلا تمكن ذئاب الأرض منهم قابلاً ، كما تمكنوا سابقاً.

الأمر الثاني – اختلاف الاحكام المطبقة ، فالشيعة لهم اجتهاد فقهي ، والسنيون لهم اجتهاد فقهي وان ذلك لا خطر فيه في ذاته ، ولكن له أثر في الفرقة والانقسام في داخل الدولة الواحدة وقد كان المستعمرون يوسعون الهوة بين الشيعة والسنة في كل بلد يحكمونه ، ونريد ألا يكون هذا الباب مفتوحاً يلج الشر منه دائماً ، ولا نريد أن نمحو الاختلاف المذهبي فهو ميراث

يكون تركة مثرية من الفكر الإسلامي ، ويجب احياؤه في الدراسة ، وتخفيفه في العمل ، والله بكل شيء حفيظ .

احياء اللغات القومية :

١٢٣ – ذكرنا كيف ماتت اللغة العربية في الأقاليم الإسلامية غير العربية في المشرق ، ولكنها استمرت باقية في العراق والشام ، ومصر ، وشمال افريقية على عجمة دخلت فيها ،ولكنها على أي حال استمرت باقية . وان حاول المستعمرون في العصر الحديث ان يزيلوها ، فالجزائر قد حوربت فيها اللغة العربية ، حاربها الفرنسيس إذ استولوا عليها أمداً غير قصير ، وحاربوها في المغرب .

ولكنها استيقظت في كل بلد حوربت فيه ، وأخذت تنهض من الكبوة التي اسقطوها فيها ، وانها سائرة بعون الله تعالى نامية قائمة وصارت عربية بالتعرب بعون الله تعالى . أما في المشرق وبلاد العثمانيين فقد زالت اللغة العربية زوالاً كاملاً ، ولم تعد لغة التخاطب ، ولا لغة الدولة ، وان كانت مستمرة بين كثيرين من العلماء الذين عنوا بدراسة القرآن ، أو الدراسات الإسلامية بشكل عام ، فباكستان غلبت فيها الاردية والافغان وايران سادتها الفارسية ، والعثمانيون وبلاد الاتراك سادتها التركية ، والمسلمون في الهند والصين يتكلمون بلغاتهم ، ولا يعرفون من العربية الا ما يصححون به صلاتهم من حفظ الفاتحة وخطبة الجمعة في تلك البلاد الشرقية ما عدا تركيا واندونيسيا وفيها نحومائة مليون مسلم أو يزيدون عن ذلك كثيراً أو قليلاً ، وهم كذلك يتخاطبون بلغتهم ولا يتخاطبون بلغة القرآن .

ومسلمو الشرق الذين لا يتخاطبون بلغة القرآن يبلغون نحو ستمائة مليون أو يزيدون ، ولا يجمعهم بالمسلمين إلا اسم الاسلام ، وان جهل اللغة العربية في تلك الاقاليم جعل أطراف البلاد لا يعرفون أحكام الاسلام في الاسرة

والمعاملات المالية ، بل العقيدة ذاتها يؤمنون بالله على حرف أو انحراف ،ولا يتصلون بالعلم الاسلامي الذي يرفع درجاتهم الفكرية والنفسية .

وانه في أطراف اندونيسيا ، تتزوج المسلمة البوذي والمسيحي ، وغيرهما ، ولا تعرف أن ذلك محرم عليها ويتزوج المسلم الوثنية ، ولا يعرف أن ذلك حرام عليه لانه لم يقرأ قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ،ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ، ولو أعجبكم، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه﴾ ولم يجدوا من يصلهم بالثقافة الاسلامية ، ولا يصل اليهم العلم الاسلامي الا بلغاتهم التي تنقصها الثقافة القرآنية والنبوية وانه من المناظر التي تؤذي الحس أنه في بيت الله الحرام حيث يجتمع المسلمون للتعارف في ضيافة الرحمن ، وحيث مهبط الوحي ومنزل النبوة ، نجدالمسلمين لا يستطيع بعضهم أن يخاطب الآخرين ، إلا باللغة الانجليزية لغة من حكموا بغير الحق ارضهم ، وحاربوا في خفية الأمر دينهم الذي ارتضوه ، وكذلك الذين استعمرهم الفرنسيس يتكلمون بلغة الفرنسيس ، وليس فيهم من تذهب همته الى أن يحج بيت الله الحرام ، وهو يعلم العربية ليستطيع مخاطبة أهله .

واننا نجد في المؤتمرات الاسلامية لا رواج للغة العربية الا بين العرب ، ونجد سكان افريقيا وآسيا من المسلمين يتكلمون الانجليزية والفرنسية .

وان المؤتمرات التي هي مظهر الوحدة نجدها مظهر التفرق ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

كيف تتكون الوحدة الآن

١٢٤ – ان التفرق والتنابذ هو الظاهرة القائمة الآن ، وقد كان للمسلمين عذر من قبل لانه كانت كل البلاد الاسلامية ، ان استثنينا دولة آل عثمان تحت السيطرة الاجنبية فمصر والهند وكان المسلمون نحو مائة وعشرين مليون مسلم بها ، تحت سلطان الدولة الانجليزية، وشمال افريقيا،وكل البلاد الاسلامية بها كانت خاضعة لفرنسا أو لانجلترا .

ولما خرجت الشامات والعراق من سلطان العثمانيين تلقفتها فرنساوانجلترا، وكان العراق من نصيب الانجليز خاصة ، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية أخذت الدول الاسلامية تتحرر من الاستعمار الصليبي بجهاد شعوبها ودماء أهلها ، حتى تسلم الأمر حكام منها ، فصارت الباكستان دولة مستقلة ، وهي تضم الآن نحو مائة مليون مسلم ، واندونيسيا مثلها أو أكثر ، وافغانستان وايران ، كلها بلاد اسلامية تحررت من النير الاجنبي الفعلي ، وتحررت مصر، وشمال افريقية ، والبلاد الاسلامية التي كانت تحت الحكم الانجليزي أو الفرنسي أو البلجيكي .

وهكذا رفع الأجنبي يده ، أوردت يده مغلولة .

ولكن الأجنبي الغريب ربى ناساً من أهل البلاد ، كان يقربهم إليه ، ويدنيهم ، وقد آل أمر الحكم في هذه البلاد إلى أولئك الذين كان قد اصطفاهم اعداء الاسلام ، وأولئك يؤمنون بمن اختاروهم ، ولذلك كانوا على ولاء مع أولئك .

وصار المسلمون اليوم تتفرق حكوماتهم فمنهم من يوالون الغرب في انجلترا وامريكا ، ويرتمون فيهم ، ويجعلون لهم نفوذاً بغير الجيوش التي تجوب الديار، ولكن بالاتجاه الفكري ، والمعونات المالية والعسكرية على أساس ألا يعملوا فيها إلا ما يريده الذين اعطوهم ، ومن هؤلاء من يوالون الشرق ، ويستمدون منهم المال والسلاح ، ويتكلمون بنغمتهم ، ويجعلون أنفسهم لهم تبعاً ،ومنهم يتوسطون فيميلون لهذا تارة ، وللآخر أخرى . وبذلك اختار حكام المسلمين التبعية ، ولم تفرض عليهم ، والمتبوع دائماً لا يشجع الاسلام بل لا يريد أن يكون تابعه للاسلام خالصاً .

والشعوب ليست وراء الحكام ، بل هم منفصلون عنهم شعوراً وإيماناً ، ورغبة في الوحدة والاتحاد بين المسلمين والاندماج في وحدة اسلامية جامعة .

أول الطريق :

١٢٥ - وأول الطريق أن ننخلع من نير الاجنبي ، فلا يقال عن حاكم ما انه ينزع منزعاً غريباً وانه ذو الحظوة عند أمريكا،أو انجلترا ،أو غيرهما ، بل تكون نزعته اسلامية خالصة ، ولا يقال عن حاكم آخر انه ينزع نحو الشرق هو الذي يوجه سياسته وهو منه بمنزلة التابع من المتبوع ، ولكن نريده إسلامياً، ولسنا نريد أن تقطع العلاقات بين أي حاكم ، وأي أجنبي ، بل نريد أن يكون الحاكم أياً كان لونه رئيساً أو ملكاً ، أن تكون كلمة الإسلام هي العليا ، وأن تكون العلاقات كلها دون العلاقة الإسلامية بحيث تكون هي الرابطة الاولى ، اليها تتجه النفوس وتتحرك لها الغايات .

ويكون الإسلام هو المستغرق للنفس المستولي عليها الذي لا تعرف سلطانا لغيره ، مهما يكن سلطان القوى ، ولكن حكام المسلمين لا يزالون في غرة من أمر الذين أذاقوا البلاد الإسلامية الوبال، مع أن نيات العداء لا تزال واضحة للعيان ، فقد عملوا في الحاضر ما لم يعملوا في الماضي .

لقد أخرجوا المسلمين من ديارهم واموالهم في بقعـــة من أرض الإسلام (فلسطين) ومزقوا أهلها كل ممزق ، وتركوهم يأ كلهم العري والجوع ، فلا مأوى يؤويهم ، ولا أرض يستقرون بها ، ولقد يكون ذلك كالمبضع يقطع في جسم حي قد ذهب عنه المخدر ، أو كالسكين تقطـــع في جسم حي ليحس بالألم فتكون له ارادة ولكن لم يتحرك المسلمون لذلك ، وتركوا الأمر للعرب وحدهم ، وكأنهم ليسوا مسلمين ، والعرب أنفسهم تدابروا فمنهم من له هوى مع أمريكا التي كان ذلك القطع تحت سمعها وبصرها ، وأيدت المفسدين من اليهود ولا تزال تؤيدهم وتطغيهم ، ومن العرب الذين يزعمون انفسهم ينتمون للنبي ﷺ من يوالون اليهود باطناً ويوالون الامريكان ظاهراً وباطناً .

اننا الآن تحررنا من نير الاجنبي الذي يعادينا ، وسلمنا أمورنا لأولياء منا ولكنهم لم تكن أعمالهم للإسلام خالصة كلها ولم يعملوا للوحدة كاملة مع أننا في عصر التجمع ، الذي تتجمع فيه الدول المتفرقة تحت حلف ، أو أمرجامع أياً كان سبب ذلك الجمع ، وان الاقليم الذي لا يدخل في كتلة لا نكاد نرى له وجوداً بينهم ولكن الاقاليم الإسلامية تنفرد فيما بينها ، ويحاول بعضها أن يدخل في حلف من أحلافهم فيكون كالواغل بين شرب يتبرمون به ، ولا يسقونه مما يشربون .

ان روح العصر توجب على المسلمين أن يتجمعوا في وحدة حول كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ، لأن الله تعالى يناديهم من وراء الخلود في قوله تعالى كما تلونا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقـــاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفاحفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ .

انه لا بد أن نجتمع بعد طول الافتراق ، لأن الأمة الإسلامية تقوم فيها الروابط على وحدة الدين والعقيدة ، ووحدة المبادىء الخلقية الفاضلة، والنظم

الاجتماعية العادلة والعبادات الجامعة ، وفي كل يوم يمر يشعر المسلم بالوحدة ، ان أدى العبادات على وجهها ، فتلك الوحدة في قلبه آناء الليل وأطراف النهار ، فانه فى الصلوات الخمس يتجه إلى الكعبة المكرمة قبلة المسلمين اجمعين، فاذا كان وهو يؤدي هذه الصلوات يشعر بأنه واحد من الوف الملايين الذين يتجهون إلى هذه القبلة ، فيشعر بأن قلبه مرتبط بالله رب العالمين رب الخلق اجمعين ، ومرتبط بالمسلمين في بقاع الأرض بهذه القبلة التي توحد قلوبهم ومشاعرهم وإذا كان ذلك الارتباط بالمكان في الصلاة ، فهناك ارتباط بالزمان في شعيرة اخرى من شعائر الإسلام وهي الصوم ، فإنه إذا جاء رمضان، ورؤي هلاله في مكان الزم به جماعة المسلمين في كل بقاع الأرض فيكون ذلك اشعاراً لهم بأنهم أمة الله تعالى دعاهم إلى الوحدة فيها ، كما أوجب العقل والشرع وحدانية الله تعالى ، فالصوم يوحد المسلمين باتحاد زمان العبادة كما أن الصلاة توحدهم بمكان الاتجاه فيها ، وفي الحج تلتقي جماعات من كل اقليم اسلامي في بيت الله الحرام ، في ضيافة الله سبحانه وتعالى ، ويتعارفون فيعرف كل اقليم آلام الآخرين وآمالهم ، ويتصل بأحساسهم ومشاعرهم ، ويعرف ما يحتاج اليه كل اقليم ، وما يفيض من خيراته ، ليمد به الآخرين ، وبذلك تتحقق في الحج أمور ثلاثة هي من رحمة الله تعالى بأمة محمد ﷺ – أولها – اتجاههم موحدين متحدين لربهم وإقامة نسكه ، وتذكر أبي الانبياء ابراهيم ، والقيام بالمناسك وأداء العبادة الجماعية والاجتماعية والروحية وتعرف مهابط الوحي ، ومنازل الرسالة .

ثانيها – التعارف الانساني ، وقوة التآخي ، والشعور بأن المسلمين جسم واحد .

ثالثها – التعاون في دفع الضر ، وجلب الخير ، والتعاون في الكسب الطيب ، والتعاون في أخذ خيرات الأرض بحيث يأخذ كل إقليم مما عند الآخرين ، وقد وجه الله سبحانه وتعالى الحجيج إلى ذلك بجوار أداء النسك، فقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ، فإذا أفضتم من

عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ واقرأ قوله تعالى : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ،ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ .

نعم جاء النص الكريم بأن الحج مع النسك الاعظم ، يشهد المسلمون فيه منافع لهم ،وأي منفعة أجل وأعظم من التعارف والتعاون على البر والتقوى ، وأن يعملوا على أن يفيض أهل كل إقليم على غيرهم بما ليس عندهم .

وقد كانت الاسواق التجارية مجنة وعكاظ وذو المجاز في موسم الحج ، يتبادلون فيها البضائع ، فلنتبادل نحن الصفقات المثمرة التي تتعاون فيها الشعوب الإسلامية وإن الذي ننتهي منه بعد التعرف للعبادات الإسلامية أنها تومىء أو تصرح بالاخوة الإسلامية ، ويؤدي القيام بها على وجهها إلى شعور كل مسلم بأن المؤمنين اخوة بحكم الإسلام ،وأن الاخوة الإسلامية فوق الجنسية والعنصرية. وان أسباب هذه الاخوة قائمة ، وان العقائد والتكليفات وحدها كافية لإقامة وحدة إسلامية .

ولقد قال في ذلك باعث النهضة الإسلامية في العصور الحديثة : جمال الدين الأفغاني « أما وعزة الحق ، وسر العدل لو ترك المسلمون أنفسهم بما هم عليه من عقائد مع رعاية العلماء العاملين لتعارفت أرواحهم ، واتفقت آحادهم ».

ولكن واأسفاه على المسلمين كانت الشعوب في جانب وحكامهم في جانب آخر فقلوب بعض الحكام مع بعض من الأجانب ،وآخرون مع جانب آخر ،وقد توزعت المسلمين في الماضي الأمم الغربية ، فسيطروا عليها ، وأدنوا المروجين لهم وأبعدوا المؤمنين المخلصين لدينهم ولبلادهم ، فلما تحررنا من الاجنبي حكمنا نحن المسلمين من كانوا يدنونهم ، وبعد عن الحكم من كانوا يعادونهم

الوحدة الاسلامية ووحدة العقيدة :

١٢٦ – تقوم الوحدة الإسلامية على وحدة الدين ، والدين عقيدة وعبادة، وفضيلة ، وتعاون على البر والتقوى وعدل .

فإذا قلنا إن الوحدة الاسلامية تقوم على الدين ، فمؤدى الكلمة أن تسود العقيدة المنزهة ، والعبادة المتجهة الى الله ، والتعاون بين آحادها بل بينها وبين الناس اجمعين ما داموا يعملون في سبيل الخير ، والفضيلة التي تجعل الانسان لا يرتع في مراتع الشر ، ولا يفسد في الأرض ، ولا ينخلع عن إنسانيته إلى أن ينزو نزو القردة ، وينهل كالخنزير من معاطن النتن ، ثم هذا يؤدي إلى العدالة بين القريب والبعيد والعدو والولي، والمسلم وغير المسلم، فالعدالة قانون الله وقانون الإسلام ، وقانون الانسانية السامية ، لقد قال تعالى في النهي عن ظلم العدو البغيض ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ وانه إذا قامت الوحدة الإسلامية على أساس الدين ، وأخذ المسلمون جميعاً بأخلاق الإسلام التي علمها القرآن، وأوصى بها محمد ﷺ ، ذهبت أكثر شرور العالم ، وكان المسلمون كما ابتدؤوا مثلاً عالية للفضيلة والانسانية العالية .

وقد فقد العالم ذلك بتفرق المسلمين ، وتأخرهم عن الصف الأول في بني الانسان ، واحتل الصف الأول من تخلقوا بأخلاق القردة في نزواتهم، والخنازير في مقاذرهم وإن الاخوة الإسلامية تقوم على عناصر ليس فيها اعتداء على أحد، ولا تعصب ضد أحد، إنما تقوم على ثلاثة مبادىء كلها يتصل بالأخلاق والفضيلة.

أولها – شعور بالأخوة بين المسلمين بعضهم مع بعضهم ، يتحقق فيها قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ وألا يكون منها إعتداء على غيرهم إلا إذا اعتدى على إقليم منهم .

ثانيها – وحدة ثقافية ولغوية واجتماعية ، حتى يتضافروا جميعاً على محاربة

المذاهب الهدامة . ومنع شيوعها بين المؤمنين خاصة ، وبين الناس عامة ،حتى لا يكون فساد في الأرض .

ثالثهـــا – ألا يكون من اقليم اسلامي حرب على اقليم آخر ، أيا كانت أساليب هذه الحرب سواء أكانت بالاقتصاد ، أو بالتحالف على مسلمين .

وقد يقول قائل إن هذه الوحدة مخالفة لنواميس الاجتماع ، ان المجتمعات في الأمم تقوم على وحدة الجنس ، أو الاقتصاد ، أو وحدة المكان ، كما في أمريكا ، وهؤلاء المسلمون في اقاليم شتى في الأرض ، فكيف تجمعهم وحدة دينية مع تفرقهم في الأرض ، وتنوع اقتصادهم ، وتخالف عناصرهم ، ونقول في الجواب عن ذلك :

ان قيام الاجتماع الإسلامي على مبادىء الفضيلة ووحدة العقيدة هو أمثل الطرق لتكون الجماعات الدولية ، ونحن لا نريد بالوحدة تكوين دولة ، انما تكون مجتمع اسلامي من عدة أقاليم .

ولا يعد الاجتماع العنصري أو الاقتصادي أو المكاني أمثـل الاجتماعات لتكوين الأمم ، وذلك لأن الجماعة الواحدة لا تتكون وحدة إلا إذا اتحدت المشاعر والمنازع النفسية ، ولا تكون هذه المشاعر تحت سلطان تبادل المنافع فقط ، بل لا بد مع تبادل المنافع من اتحاد المشاعر النفسية ، وذلك لأن تبادل المنافع يحقق اتحاداً وقتياً عند قيامه ، ويزول بزواله ، وهو عرض غير دائم ، وإذا قامت أمة على أساس التبادل الاقتصادي أو الاشتراك في المنفعة المادية ، فانها تكون غير مندمج آحادها بعضهم في بعض .

وان الاجتماع في مكان واحد مع اختلاف العناصر يكون اجتماعاً يحمل في نفسه عوامل انحلاله اذا لم تكن معان روحية تمنع قوة العنصرية وتدفعها .فلا بد من أن يظل العناصر المختلفة دين مهذب لأن العنصرية تفرض دائماً تفضيل عنصر على عنصر ، ومع هذا التفضيل الاعتداء على غير هذا العنصر. والعنصرية

شكل من أشكال التجمع الحيواني ، اذ تجتمع فصيلة من الفصائل وتقاتل الاخرى ، وتجتاز مكانها الذي تقيم فيه لتغالب الآخرين ، وبذلك كانت الحروب المستمرة حيث لا يكون دين جامع ، ولا تهذيب مانع .

فليس التجمع على أساس العنصرية إلا بقية من بقايا الحيوانية المتخلفة في الإنسان .

وانا لنرى ذلك واضحاً في الدول التي تعامل الشعوب على اساس الوانها ، وليست فكرة الشعوب الملونة والشعوب البيضاء الا صورة التحكم العنصرية ، وبقية من بقايا الحيوانية المتخلفة ، بل أخص صفات الحيوان .

أما الاجتماع باسم الدين ، أو بعبارة أخص الاجتماع باسم الإسلام ، فهو اجتماع لا يقوم على المغالبة ، بل على الاخوة العامة بين المسلمين،والمودة الراحمة بينهم ، والتعاون الإنساني الكامل معهم ومع غيرهم من الدول التي لا تعتدي ، ولا تحكم باسم العصبية أو العنصرية .

فهذا الاجتماع الإسلامي تتكون منه أمة متحدةالمشاعر الانسانية العالية ، متجهة نحو الفضيلة ، والمثل العليا التي تنزع بالروح الانسانية نحو الملكوت الأعلى ، ويخضع فيها الانسان لخالق الاكوان وحده، وعندئذ يعلو الإنسان عن المغالبة إلا إذا اعتدي عليه فالدفاع يكون واجباً في هذه الحال ، ويكون ذلك من الفضيلة ومنع الفساد في الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ .

وإنه في الوحدة الاسلامية التي يكون أساسها تطبيق الدين تكون العدالة الحقيقية التي لا تفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، إذ لا عنصرية في الإسلام ، بل الذي فيه : كلكم لآدم ، وآدم من تراب، والناس سواسية كأسنان المشط .

وإن المجتمع القائم على العنصرية هو في أمريكا الشمالية ، وإن فيها لعبرة لأولي الابصار ، ففيها قد صارت الأمور فوضى في الأخلاق وفي النفوس ، والانطلاق مقرر للبيض والحرمان والاضطهاد مفروضان على السود ، فانك واجد ظلما على السود لا يقل عن ظلم الجاهلية الأولى، ومادون من قوانين ظاهرها المساواة في الحقوق والواجبات،إنما هي خطوط مسطورة على قراطيس، ليس لها في العمل مظهر يدل على وجودها ، ولذلك هوى المجتمع الأمريكي من ناحية الخلق وضبط النفس إلى ما لم يهو اليه مجتمع إنساني في عصر حضري .

إن العلو في المجتمعات الفاضلة كالمجتمع الإسلامي ان تحققت وحدة المسلمين، إنما يقوم على أساس فعل الخير والتقوى ، لا على أساس نبل الدم ، تقوم هذه المجتمعات الإسلامية على أساس احترام الكرامة الإنسانية التي هي حق مشترك بين بني الانسان ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾

وإن الفضيلة إذا سادت ذهب التناحر ، وسكت قانون الغلب .

وانما تقوم الفضيلة الشخصية والاجتماعية في ظل الإسلام الذي يدعو إلى التعاون الانساني العام . والذي يدعو إلى التسامح العادل ، بعد قمع الرذائل.

ونحب أن ننبه إلى كلمة عامة نقول فيها إن الأديان السماوية كلها التي جاء بها الرسل من الله لا تدعو إلى التناحر ، ولا تحرض عليه . والتعصب الذي يؤدي إلى الفرقة والانقسام بين البشر، ليس منشؤه قوة التدين،أو الاستمساك بالحقائق الدينية السليمة انما هو من ضعف الاعصاب الذي يؤدي إلى هوس في التفكير وليس من التدين .

وإذا كان التاريخ يذكر تناحراً بين الناس باسم الأديان ، فليس ناشئاً عن الدين نفسه وانما هو ضعف الاعصاب عند الذين يتزعمون باسم الدين ، وضلال في الفهم .

وفوق ذلك قد يتحول الدين عند الذين لا يدركون حقائقه ، إلى معنى يشبه الجنسية العنصرية ، ولا يكون حينئذ التناحر منبعثاً من ذات الدين ، ولا من مبادئه ، بل من العنصرية التي لبست لبوس الدين ، والدين منها براء ، وهم بمقدار تناحرهم يتخلفون عن مبادىء دينهم .

وان الإسلام يبث في النفس معنى الخير ، وسمو الفضيلة ، وحب التعاون والتعارف بين بني الانسان ، فثمار الإسلام هو التعارف ، ولذا قال عليه السلام : خير الإسلام أن تقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف ، ووراء التعارف التعاون على البر والتقوى ، والتعاون على دفع الفساد ، ولقد قال سبحانه وتعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم العدوان ﴾

هذه حقائق مقررة تشير إلى معنى التجمع الإسلامي والوحدة الإسلامية ، وانه لا عصبية ولا جنسية ، ولا اقليمية ، بل محبة ومودة ، واقرأ قوله ﷺ « ان لله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء لمكانهم من الله يوم القيامة ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال قوم تحابوا في الله من غير أرحام تربطهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله انهم لنور ، وانهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون . هذه هي الوحدة الإسلامية التي نريدها .

شكلها

١٢٧ - إننا نريد من الوحدة أن تتحقق معاني الاخوة،والتعاون الاجتماعي والاقتصادي والحربي والسياسي ، والثقافي ، ولكن كيف تتحقق هذه الأمور أتتحقق باحياء الخلافة الإسلامية كما كانت في عهد الراشدين ؟

إن ذلك هو الاجتماع الامثل خصوصاً أنه قد وردت به الآثار ، وكان عليها الصحابة أجمعون . ولكن أيمكن الأخذ بها في هذا العصر ، وأيمكن تحقق شروطها، وهل من المصلحة بعد أن توزعت الأرض المسلمين ذلك التوزع أن تكون لهم دولة واحدة ، يرجع فيها الحكم الى إمام هو أعظم الولاة ؟

ونقول في الجواب عن هذا اننا لا نرى أن تكون الوحدة قائمة على دولة واحدة لها حكومة مسيطرة على كل المسلمين ، فإن ذلك لا يمكن مع الوضع الهندسي للبلاد الإسلامية في الأرض ، وخصوصاً ان الأراضي الإسلامية ليست متصلة الاجزاء ، وان الأقاليم كما ذكرنا عندما امتد اليها الفتح الإسلامي كانت لها شخصياتها والإمام له السلطان عليها والتنظيم الكامل غير بعيد عنه، ولكنه في عماله وحكومته له استقلال ذاتي .

وإننا إذا اتجهنا الى تكوين الوحدة الإسلامية ، فإننا نتجه الى أن تكون مناسبة للعصر ، ولا ننسى المبادىء الإسلامية ، فإننا إذا تأثرنا بروح العصر ، إنما هو في شكل الوحدة لا في جوهرها ، فلسنا ممن يخضعون أحكام الإسلام

لروح العصر ولكن الاسلام أمرنا بالقيام بحقائق مقررة ، وترك لنا أساليب تحقيقها ، فنجتهد في تعرف أقربها توصيلاً لهذه الحقائق ، فمن روح العصر نستمد الطريق الموصل وما يمكن أن يكون عليه شكل الوحدة ، ولا نسوغ لأي أحد أو نظام أن يتحكم في أي حقيقة شرعية باسم أنها تناسب العصر أو لا تناسبه فحقائق الإسلام ثابتة مستقرة ولا يجوز التغيير فيها أو التبديل .

إن الوحدة التي نبتغيها لا تمس سلطان أي سلطان يقوم بالحق ، وينفذ الأحكام الإسلامية في جوهرها ولبها ، ولا تمس شكل الحكم في أي إقليم إسلامي بالقدر الذي يجعل الوحدة أمراً قائماً ثابتاً ، ما دام يقيم العدل وينفذ الحق في رعيته ولا يرهقهم من أمرهم عسراً ، فلكل اقليم اسلوب حكمه

إن معنى الوحدة الإسلامية هو الذي نريده وهو غايتنا ، وهو أن نعتبر أنفسنا مهما تناءت الديار مرتبطين بروابط وثيقة تمتد جذورها في أعماق انفسنا وهي مبادىء الإسلام وشعائره ، وعبادته وعقيدته ، إذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة ، كما هو دين التوحيد الكامل ، الخالص من كل شرك

إن الوحدة الإسلامية هي غايتنا ، ويجب أن يتفيأها كل مسلم ، ومن لم يؤمن بأن المسلمين أمة واحدة ، فقد عاند نصوص القرآن ودخل في عداد الذين يشاقون الله ورسوله ، ولقد قال سبحانه : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ . لقد تفرقنا في الماضي ، فأكلتنا ذئاب الأرض ، وأصابنا الذل ، ومزقنا شر ممزق ، وإذا كانت العنصرية المقيتة قد فرقتنا ، فالقرآن الآن يجمعنا ، كما كان ينبغي أن يجمعنا من قبل ، وإذا كان هوى الحكام وحب الغلب ضيعنا وضيعهم في الماضي ، فإنه يجب أن نجتمع في ظل الإسلام ووحدته .

١٢٨ — إننا كما قلنا لا نقصد بالوحدة دولة واحدة ، ولكن نريد أخوة شاملة ، وإذا كانت الخلافة الكبرى يمكن أن تكون من غير أن يكون

للمسلمين دولة واحدة ، بل تكون أقاليم مختلفة في ظل اتحاد كامل ، فانه يمكن وجودها في النظام الذي يتصور جامعاً ، وذلك على أساس ألا يكون الاختيار مدى الحياة ، بل يكون على نوبات زمنية متبادلة ، وعلى أساس أن القرشية أو العربية ليست بشرط ، فقد علمت أن الحديث «الأئمة في قريش» إخبار بأنباء المستقبل ، وليس تكليفياً ، وهو كقول النبي ﷺ : « الامامة بعدي ثلاثون ، ثم تكون ملكاً عضوضاً ، ثم قوله إن الأمر في قريش ما استقاموا ، فان اعوجوا لحوا كما يلحى الشجر أو كما قال ﷺ وهكذا نحن لا نرى ذلك الشرط ، لا لأنه لا يتفق مع زماننا ، ولا لأنه لا يتفق مع المساواة العادلة التي نص عليها النبي ﷺ ، ولا لاضطراب الانساب وجهلها . وعدم معرفتها على وجه اليقين حتى ادعى القرشية بل الهاشمية من جعل لغير المسلمين عليه ولاية ، لا نبعد شرط القرشية لشيء من هذا ،ولكن نبعده ،لأن النبي ﷺ فيما روي عنه لا يدل دلالة قاطعة على أنه أمر تكليفي ، يجب الأخذ به ، وتجب مراعاته ، عند البيعة وتقديم الطاعة إذ أنه كما ذكرنا يحتمل أن يكون النص للتكليف ، ويحتمل أن يكون للاخبار ، وهو ما نرجحه ، وإذا دخل الدليل الاحتمال بطل الاستدلال ،فلا دليل يلزم بالقرشية ،وخصوصاً أنه قد وردت نصوص أخرى تدل على جواز أن تكون الإمامة من غير قريش ، فكان عدم أخذنا بشرط القرشية ليس فيه رفض لأمر مقرر ، إذ لا يوجد أمر من النبي ﷺ .

هذا وإنا لا نجد أن الخلافة بعد الراشدين لم تكن محققة للوحدة الإسلامية لأنها صارت ملكية ، لا خلافة نبوية .

إن الوحدة الإسلامية يمكن تحقيقها من غير خلافة ، ولكن يمكن أن يكون للخلافة موضع فيها على أنها ليست الركن ، بل على أنها مظهر الوحدة.

وانه إذا تحققت الوحدة في السياسة والحروب ، والاقتصاد فقد قامت الوحدة قوية منتجة مثمرة ، وتتحقق هذه العناصر في أن يكون أمر جامع، وهو الجامعة الإسلامية .

الجامعة الإسلامية

١٢٩ – لقد نادى الإمام جمال الدين الافغاني وصحبه إلى الجامعة الإسلامية، ولم تذهب دعوته صرخة في واد، بل كانت منبهة للغافلين موقظة للنائمين، وإذا كانت الشعوب لم تستجب لها في ابانها، فلأنها كانت سابقة لأوانها، وما يعيب صاحب الفكرة أن يكون سباقاً، وإن لم يتحقق له ما يبغي وما يريد، ما دامت الفكرة في ذاتها صحيحة واجبة التنفيذ، وتارك التنفيذ ملوم مقصر، أو مغلوب معذور، ولم يمنع تنفيذ تفكير الإمام وصحبه الأكرمين، إلا جهل المسلمين، وعدم إدراكهم مغبة استسلامهم للمستعمرين الذين كانوا لا يألونهم خبالا في دينهم، وذات أمرهم، وفوق ذلك كان العدو الاجنبي الصليبي جاثماً فوقهم، لا يستطيعون أن يتصرفوا إلا فيما يرضى عنه، ولا يرضى عن أن يكون جمع المسلمين حقيقة، يتفقون فيما بينهم ولايختلفون فانه في الوقت الذي كان يصيح فيه جمال الدين الصيحات التي كانت تنفذ إلى القلوب كان رئيس اكبر دولة غير اسلامية تحكم المسلمين وتناوئهم، يقف أمام نواب هذا البلد، ويأخذ كتاب الله، ويقول ما دام هذا الكتاب في الوجود فإنه لاسلام .

والآن قد قبض الاجنبي يده، وإن كان كثيرون من الحكام يسيرون في ركاب بعض الدول غرباً وشرقاً، ويصدرون عن أمرها، في شأنهم وشأن الرعايا المغلوبين بحكمهم .

ولكنا في كتابتنا هذه نتجه الى الشعوب ذاتها، لقد كانت الحجب من الحكام

والاجانب تحول بين الإمام جمال الدين والشعوب والآن يسوغ لنا أن نتجه الى الشعوب نواجهها بأمر دينها الذي ارتضته واتبعته ، وضاعت وأكلها اعداء الله تعالى وأعداء الإسلام يوم أن تركت أمورها إلى حكام طغوا على الشعوب ، واستكانوا للهوى أولاً ، وشغلوا عن الشعوب ، واتجهوا الى مرضاة الأقوياء ثانياً ، ثم استسلموا وذلوا وهانوا على الناس ثالثاً ، ورضوا بألقاب الملك والسلطان ، وكانوا الطاعمين الكاسين . إن الشعوب هي التي يجب أن تنهض ، ويجب أن يكون الحكام منهم ظاهراً وباطناً وقوة وإيماناً ، ويكونوا على الأعداء لا على المؤمنين ، وأن يكونوا أذلة للمؤمنين اعزة على الكافرين .

وإننا إذا قلنا الجامعة الاسلامية فإننا لا نريد جامعة الحكام أياً كانوا ، تتألف منهم كيفما كانوا ، وتصدر عن أمرهم ، سواء كان صادراً عن الشعوب المؤمنة ، أم كان صادراً عن حكمهم الذي يتجافى مع إرادة الشعوب .

وإذا كنا نريد لنا شعبية ، فإننا لا نباعد الحكام عنها مطلقاً ، إنما نريد الحكام الذين يختارون من شعوبهم ، ولسنا نبعد الملوك أو الأمراء ، أو من يشبههم إنما نريد الحكومات المقيدة بإرادة الشعوب أياً كانت ملكيــــة أم جمهورية فإرادة الشعوب تتحقق في الحكم الملكي ، كما تتحقق في الحكم الجمهوري فالوراثة الملكية لا تمنع من أن يكون الشعب هو الحاكم وأن يكون الوزراء ممثلين له ، غير خارجين عن أمره ، كما نرى في الحكومة الانجليزية ، والبلجيكية والدول الاسكندنافية ، فإن هذه الحكومات رؤساؤها ملوك يتوارثون فيها الملك خلفاً عن سلف ، ولكن الشعوب هي التي تحكم وكما تقول القاعدة القانونية الدستورية « الملك يملك ولا يحكم » .

اننا نريد من الحكومات الإسلامية أن تتمكن الشعوب من تحمل التبعة في الحكم ، ولقد جربنا حكم الحكام منفردين عن الشعوب إذ ليس عندهم في الحكم ارادة ، فأدى الأمر الى الضياع ، وإلى الفرقة والانقسام ، وإلى أن تتداعى علينا الامم تداعي الأكلة على قصعتها فلم يبق لنا إلا أن نترك الأمر للشعوب

الإسلامية ، وانها لرشيدة لن تضل، وان ذلك حكم الإسلام إذ يقول الله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ويقول تعالى أيضاً مخاطباً نبيه : ﴿ وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ ولقد جاء في كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية :

« قد روي عن أبي هريرة رضي الله عنـــه قال : « لم يكن أحد أكثر مشورة من النبي ﷺ » وقد قيل إن الله أمر بها نبيه ليتألف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده ، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحرب والأمور الجزائية وغير ذلك ، فغيره ﷺ أولى بالمشورة ، وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بذلك في قوله تعالى ﴿ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وإذا استشارهم ، فإن بين بعضهم مـــا يجب اتباعه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أو اجماع المسلمين ، فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك ، وإن كان عظيما في الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منـكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

وان كان أمر قد تنازع فيه المسلمون ، ينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ، فأي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عمل به كما قال تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير ، وأحسن تأويلا ﴾ .

والتأويل فوق أنه قد يراد به تفسير الشريعة ومعرفة الأمر فيها يطلق على معرفة المآل ، كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل ، قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء

فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذين كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ .

والتأويل هنا المآل بلا ريب ، وإن الأخذ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وبالشورى في فهمها وبناء المصالح الدنيوية عليها من غير خلع للربقة ، ولا خروج عن الجادة المستقيمة ينتهي بالمسلمين الى أحسن مآل وإلى خير حال ، وإنه بضدها تتميز الأشياء، لقد جعلنا القرآن مهجوراً، وتركنا سنة النبي ﷺ وراء ظهورنا ، فالتقمتنا أفواه الشر ،وتوزعنا الظالمون في الأرض وصرنا فرصة المنتهزين ، يتسابق أعداء الله تعالى وأعداء الحق الينا ليستذلونا ، ونحن الأعزة بكتاب الله تعالى وبديننا « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

الشورى أساس الجامعة الإسلامية

١٣٠ - إن الجامعة الإسلامية يجب أن تبنى على الشورى ، لأنها الأصل في كل أمر جامع للمسلمين ، لأن الحكم الإسلامي ، لا يقوم على أساس افناء الواحد في الجماعة ، بحيث لا يكون له رأي في تكوينها ، وإنما يقوم على أن الجماعة القوية هي التي تتكون من آحاد اقوياء ، فالبناء القوي لا يبنى إلا من لبنات قوية صلبة ، تتماسك كل لبنة مع أختها ، حتى تقوم الدعائم قوية ثابتة الأركان .

وإن الشورى تربي الشعور بالوحدة ، وتحمل التبعة ، وإنه بالشورى يحس كل واحد بحق الجماعة عليه ، وحق الإسلام الذي أوجبه في غير شطط ، ولا مجاوزة للحد ، ولقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » فالشورى كتب الله فيها التوفيق . والاستبداد أياً كانت صورته كتب الله تعالى فيه اضعاف النفوس ، وفساد المآل ، ولا يمكن أن ينهض الاستبداد بأمر لا تنهض به الشورى . وإن بدا نجاح الاستبداد في أمر من الأمور ، فإنه نجاح الى زوال ان لم تؤيده الشعوب مخلصة مؤمنة حرة في التأييد وإن المستبدين المخلصين ، وقليل ما هم ينتهون الى الرجوع الى الجماعات في مآل أمرهم ، والا باؤوا بخسران مبين . ولذلك يجب لتحقيق الأمر بشأن تحقيق الجامعة الإسلامية أن يكون الحكم في كل إقليم إسلامي حرّ تمام الحرية قد خلع سلطان الاجنبي فيه الشعب وحاكمه - يجب أن يكون الحكم

فيه قائماً على الشورى ، لا يستبد الحاكم بالمحكوم ، ولا تهمل إرادة الشعوب. لأن في ذلك إذلالها ، ولا يعتز الإسلام بذليل قط ، وإن الإستبداد صورة من صور الاسترقاق ، ولا يصح أن يسترق المؤمنون تحت حكم الإسلام ، ولا ندري بأي سلطان يفرض الحاكم على المحكوم حكماً لا يكون مستمداً من كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله محمد ﷺ .

إن محمداً الذي كان يوحى إليه كان يستشير في كل أمر لم ينزل به وحي ، وذلك كما قال ابن تيمية وغيره ليعلم الحكام من بعده أنه لا يستقيم أمر المسلمين إلا بالشورى ، وليعلم كل إنسان أنه ان استبد برأيه يخطىء . وإن اصاب وأصلح ، فإنه قد أخطأ أيضاً ، لأنه بمقدار استبداده يكون اذلاله للشعب ، وإذا ما ذل الشعب فإنه يستسلم ، والاستسلام للحاكم سبيل للاستسلام للاجنبي وإذا كان المستبد عادلاً ، فان الإستسلام له يؤدي الى الإستسلام للظالم ، ويكون من بعد ذلك الشر المستطير .

وإن الاستبداد يمنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما عماد الرأي العام الفاضل ، فالاستبداد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نقيضان لا يجتمعان ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر شريعة الإسلام، ومهذب الجماعة الإسلامية وخاصتها ، قال تعالى :

﴿ كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ .

وإن الشورى ذاتها من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإذا لم تكن منه ، ملازمة له . لأن المشاورة استرشاد من الحاكم للمحكوم ، وهي من ضمن النصيحة لله ، ولأولي الأمر .

وإن الذي فرق الأمة الإسلامية ذلك التفرق بعد أن جمعها النبي ﷺ هو اهمال إرادة الشعوب فقد تململت القلوب ، واضطربت النفوس، فانصرفوا عن أن يرشدوا الحاكم، لأن شعار المستبد الغاشم «من قال اتق الله قطعت عنقه».

وإن الذين جعلوا غير المسلمين يتوزعون في الأرض الإسلامية بينهم هم الحكام المستبدون ، ولو راجعت أسباب سقوط الأقاليم الإسلامية في أيدي غير المسلمين لوجدته استبداد حكامهم ، وتفرقهم مشاعر وإحساساً ، وعدم إحساسهم بالوحدة الجامعة ، وهذا الثاني ثمرة الأول ، فإذا شعر المسلم بأنه لا رأي له في أمر بلده هانت عليه إذ قد استسلم للمستبد عادلاً أو ظالماً .

وإننا ونحن نعمل على أن نجتمع اليوم يجب أن نتفادى عيوب الماضي، وان الجسم السليم لا يستعيد قوته إلا اذا سلم من الأمراض التي اضعفته ونقي من الادواء التي أرهقته ، وقد أرهق المسلمين الاستبداد ، فيجب أن يصلحوا بحكم القرآن .

تنفيذ الأحكام الإسلامية قوام الجامعة

١٣١ - إن الجامعة الإسلامية ليست اجتماع أبدان لقوم سموا المسلمين ، وانما هي اجتماع أقوام يدينون بدين واحد . فالجامع بينهم دين ، ولا يعد الدين جامعاً إلا إذا تحقق في ذات نفسه ، وقامت دعائمه ونفذت أحكامه في خاصة الآحاد ، وذلك بالعبادات التهذيبية ، الصلاة والصوم ، وبالعبادات الاجتماعية الزكاة والحج ، والصدقات والنذور والكفارات ، وأحكام الاسرة التي تولى بيانها القرآن الكريم ، وفصل ما يحتاج منها لتفصيل النبي الأمين فقد تولى القرآن بيان أحكام الزواج والمحللات والمحرمات ، وحقوق الزوجين ، وأحكام الطلاق وأحواله وآثاره ، وأحكام الأولاد من رضاعة ونفقة وغيرهما وبين النبي ﷺ احكام الاقارب وحقوقهم في بيان يجمع بين التقنين والحكمة منه .

وبين القرآن الكريم أحكام الميراث ، ولم يترك فيها اجمالاً إلا قليلاً بينته السنة النبوية الشريفة ، وهكذا كانت احكام الاسرة كلها من القرآن الكريم مع بيان السنة النبوية الطاهرة ، لأن الاسرة قوام الجماعة ، والمجتمع القوي يبنى على أسر قوية ، ولذلك كانت عناية القرآن بالاسرة ، وتولى احكامها القرآن ، وبينها أكثر مما بين العبادات ، لأن الله تعالى العليم الخبير الذي أحاط كل شيء علماً ، علم أن أحكام الأسرة في الإسلام ستكون موضع المهاجمات ممن لا يرجون للإسلام وقاراً .

ويسير اولئك وراء الدين ، أشربوا حب المدنية الغربية ، وأرادوا أن

يجعلوا الاسرة الإسلامية تحكم بأحكام الكنيسة التي منعت الطلاق ، ومنعت تعدد الزوجات .

وكان غريباً أن ينادي بعض المسيحيين انه لا يمنع الأسرة الأوربية من الانحلال إلا اباحة تعدد الزوجات ، واباحة الطلاق ، بينما يصك آذانهم ذلك النداء ، ويستجاب له هنالك نجد من المتفرنجين هنا من يلحون في ضرورة تقييد تعدد الزوجات أو منعه ، وتقييد الطلاق أو منعه .

المعاملات :

١٣٢ — وفي المعاملات المدنية المالية يجب أن يكون الإسلام هو الذي يحكم بالقرآن والسنة ، فأحكام العقود ، والحقوق والالتزامات يجب أن تسن تحت ظل القرآن ، فلا تكون العقود المحرمة . في القرآن والسنة ، فلا تباح العقود الربوية في البيوع ، فربا البيوع حرام بالسنة لمـــا ورد في كتب السنة الصحاح . والذهب بالذهب مثلا بمثل يداً بيد ، والفضة بالفضة مثلا بمثل يداً بيد والبر بالبر مثلا بمثل يداً بيد ، والتمر بالتمر مثلا ، بمثل يداً بيد ، والملح بالملح يداً بيد وفي رواية الشعير بدل الملح . الى آخر ما ورد في ذلك من أحاديث تؤكد هذا المعنى ، وبيان للفقهاء في علة التحريم المطردة التي يبني عليها القياس في غيرها .

وربا البيوع هذا ثبت تحريمه بالسنة ، أما النوع الآخر من الربا وهو ربا الجاهلية ، وهو ربا الديون ، وهو الزيادة في الدين في نظير الزيادة في الاجل ، فإن تحريمه ثبت في القرآن الكريم ابتدأ تحريمه في مكة ، فقد قال تعالى في سورة الروم المكية ، ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون ﴾ ، ونزل التحريم القاطع في القرآن الكريم بعد الهجرة النبوية ، فقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ والربا هو الزيادة ، ولا شك أن

تكرار الزيادة سنة بعد سنة يضاعفها اضعافاً مضاعفة فالمضاعفة في الزيادة لا في أصل الدين كما فهم بعض الذين يأخذون بالألفاظ الظاهرة من غير تمحيص لمعناها ، وتعرف دقيق لمبناها ، ولا محاولة لإدراك الحكمة من تحريم الربا .

ولقد جاءت من بعد ذلك نصوص قاطعة في التحريم ، قال تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يمحق الله الربا ويربي الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون ﴾ .

هذا نص قرآني قاطع في تحريم ربا الديون ، وهو ربا الجاهلية ، وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل ما الربا الذي لا يسع مسلماً أن يجهله : قال رضي الله تعالى عنه أن تعطي الرجل ديناً ، وتزيد في الدين نظير الأجل ، ولكن ناسا ممن استهوتهم المدنية الاوربية بعجرها وبجرها قد حسبوا أن نظام الفائدة يقوم عليه النظام الاقتصادي في العالم ، فكيف نحرمه ، وينسى اولئك أن الاستعمار الأوربي كان يدخل وراء الربا ، وأن الربا نظام يهودي ، وأن الاستعمار يتخذه ذريعة لمآربه لدخوله أي بلد اسلامي . فمصر احتلت بالربا وبلاد افريقيا كلها وبعض آسيا كان الربا فيها أحبولة الشيطان التي اصطادبها ملوك المسلمين وحكامهم وقد يقول قائل المقلدين للفرنجة كيف نتخلص من الربا ، وقد سال

سبله ، وعم ، ونقول لهم قد تنبأ النبي ﷺ بذلك ، فقد روى الإمام احمد بن حنبل عن النبي ﷺ انه قال : « يأتي الناس زمان يأكلون فيه الربا ، قيل الناس كلهم يا رسول الله ؟ قال النبي الكريم : من لم يأكله ناله غباره » . وان ذلك من دلائل النبوة، فإن هذا هو زماننا الذي ابتلينا به والذي تفرقنا فيه ، وأكلتنا ذئاب الأرض

وانه إذا كنا نحرم الربا في كل صوره ، فانا ايضاً نحرم القمار والميسر في كل مظاهره فقد وجدنا عقود القمار التي تسمى التأمينات التي تعقد بين الآحاد والشركات تسير مع الربا جنباً لجنب ، وهو يلازمها فعقود التأمين على على الحياة ، وعقود التأمين على البضائع من القمار ، وليس منه التأمينات الاجتماعية التي يتضافر فيها جماعة من الناس في ظل الدولة، أو بتنظيمها في أن يكفلوا لكل من تهلك بضاعته ، أو تذهب نفسه ويترك عيالاً ضياعاً، على أن يؤدي كل واحد جزءاً من المال بشكل رتيب شهري أو سنوي ، وأن تكون الفائدة للمجموع تصرف من هذه المصارف ، والخسارة على المجموع، فإن ذلك تعاون، والله تعالى يقول : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ .

وقد يقول قائل إن النظام الاجتماعي يقوم على الاقراض ، والاقتراض ، ولا يتم ذلك إلا بالفائدة وإن التأمينات بكل صورها ضرورات اقتصادية ، ولا مناص منها ، فكيف تريد أن تهمل ذلك الجامعة الإسلامية إهمالا ، إنها بذلك تهدم البناء الاجتماعي ، ولا يمكن أن تقوم مدنية بغيره إسلامية كانت أو غير إسلامية ، ونحن نقول في الجواب عن ذلك : إننا نريد مدينة فاضلة تخلو من سحت الفائدة وسحت القمار معاً ، وليس فيها خير لا يمكن أن يتحقق من دونها ، فإذا كان الشر ينتج خيراً ، فالخير لا ينتج إلا خيراً وهو خير لا يشوبه شر .

وإذا اريد نظام إسلامي ، فإنا نقيمه على أساس التعاون ، ومصارف

الإدخار التي يكون نظامها قائماً على التعاون بين المقرض والمقترض، بين المصرف ومن يعامله ، فإن خسرا خسرا معا وإن كسبا كسبا معاً .

ويكون منه التأمين على البضائع ويكون منـــه القرض الحسن الذي لا فائدة فيه ، ولا ما يشبه الفائدة .

وأما التأمين على النفس فيكون بالتأمين الجماعي الذي هو التعـــاون على الصورة التي ذكرناها وفي الجملة نريد أن تكون الجامعة إسلامية في نظمها ،وفي احكامها وتأليفها .

الزواجر الاجتماعية :

١٣٣ – ونقصد بالزواجر الاجتماعية العقوبات التي تكون بجوار الجرائم ، ونقول في ذلك :

لقد حد الإسلام حدوداً ووضع نظماً للعقوبات ، وتولى القرآن الكريم بيانها ، وبيان نوعها ، ومقاديرها ، واوجب على القائمين على الأمر تنفيذها.

وقد أوجب الله سبحانه وتعالى القصاص ، وذكره على أنه شريعة ثابتة في الديانات السماوية كلها، وجعل ذلك علاجاً للنفس البشرية التي من طبعها الحسد، ويدفعها الحسد الى ارتكاب الجرائم، والاعتداء ، وذكر قصة ابني آدم إذ قتل احدهما أخاه لأنهما قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر،ولنترك القول لبيان الله تعالى في كتابه ، إذ يقول تعالت كلماته :

﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ، إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لاقتلنك ، قال : انمـــا يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك اني أخاف الله رب العالمين ، اني أريد أن تبوء باثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ،

فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ، ليريه كيف يواري سوءة أخيه ،قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ،فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين﴾.

هذه جريمة ترتبت على الحسد، وهي تدل على أن الحسد يدخل حتى في ميدان التقرب ، وانك لترى أن أكثر الجرائم الانسانية تترتب على حسد في النفس ، يترتب عليه حقد كمين يدفع إلى الايذاء ، ولذا قال سبحانه بعد أن قص ذلك القصص الحكيم : ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ .

ولقد قال سبحانه وتعالى ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ﴾ .

وجاء النص بالقصاص في الاطراف والجروح مع القصاص في النفس، فقال تعالى : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون ﴾ .

ولقد نفذ النبي ﷺ عقوبة القصاص في الاطراف، كما نفذ عقوبة القصاص في النفس ، وكما قرر القرآن .

وان الإسلام يقرر انه لا يذهب دم هدراً ،ولقد روي عن علي كرم الله وجهه في الجنة « لا يطل دم في الإسلام » .

ولذلك شرع الإسلام نظام القسامة ، وهو أنه اذا قتل قتيل ، ولم يعرف قاتله حلف من أهل الحي أو القرية التي وجد فيها القتيل خمسون من أهل العدل والثقة ، يحلف كل واحد أنه ما قتله ، ولا يعلم له قاتلاً ، فإذا حلفوا كانت الدية لأولياء المقتول ، يأخذونها من بيت المال ، على أساس أنه واجب الدولة أن تحافظ على الدماء ، وما كان القتل الذي لا يعرف فيه القاتل إلا

بتقصير من الدولة ، فحق عليها أن تضمن دية من قصرت في حماية أرواحهم ، وهم في رعايتها ، أو من أهل الحي .

وأما أن تؤخذ من أهل الحي فلأنه يجب عليهم أن يتعاونوا في مقاومة الجرائم ، ورعاية الأخيار ، والضرب على أيدي الاشرار ، وذلك من قبيل التعاون على البر والتقوى ، وكل تعاون على الفضيلة ومحاربة الرذيلة تعاون على البر والتقوى وهو مطلوب ، والسكوت عن هذا التعاون يكون إهمالاً لأمر واجب الأداء على أن كل مجرم أو قاتل يكون معروفاً في قريته أو الحي الذي يسكنه في مدينة، فلا يمكن عادة أن يجهله خمسون من العدول،ويكون الجاني قد عرف من غير تجسس ولا تتبع للعورات ، ولا فتح باب للنميمة والسعاية والفساد .

الحدود :

١٣٤ – هذا بالنسبة للقصاص ، وهو العقوبات التي يكون الاعتداء فيها على حقوق العباد ، أو التي يكون فيها الاعتداء على حق للعباد غالب .

وأما العقبات التي تكون حقاً لله تعالى فهي التيتسمى في الاصطلاحالفقهي بالحدود ، والفرق بينها وبين القصاص أن القصاص قابل للعفو ، بل حببالیه القرآن الكريم في قوله تعالى في ختام آية القصاص : ﴿فمن تصدقبه فهو كفارة له﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان﴾ أما الحدود فانه لا يجري فيها العفو لأن ولي الأمر هو الذي يتولاها ، وهي حق لله سبحانه وتعالى ،ولأن إقامتها عبادةوالعفو فيها يكون تخلياً عن العبادة ، واقامتها قيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فجرائم الحدود منكرات ، وانكار العقوبة عليها إثم ، وقد وضع الله تعالى هذه العقوبات ، فلا يجوز لوالٍ أو إمام أن يتخلى عن القيام بها،وهذهالحدود محاربة للرذائل ، ومحاربة الرذائل واجبة على أولي الأمر في المسلمين ، ولقد

قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » ولا شك أن ولي الأمر هو أقدر الناس على التغيير بيده .

والتغيير باليد له صورتان : الصورة الأولى المنع من الفعل عند الهم به ، وأخذ السبيل إليه وذلك عمل والي الحسبة ، فهو لمنع وقوع الجرائم قبل وقوعها ، فإذا وقعت أخذ بصاحبها الى القضاء لينفذ حكم الله تعالى فيه .

والصورة الثانية أن يحكم عليه بالحد الذي وضعه القرآن الكريم ، وبينته السنة النبوية، وهو العقوبة التي قررها القرآن لتكون حداً بين الفضيلة والرذيلة، وبين الصلاح والفساد ، وقد طالب النبي ﷺ باقامة الحد إذا ظهرت الجريمة من غير تجسس ، ولا فتح باب للسعاية والنميمة ولذلك يقول ﷺ :

« يا معشر الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورة فاستتر فهو في ستر الله تعالى ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد » .

وإن الحدود هي حمى الله تعالى ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه .

إننا لن نكون أمة إسلامية إلا إذا اقمنا حدود الله ، ويجب أن تكون سياسة الجامعة الإسلامية في محاربة الفساد ، قائمة على تنفيذ هذه الحدود التي لا مناص من تنفيذها ، ولا سبيل لتركها وراءنا ظهريا ، كما هو الحال الآن ، إلا أن بعض الأقاليم الإسلامية تقول انها تقيم الحدود، وتنفذ الأحكام الشرعية جملة وتفصيلاً ، وان صح أن هذا الاقليم أو غيره يقيم الحدود وينفذ الشرع فيما يتعلق بها ، فانا نرجو أن يكون ذلك حكماً عاماً، لا هوادة فيه ، لأننا إذا لم نقم الحدود لم يكن مجتمعنا اسلامياً، ولا تكون قط جامعة اسلامية ، لأن الجامعة كيان معنوي ، وليست تجمعاً مادياً، والاجتماع المعنوي

يجب أن تقوم فيه الرابطة المعنوية ، وهي الدين، وأحكامه المستمدة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ والحدود كالقصاص ثابتة بالنصوص ، ولا مصدر لها إلا الكتاب ، تعرض القرآن لها جميعاً،وعين العقوبات في أكثرها،وحددت السنة الباقي ، وكان أصل تحريم الجرائم في القرآن ، فالسنة النبوية بينت أثر الجريمة ، وما يرتبه الشارع عليها في الدنيا .

١٣٥ — والحدود التي نص القرآن على عقوبتها حد الحرابة أو قطع الطريق ، وحد السرقة ، وحد الزنى ، وحد القذف ، واللعان إنْ عُدَّ حداً ، والبغي .

والحدود التي بينتها السنة حد شرب الخمر ، وحد الردة .

وحد الحرابة ثبت بقوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ﴾

وهذا الحد للذين ينتقضون على النظام العام في الداخل ، ويخرجون بقوة ليغتصبوا الناس أموالهم ، ويقتلوا حيث يكونون في مأمن من أن يغيث فريستهم مغيث ، ويسمون قطاع الطريق وتكون لهم قوة في افسادهم واكثر الفقهاء يحصرون المجرمين الذين يعاملون هذه المعاملة فيمن يخرجون لأخذ المال سرقة أو اغتصاباً ، أو يقتلون الأنفس في جمع قوي ، يغالبون به قوى الدولة ويعمم الامام مالك جرائم هؤلاء المجرمين فيشمل اسم الحرابة ، من يجتمعون في قوة لهتك الأعراض أو الاتجار فيها وفي المخدرات وانهم يشبهون في الجملة العصابات الامريكية التي تضيق الدولة الامريكية بقضها وقضيضها بهم، وقد عالجهم الإسلام بتلك العقوبات القاسية التي تجعلهم عبرة المعتبرين .

نعم انها عقوبات قاسية ، ولكنها زاجرة رادعة، وهي تتكافأ مع جرائمهم لأنهم يقضون أمن الدولة ، وفريستهم الوادعون الذين لا حول لهم ولا قوة

ومع وجودهم لا أمن ولا سلام ، ولا تستطيع الدولة تمكين الناس من أن يعيشوا في سلام في حلهم وترحالهم ، والحد الثاني وهوالسرقة ثبت بقوله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، وأصلح فان الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم ﴾ .

وان العقوبة بلا شك قاسية ، ولكن يلاحظ أنها فيمن يعتادون السرقات بدليل سقوط العقاب بالتوبة على ما فهم من اقتران التوبة بالعقاب احمد بن حنبل وبعض الشافعية وروي منسوباً للشافعي ، وهو ما نميل اليه، ويلاحظ أن النبي ﷺ قال : ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم، وإننا لو احصينا ما اتفق على قطعه الأئمة من الفقهاء ، لوجدنا أنه لا يبلغ نصف العشر من السارقين ، ولكن قطع يد واحدة في اقليم يكفي لردع السارقين ، وتقليل هذه الجريمة إلى حد ألا تكاد تكون ، واعتبر ذلك بحال الحجاز الذي يطبق فيها هذا الحد .

والحد الثالث حد الزنى ، وقد ثبت بقوله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ .

وإن العقوبة التي قررها الله سبحانه وتعالى في ذلك الحد ، إنما هي ليكون المجتمع فاضلا ، وليعيش في ظل الفضيلة وليحفظ النسل ، ولكيلا تفسد الانساب ، ولكيلا تعم الرذائل .

والكلام في ذلك مفصل في الكتب التي بينت هذا [١] .

---

(١) باب الحدود في كتاب الجريمة والعقوبة لمحمد ابي زهرة .

والحد الرابع حد القذف ، وقد ثبت بقوله تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا، فإن الله غفور رحيم﴾ وإن هذا جاء عقب بيان حد الزنى ، وذلك ليحمي المجتمع من الترامي بالفحشاء ، ورمي المحصنات الغافلات بالفاحشة، وإذا شاع ذلك فسد المجتمع ، وهانت الرذيلة على النفوس ، فأقدم عليها من كان يتصون عنها،ولقد جاء في القرآن في سياق بيان الافك الذي افك بـــه على أم المؤمنين عائشة ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ويقول سبحانه وتعالى في هذا السياق أيضاً : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيـــا والآخرة [1] ﴾ .

وإن الذين يروجون الفسق في أزمان الانحراف يتخذون من القذف ذريعة لمآربهم ، وإنه حيثما انتشر الزنا في أمة ، أو استهان الناس بـــأمره لازمه الترامي به ، وفسد الجو ، وكان الرأي العام فاسداً مرذولاً ولم يكن فاضلاً مقبولاً ، وإن الرأي العام الفاضل يهذب النفوس ، والرأي العام الفاسد يحيي الرذائل ، ويحرّض عليها ، ويستغل الناس فيه داعي الخير ،ثم يستحق اللعنة التي ذكرها الله تعالى لبني إسرائيل ، إذ قـــال تعالت كلماتـــه : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

والحد الخامس عند من اعتبره حداً اللعان ، وقد جاء كشعبة من القذف ، فحد القذف يكون إذا رمى بالزنى امرأة ليست زوجته ، أما اللعان فيكون إذا رمى زوجته ، ويقول فيه سبحانه : ﴿ والذين يرمـــون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربـــع شهادات بالله ، إنـــه لمن

---

(١) الكتاب المذكور .

الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ .

هذا هو اللعان ، وإذا تحالفا ، فرق بينهما تفريقاً أبدياً إلا أن يكذب نفسه ، وبعض الفقهاء قال : لا يعودان ، ولو كذب نفسه لأن الثقة بين الزوجين قد فقدت ، والعلاقة الزوجية قائمة على الثقة والمودة ولا يمكن أن تتحقق المودة إلا مع الثقة ، « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته »[1] .

حد البغي :

وهذه حدود خمس قد ثبتت بالقرآن ،وقريب منها في الثبوت حد البغي، وهو يهمنا في بحثنا بالنسبة للجامعة العربية ، وقد ثبتت جريمة البغي في قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي ، حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ .

ويجب أن نقف عند هذه الآية وقفة قصيرة وننبه في هذه الوقفة إلى أمرين :

أحدهما — أن الفقهاء يفرقون بين البغاة ، وقطاع الطريق أو أهل الحرابة أن أهل الحرابة يريدون الفساد لذات الفساد،من غير أن يعتمدوا في خروجهم على تأويل ديني ، وهم لا يريدون السلطان، انما يريدون السلب والنهب والقتل فهم مجرمون ، قد وجد فيهم الاتفاق الجنائي .

أما البغاة فإنهم يخرجون بتأويل ، ولا يريدون القتل والسلب ، وانتهاك الحرمات ، إنما يريدون أن يجعلوا لأنفسهم سلطاناً ، وقد يخرجون باجتهاد ،

---

(١) الكتاب المذكور .

وقد يخرجون طالبين للسلطان، وقد نص القرآن على ذلك وهو أنه على جماعة المسلمين فرض كفاية أن يصلحوا بينهم ، فان عجز أهل الرأي من الجماعة عن الاصلاح فانه يكون على الجماعة ممثلة في قوتها أن تقاتل البغاة لأن خروجهم يكون فتنة ، والفتنة تقمع بالسيف .

الأمر الثاني – أن هذا النص الكريم يرشدنا إلى ما يجب أن تتبعه الجامعة الإسلامية بالنسبة للذين يبغون على طائفة من المؤمنين بغير الحق ، فإن هذا البغي يكون موجهاً إلى احدى الطائفتين ابتداء، وهو في نهايته يكون موجهاً إلى الجامعة الإسلامية كلها .

ولذلك يكون عليها أن تبتدىء بالاصلاح بين الطائفتين ، فإن استمر البغي ، أو تبين بغي إحداهما ، فإن على الجامعة أن تقاتل الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت ، فإن على الجماعة من بعد ذلك أن تعمل على جمع القلوب التي تنافرت ، والنفوس التي تدابرت ، وذلك بالتأليف والتقريب ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ .

وإن النتيجة المؤكدة لذلك أن يكون للجامعة الإسلامية قوة رادعة ، ترد بغي الباغي وتنصف المظلوم وتمنع التقاتل بين المسلمين بعضهم مع بعض ، لكي يتحقق نص الآية ويتحقق قوله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم،ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، وقوله ﷺ : المسلم أخو المسلم لايحقره، ولا يظلمه ، ولا يسلمه ولا يخذله ، ومن كان في عون أخيه كان الله تعالى في عونه » .

١٣٦ – وهناك حدان آخران ثبت مقدارهما بالسنة ، ولكن أصل التحريم الذي هو أساس التجريم قد ثبت بالقرآن وهما حد الشرب وحد الردة فشرب الخمر ثبت تحريمه القاطع الذي لا مجال للريب فيه بالقرآن إذ يقول سبحانه تعالت كلماته : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان

أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، واحذروا ، فإن توليتم ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾، فهذا النص قاطع في التحريم ، وقد تولى النبي ﷺ بيان مقدار الحد ونوعه ، فقد روي أنه ضرب شاربا أربعين نعلا ، فقدره بعض الفقهاء بثمانين ضربة ، لأن النعل جزءان ، وقدره بعض الفقهاء بأربعين على حسب ظاهر اللفظ ، ورأى علي بن أبي طالب أن يكون ثمانين جلدة آخذاً ذلك من النص ومن اجتهاد فقهي ، فقال إنه إذا شرب هذى ، وإذا هذى افترى ، وحد الافتراء (أي حد القذف) ثمانون — فحد الشرب بهذا القياس العلوي ثمانون .

ولقد روي أن النبي ﷺ قال في شأن شارب الخمر « إذا شرب فاضربوه ، فإذا عاد فاجلدوه فإذا عاد فاقتلوه » .

وقد روي أن بعض المسلمين قال للنبي ﷺ : « إننا نعيش بأرض برد ، ونستدفىء بالخمر أفنشرب قال : لا ، قالوا إنهم لا يطيعون فقال عليه السلام فقاتلوهم » .

وفي الحديث الأول نراه ﷺ تدرج في العقاب ، فجعل عقاب أول مرة بالضرب فإذا عاد كان الجلد ، فإذا عاد الثالثة كان القتل ، لأن ذلك جحود بالتحريم فاشبه الردة .

وفي الحديث الثاني كان قتالهم لأنهم يجحدون ، ويحادون امر الله وطاعة الرسول .

١٣٧ — الردة هي الخروج عن الإسلام ، والإسلام لا يكره الناس على الدخول فيه فالقرآن الكريم ينفي الاكراه في الدين ، وينهى عنه ، فقد قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين،قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ويقول تعالى مخاطباً نبيه : ﴿إنك

لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ أفأنت تكره الناس ، حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

ولكن من دخل في الإسلام لا يخرج ، لأنه لا يمكن أن يكون قد دخل بنيته مخلصاً ثم يخرج ، إنما الذي يدخل ثم يخرج ، هو من يظهر الإسلام ثم يخرج منه توهيناً لشأنه ، ولإيهام الناس بأنه لا يتبعه لأن الحق في غيره ،وقد حدث في صدر الإسلام يوم أن صارت كلمة الله تعالى هي العليا ، وصار هذا الدين الكريم دين أهل القوة والغلبة أن دخل الناس فيه أفواجاً ، ومنهم من دخل ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، ومن دخل اتباعاً للقوة رغباً ورهباً ، ومنهم من دخل في الإسلام ليفسده على أهله ، فكانت حماية العقيدة ،وحماية الإخلاص في طلبه توجبان أن يدخل حراً ، وتوجبان أن توصد الأبواب على من اختار الضلال على الهدى ، والنفاق على الإيمان ، فكانت العقوبة الشديدة الرادعة التي تحمل من يريد الدخول في الإسلام على أن يدخل مؤمناً ، وكان عليه أن يقدر الخروج قبل الدخول .

لذلك كان العقاب الشديد الرادع الزاجر ، وهو القتل للرجل ، والحبس حتى تتوب للمرأة .

وكانت شرعية هذا العقاب بقول النبي ﷺ ، فقد قال عليه السلام :«من بدل دينه فاقتلوه » . وقوله ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا في إحدى ثلاث : النفس بنفس ، وزنية ثيب ، وردّة بعد إيمان » . وقد قاتل أبوبكر الصديق المرتدين ، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة ، بل اشتركوا معه وعاونوه ، وردّوا الردة في كل أنواعها .

قد يقول قائل : إن ذلك لغرض الطاعة ، وانهم قد خرجوا على الدولة ، فحق عليه أن يحملهم على الدخول في الطاعة ولزوم الجماعة ، ولذلك قال لهم: « إما سلم مخزية ، وإما حرب مجلية » .

وذلك حق لا ريب فيه ، وكما أنه يدل على ذلك يدل أيضاً على أن القانون النظامي للدولة الإسلامية الذي يعد أساساً لقيامها هو الإسلام ، وهو الرابطة الوثيقة التي تربط أجزاءها آحاداً وأقاليم ، وكل دولة تعد الخارج على قانونها المنظم لها خائناً أو خارجاً ، فيحل قتله .

والإسلام في قتله المرتد لا يخرج عن ذلك .

وأولئك الذين يقولون إن قتل المرتد ضد حرية الدين نقول لهم غير مترددين إن قتل المرتد بعد استتابته هو من قبيل حرية التدين ، وان تكون حرية سليمة قائمة على إدراك الحقائق ، انها لمنع التلاعب بالأديان واتخاذها هزوا ولعباً ، مما يؤدي إلى اضطراب في تطبيق القوانين ، واضطراب في الأسرة .

واعتبر ذلك بحال البلاد التي أهملت عقوبة الردة ، فقد صارت الأمور فيها إلى فوضى ، يريد رجل أن يترك امرأته ، فيدخل في الإسلام لأنه يبيح الطلاق ، ثم يطلقها وهو ما دخل في الإسلام حقيقة وانما أعلن ذلك ليقضي لبانته ، وقد ضج المتدينون من ذلك .

ولو كانت العقوبة الإسلامية تطبق ما ظهر ذلك الفساد ، ولا اضطربت الاحوال ذلك الاضطراب ، وما اتخذت الأديان هزواً ولعباً ، وقد اقترحنا علاجاً لهذا الفساد أن توضع عقوبة أياً كانت ، وإن كنا نرى أن عقوبة الإسلام هي الأردع والأمثل .

احكام القرآن والسنة تعم البلاد الاسلامية :

١٣٨ – إن الاحكام الثابتة بالقرآن والسنة ، سواء أكانت لتنظيم العلاقات بين الناس ، أم كانت للزواجر الاجتماعية واجبة فكل حكم ثابت بالقرآن أو السنة يجب أن يكون في ضمن النظام العام الذي لا يختلف فيه اقليم عن اقليم ، فلا يصح أن يحرم اقليم الربا ، ويبيحه اقليم آخر ، فانه حينئذ لا تكون جامعة

اسلامية ، لأن أساس الجامعة الإسلامية هو تنفيذ أحـــكام الإسلام مجتمعين لا متفرقين ، وإلا كانت الفرقة أشد وأقوى ، لأن مؤداه أن بعض الشعوب الإسلامية تكون مستبيحة ما حرم الله ، والأخرى طائعة ، ولا اجتماع بين عاص للاسلام وطائع له ، وإن الذين غلبوا على ديارنا من الفرنجـة وغيرهم هم الذين سهلوا لابنائنا الخروج على المبادىء الإسلامية ليلتهمونا ، وليفرقوا ديننا ، ويفسدوا أمرنا ، وما جمعه الله تعالى لا يقبل التفريق وما فرقه اعداء الدين لا يقبل التصديق .

هذا بالنسبة للاحكام التي ثبتت بالكتاب والسنة ، فإنه لامراء في عموم تطبيقها إنما الذي قد يكون الحكم فيه في اقليم غيره في اقليم ، فهو فيما وراء الكتاب والسنة من اجتهاد في أبواب التعزير ، وما تقوم عليه المصالح في المعاملات فإن كل اقليم أدرى بمصالحه ، بشرط ألا يخرج عن نص شرعي ، أو يخالف ما علم من الدين بالضرورة وما انعقد عليه اجماع المسلمين مما حرمه الدين أو أباحه ونص على أنه حلال ، فما جاء النص بأنه حلال لا مجال لتحريمه ، حتى لا يقع في النهي في قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ .

١٣٢ – ومن الناس من يثيرون اعتراضاً تحت تأثير الأفكار الأوربية التي تهاجم الإسلام ، فيقولون إن الضمير العالمي ، لا يقبل تشويه الاجسام بقطع الايدي والأرجل من خلاف ، أو بصلب الجناة ، فان ذلك تعذيب للبشر ، وهكذا .... يرحمون الجناة ، ولا يرحمون فريستهم ، ولقد رد عليهم النبي ﷺ بقوله : « من لا يرحم لا يرحم » ورد الله تعالى عليم في جلد الزناة ، بقوله تعالى : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفـــة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ .

ونقول ما هذا الضمير العالمي أهو الضمير الذي أباح سفك دماء الأبرياء ، أم هو الضمير الذي سوغ اخراج المؤمنين من ديارهم وأموالهم يأكلهم العري

والجوع ، وأن لا مأوى لهم . إنه لا يوجد ضمير عالمي يستنكر المنكر،ويقر العدل ويمنع الظلم ، إنما هو قانون الغابة الذي لا يرعى إلاً ولا ذمة ، ولا خلقاً ولا فضيلة .

وإن قطع الإيدي لا يوجد تشويهاً بل يمنع الجريمة ، وكم من أيدي نساء قطعها السراق ليأخذوا حليها ، وكم جريمة قتل وقعت في السرقات باكراه، وكم أجسام شوهت في سبيل إكمال جريمة ، إن كل ذلك يقع بسبب جريمة السرقة ، فهل تشويه الأجسام يباح للمجرمين ، ويحرم على العادلين الذين يريدون أن يمنعوا الفساد ؟

وأولئك الذين يستكثرون عقوبة الحرابة للعصابات نسألهم كم انتهكت العصابات الحرمات في المدن الأمريكية الكبرى ، حتى أن قائل الأمريكان يقول إن بعض العصابات لها ميزان من المال يبلغ في مقداره موازنة الولاية التي تعيش فيها تلك العصابة .

إننا في هذا المقام ننصح أمريكا أن تأخذ بحكم القرآن ، فإن تنفيذه في واحدة منها يقضي على جميعها ، ولكنهم تعودوا أن يدافعوا عن الجريمة ، ولا يرتضوا الفضيلة ، ولو كانت علاجاً لداء عندهم ، كشأن كل من استمرأ الشر واستطابه ، فإنه لا يذوق الخير ولا يستطيبه .

إننا ضعفنا واستخذينا عندما كنا نسترضي أعداءنا على حساب الدين والقرآن ، فصرنا نهباً مقسوماً ، يتقاسمنا الأعداء ، وتنوشنا ذئابهم .

ألا فلنرجع لديننا ، ولا يصح أن تكون جامعة الإسلام مستمدة للأحكام من غير الإسلام ، ولا نستمد الأحكام من الإسلام ، إذا جعلنا القرآن مهجوراً ، وإذا كان قائلهم يقول « إذا كان القرآن في الأرض فلا سلام » ، فنحن نقول مقالة القرآن ما دام القرآن قائماً يطاع في حكمه ، فالسلام يقوم، ولا استسلام في الأرض إنما نصر الضعفاء ، ودفع الظلم ، وسيادة الفضيلة ، ونقول للذين يريدون إرضاء أعداء الإسلام باسم الضمير العالمي ، وخشية ملام

الناس نقول لهم : أتخشون النـاس ، والله أحـق أن تخشوه ، توبوا إلى الله ، وساهموا في بناء الوحدة الإسلامية ، ولا تكونوا معاول هدم في بنيانها ، وتعاونون أعداء الله وأعداء الحق في تقويضها ، كما كانوا ، وكما هم كائنون .

١٣٩ – وقد يقول قائل : إننـا إذا جمعنا الأقاليم الإسلامية في ظـل القرآن والسنة ، فبأي المذاهب تكون الجامعة ، وما القانون المسطور الذي تنفذ أحكامه ؟ إن الناس الآن لا يخضعون إلا لقانون مسطـور ، فليس لدى كل إنسان من عامة الناس القدرة على فهم نصوص القرآن ، وجمع المرويات عن رسول الله ﷺ ، فإن ذلك اجتهاد ، ولا بد أن يكـون الاجتهـاد لأهله من أهل العلم بالقرآن واللغة والسنة ، ومن لهم قدرة على الفهم ، والاستنباط ، وليس ذلك متوافراً إلا للخاصة من أهل الذكر ، ولقد كان منذ عصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فيهم المجتهد الذي يفتي كعلي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عبـاس ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وفيهم المستفتي الذي ليس عنده دراية هؤلاء .

فما السبيل إلى قانون مسطور ، وما المذهب الذي يختار ؟

ونقول في الجواب عن ذلك انه قد قدمت بحوث كانت فيهـا دعوة لأن تكون الشريعة الإسلامية أساساً للقوانين في البلاد الإسلامية ، فما نقوله الآن ليس بدعاً من الفكر ، ولا بديئاً من القول نقوله ، ولكنا فيه متبعون، ونحن ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وقد دعا الى هذا الأمر مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية في انعقادين من انعقاده .

وقد حرك ذلك مجمع البحوث ، لاتخاذ الأهبة ، فألف لجنة لتقنين الشريعة ووضعها في قانون مسطور .

وقد سنت لنفسها منهاجاً مستقيما قويماً .

(أ) جعلت لكل مذهب لجنة فرعية ، مؤلفة من رجال الفقه والقانون فرجال الفقه يجمعون الأحكام في المذاهب ، ورجال القانون يضعون الأحكام في الصيغة القانونية ، وذلك لدربتهم على هذا .

فاخترنا لجنة فرعية لمذهب أبي حنيفة وثانية لمذهب مالك ، وثالثة لمذهب الشافعي ، ورابعة لمذهب أحمد بن حنبل ، وخامسة للشيعة الامامية والزيدية والظاهرية والاباضية .

وإن هذه اللجان تسير في طريقها قدما ، في عزيمة ناهضة ، وقلوب مؤمنة مخلصة وإن هذه اللجان الفرعية سارت في عملها ، تكلؤها عناية الله .

هذا ويلاحظ أن الأحكام التي دلت عليها النصوص القرآنية لا اختلاف فيها ، وإذا كان اختلاف ففي دلالة بعض الألفاظ التي تحتمل عدة معان ، والقرآن حمال وجوه كلها حق ، وكلها خير ، ولا حيرة فيها ، ولا ما يشبه الحيرة . وأحكام الأحاديث فيما يتعلق بالعبادات الاختلاف فيها جزئي وقليل جداً ، وهو في بعض التفريعات ، ولا يكون في أمر جوهري قط ، إنما هو في بعض السنن في الأركان ، وبعض النوافل .

وإن السير في طريق الجمع ليس بعسير ، بل هو تأليف بين مؤتلف ، وليس جمعا لأمر مختلف ، والله يوفق العاملين للوحدة الاسلامية المقدسة .

الثقافة في الجامعة الإسلامية

١٤٠ – إنه لا تتحقق الوحدة الإسلامية الجامعة إلا بتوجيه النفس الإسلامية إلى اتجاه واحد ، وقد بينا ذلك في وحدة العقيدة ، ووحدة الحكم الإسلامي المأخوذ من القرآن والسنة ، بأن يكون الجميع خاضعين لحكمها كما قال عليه الصلاة والسلام : « تركت لكم ما إن أخذتم به لا تضلون من بعده أبداً ، كتاب الله وسنتي » ؛ فذلك هو لب الاجتماع ، وبغيره لا تكون جامعة إسلامية ، وسمها ما شئت من غير أن تكون جامعة إسلامية ، بل سمها ، جامعة شرقية ، أو جامعة عربية ، لا تفلح جامعة من غير أن يكون الإسلام هو العروة التي تربطها ، والجانب الذي يركن اليه ، فالأحكام المقررة في الإسلام هي عماد الجمع ، ودعامته .

إن الوحدة الثقافية تتضمن وحدة التفكير بين الأقاليم الإسلامية .

وفي الحق ان أصل هذه الوحدة ثابت في الجملة ، ولكنه موثق بأفكار غريبة عند بعض المثقفين في الأقاليم الإسلامية على مقدار تأثرهم بأفكار الغرب ، إذ يخلطونها بالعقائد ، وانه يجب أن نقرر هنا أنه لا يوجد وحدة بين آحاد أهل دين ، أو أهل مذهب اقتصادي أو اجتماعي كما يوجد بين عامة المسلمين ، وإخوانهم المؤمنين بشريعة القرآن . ولقد قدر لي وأنا في الندوة الإسلامية التي انعقدت في لاهور في آخر ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، وأول يناير سنة ١٩٥٨ أن ألتقي بالوفود التي نزحت من البلاد الإسلامية على اختلاف الطوائف فيها ، فما

وجدت ثغرة فكرية تحول بيني وبينهم ، لا فرق في ذلك بين جماعي وشيعي، ولا بين صيني وروسي وتركي .

وإذا كانت هناك فواصل بين أحد من الحاضرين ، فإنها كانت بيننا وبين زنادقة هذا العصر الذين يتسمون بأسماء إسلامية ، كرجل كان يهدم أحكام آية المواريث ، ويدعي أنها وقتية ، وأمثاله ممن نبذ المؤتمرون كلامهم ، كما كان ينبذ الشواذ في صحراء الجاهلية . وإن السبب في ذلك الاتحاد الفكري أو تقاربه هو وحدة المصدر وهي نصوص القرآن ، وأقوال النبي ﷺ ، وإن كان ثمة اختلاف في طريق روايتها لا في أصلها.

ونقول انهم يتفقون فكرياً في هذا الأصل ولكن الاكثرين مع الأسف عند العمل يتجانفون الاثم فلا يعملون بأحكام القرآن والسنة مع الايمان بأنها الأصل ، ونريد أن يقترن الفكر بالعمل ، فلا تكون الثقافة واحدة ، والعمل غير واحد .

إن وجود أصل الوحدة في الثقافة الإسلامية أمر ثابت لا مجال للريب فيه فنواة الوحدة الثقافية الإسلامية والنفسية ثابت في كل البلاد الإسلامية مهما تختلف فيها الطوائف والمذاهب، انما الأمر الذي نريده هو العمل على انماءهذه الوحدة ، وايجاد مجتمع فكري موحد يبنيدعائم الإسلام ويقف حاجزاً دون النزعات المنحرفة التي يحاول الاجنبي وصنائعه أن تتغلغل في نفوس المسلمين ، وبث الريب في الحقائق الإسلامية ويحارب الذين اصطفاهم اعداء الإسلام ، ليحلوا عراه .

وإننا في هذا السبيل نتجه إلى أمور :

(١) جمع التراث الاسلامي :

١٤١ – يجب جمع تراث الماضي في كل البلاد الإسلامية ، لا فرق في ذلك بين ما تركه فقهاء الامصار ، وما تركه علماء الشيعة الامامية والزيدية ، بل

الاسماعيلية من مذاهب وآراء من فروع ، وأصول العقيدة مما لا يؤثر في أصل التوحيد الذي هو ركن العقيدة الإسلامية مع شهادة أن محمداً رسول الله .

إن ذلك هو تراثنا جميعاً لا تراث طائفة واحدة منا، وإذا كان الأوربيون الذين لا يؤمنون بالإسلام يتجهون إلى تلك المذاهب يدرسونها ، فنحن أهلها أولى بها وبعلمها .

وقد يقول قائل : « إن في بعض هذه المنقولات ، ما يتجافى عن بعض المقررات الإسلامية الثابتة .

ونقول في الجواب عن ذلك ان اعلانها قد يكون سبيلاً للقضاء عليها،لأن النور يميت ما لا ينمو إلا في الظلام ، وانها تحمل في نفسها أحياناً كثيرةدليل بطلانها ، وبذلك يمتنع الناس من اعتناقها والأخذ بها وان على المؤمنين مجتمعين أن يهدوا الضال ، لا أن يتركوه في غيهب من الخطأ لا يجد فيه رشاداً .

وان أكثر هؤلاء لم يصطنعهم اجنبي،وأصل الاخلاص ثابت فيهم،وكثيرون منهم طلاب حق فعلينا أن نبين الطريق إلى النور،وخطؤهم لا يمنع أن يكونوا معنا ، ولقد قال الإمام علي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه في الجنة : « ليس من طلب الحق فأخطأه – كمن طلب الباطل فأصابه » .

ومهما يكن في بعض الآراء من مخالفة للمنقول والمعقول فهو من التركة التي نقوم عليها ، ولا نهمل التركة ، لأن فيها بعض الزيوف ، بل يجب أن نفحصها فحص الصيرفي ليستبعد زيفها ، ويحفظ جيدها .

واننا بهذه الدراسة للتركة الإسلامية الثرية من غير محاولة لتفضيل طائفة على أخرى نحقق مقاصد ثلاثة :

(١) وصل ماضي الأمة بحاضرها ، فإن كل حضارة لها إطار من الافكار والموروثات تصل ما بين الحاضر والغابر ، وإن تقدم هذه الأمة يجب أن يكون متصلاً بتاريخها ، كما قال الإمام جمال الدين الافغاني حكيم الإسلام ، وأول

داع إلى الوحـــدة الإسلامية في عصرنا ، وباعث الوعي الفكري في كل بلاد الإسلام .

(ب) وألا يكون العالم الإسلامي منحازاً في جانب من جوانبه ، بحيث لا يتجه إلى الجانب الآخر ، ولا يتعرف ما فيه ، فتلك عصبية مذهبية أو طائفية تلتقي مع العصبية الجاهلية في نتائجها وثمراتها وان خالفتها في منبعها وأسبابها ، فتلك نـُعرةٌ جنسية نسبية ،وهذا انحراف فكري وتعصب مذهبي.

(جـ) أن تتقارب الطوائف الإسلامية ، فان دراسة التراث الإسلامي كله من غير تجزئة ، بحيث تدرس كل طائفة ما عند الاخرى — يقرب ما بـــين الطوائف ، ويزيل تلك النعرة غير الطبيعية التي خلفتها الاختلافات القديمـة في الماضي .

وإن هذا يتحقق لنا به هدف مقصود ،وهو التقريب ما بين الطوائف ،بحيث يكون خلافها مذهبياً كالخلاف بين الحنفية والمالكية والحنابلة ، ونحن في مصر ندرس بعض اراء الإمامية على أساس أنه مذهب يؤخذ منه ، وكذلك ندرس الزيدية بل ندرس بعض آراء الإباضية .

ان التقريب بين الطوائف الاسلامية يجب أن يكون غـــاية مقصودة في الجامعة الاسلامية ، إن أسباب الخلاف قد زالت ، ومن الخطأ أن يبقى الخلاف الطائفي مع زوال أسبابه ، وكيف يكون بيننا تنافر فكري بسبب أن عليا أفضل من أبي بكر وعمر ، أو أنهما أفضل منه « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت» ومعاذ الله تعالى أن يكون من أولئك الابرار من ارتكب خطيئة أو إثماً نحو الاسلام ، ولقد سئل الامام الشافعي عن أهل صفين ، فقال رضي الله عنه واقعة قد كفاني الله شهودها ، فلماذا لا أبرىء لساني من الخوض فيها .

اننا نقول مع الاسف الشديد ان الخلاف الطائفي يشبه أن يكون نزعة عنصرية ، وان الذين يريدون الكيد للمسلمين يتخذون من ذلك منفذاً ينفذون

منه الى صفوفهم ، ليقطعوا الوحـــدة الاسلامية ، فيجب أن نسد الطريق أمامهم .

وقد جرب المسلمون ذلك في الماضي الذي ذكرناه ، فيجب أن نعتبر به فالماضي نور يضيء الحاضر .

ان الخلاف بين الطوائف ليس في أمر ما يتصل بعقيدة التوحيد وبشهادة أن لا اله إلا الله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا بالأصول التي تعتبر لب الدين كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وغيرها مما جاء به نص القرآن الكريم ، وجل الخلاف الطائفي ليس في مسائل تتعلق باللب ، وان ادعت بعض الطوائف أنها من اللب .

لهذه الأمور نرى أن الطوائف الاسلامية يجب أن تتفق وتتلاقى على محبة من الله ورضوان ، تحت ظل كتاب الله تعالى، والسنة الصحيحة ، والمقررات الاسلامية التي علمت من الدين بالضرورة . انه لا مانع من أن تختلف ، ولكن اختلاف آحاد في مسائل علمية ، ولا يكون اختلافنا اختلاف جماعات وطوائف تفرق شمل الأمة ، وتجعلها قطعاً متنابذة متنافرة .

تحويل الطائفية الى مذهبية :

١٤٢ — لسنا نقصد محق الطائفية، وإدماج المذاهب الاسلامية في مذهب واحد ، فان ذلك لا يجوز ولو جاء لا يكون عمـــلا ذا فائدة لأن إدماج المذاهب في مذهب واحد ليس عملاً علمياً عند العلماء فان كل مذهب مجموعة من المعلومات أقيمت على مناهجه ، تتجه في مجموعها إلى النصوص الاسلامية والبناء عليها ، وهو ثمرات جهود لأكابر العلماء في كل مذهب وكل إدماج فيه

افناء ، وليس من المصلحة العلمية في شيء افناء تلك الجهود الفكرية التي قامت في ظل القرآن والسنة الثابتة . يجب أن تكون كل الجهود قائمة على أصولها ، يرجع اليها ويختار أصلحها للعمل ، وأكثرها ملاءمة مع مصالح الانسان في كل الأزمان ، وأقواها اتصالا بالقرآن مع بقاء المصدر في موضعه يرجع اليه .

وفوق ذلك فان المذاهب الاسلامية تراث علمي هو لجميع المسلمين ، لا لطائفة من الطوائف ، ومن المصلحة العلمية ، الاستحفاظ عليه ليبقى تراثاً خالداً .

وان الأمم الأوربية على اختلاف قوانينها تدرس القانون الروماني ، والشرائع القديمة ، لأنها ثقافة لا بد منها ، فكيف نفكر في إهمال جزء من ثقافتنا العالية التي كانت في القرون الماضية في ظل الاسلام ، وحملت معها صور الفكر في تلك القرون .

وفوق ذلك فان إدماج المذاهب بعضها في بعض فوق أنه لا يصح أن يكون – لا يمكن أن يكون بل هو أمر لا ينال ، اذ أن أساس الادماج هو الاتفاق على مذهب واحد ، وان الاتفاق في الفروع على رأي واحد امر غير ممكن ، بل هو من قبيل المستحيل الذي لا يدرك ، فانا اذا خلصنا الفقهاء من التعصب المذهبي لا يمكن أن نقدر اتفاقهم في منازعهم الفكرية ، وبيئاتهم الاجتماعية .

وهنا يثور اعتراض يبدو باديء الرأي وجيهاً ، وهو كيف يمكن محو الطائفية ، وبقاء المذاهب التي تحملها هذه الطوائف ؟

ونحن نقول في الجواب عن ذلك: إن المذهب ليس ملازماً للطائفة ملازمة لا يقبل الانفكاك عنها ، ولا يتصور له وجود من غيرها ، فان الطائفة جماعة تتجمع حول مذهب تعتنقه ، وتدعو اليه ، ويعد كل من لا يعتنقه خارجاً عنها ، وليس منها .

أما المذهب فهو مجموعة علمية تبقى حافظة كيانها ثابتة، لأنه تراث فكري

وهو أمر معنوي منفصل في التصور عن الجماعة التي تعتنقه ، فإذا دعونا إلى محو الطائفية فمعنى ذلك ألا يكون ذلك التجمع الذي يختص في موضع من الأرض بعنوان طائفي ، ويعد المتجمعون أنفسهم موجوداً منفصلاً عن غيره من المسلمين .

وإذا انفصل المذهب عن الطائفية كان لكل مسلم أن يعتنقه أو بعضه من غير أن يدخل في تجمع طائفي ، فيصح للسني أن يأخذ بفروع الفقه في مذهب الإمام زيد من غير ان يعد شيعياً زيدياً ، وأن يتبع الإمام جعفر الصادق فيما صح النقل فيه عنه ، من غير أن يكون امامياً اثنا عشريا أو اسماعيلياً ، ويصح أن يختار بعضاً من المذهب من غير أن يدخل في طائفته .

وان ذلك ينمي المذهب ، ويحييه ، وينشره ، ويكثر اتباعه ، فإن انحيازه في طائفة معينة ، قد يكون حجاباً يمنع غيرها من أن يدرك ما في هذا المذهب من أراء قيمة صالحة ذات فائدة خاصة ، أو ذات دليل أقوى أو أكثر ملاءمة للناس من غير مخالفة للنصوص ولا للمقررات الشرعية الثابتة التي لا يصح لعالم أن يخالفها .

وانه من الحق علينا أن نقول : إن مصر منذ نحو من اربعين سنة قد اخذت نظام الاسرة من المذاهب المختلفة ، فأخذت من الإمامية والمالكية والحنابلة ، وتحللت من التقيد بمذهب أبي حنيفة ، فاجتازت بذلك الحاجزات المانعة ، غير ملتفتة للمنزع الطائفي .

ففي الطلاق المعلق اخذت بمذهب الشيعة الامامية ، فلم توقعه على تغيير قليل فيه اذ التفتت إلى مقصد المعلق ، وأخذت بأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا طلقة واحدة ، وهو أحد الآراء في مذهب الامام جعفر الصادق مذهب الإمامية ، وقد قيل إنها اخذت من فتاوى ابن تيمية ، وهو قد صرح في فتاويه بأنه اخذ من مذهب الامامية ، وإن لم يصرح باسمهم فقد صرح باسم أئمتهم .

وفي القانون رقم ٧٧ لسنة ١٦٤٣ وهو قانون الميراث اخذ بمذهب الامامية في جعل الميراث مولى العتاقة أو كما سماه الإمـــامية مولى النعمة إذا لم يكن وارث بالنسب أو السبب .

وفي القانون رقم ٧١ لسنة ١٩٤٦ ، وهو قانون الوصية أخـــذ بمذهب الإمامية في جواز الوصية للوارث .

والمشروع الذي وضعته لجنة الأحوال الشخصية التي ألفتها رياسة الجمهورية سنة ١٩٦٠ ، أخذت من مذهب الامامية أن الطلاق لا يقع إلا أمام شاهدي عدل، وأخذت من مذهب الظاهرية انه لا يقع في غيبة الزوجة إلا بعد علمها.

وهكذا اجتازت مصر كل حاجز يمنعها من اعتبار الامامية مذهباً لا طائفة وانه يحق لبعض العلماء في مصر ، أن يفاخروا العالم الإسلامي بأنهم أزالوا الحجزات التي تفرق بين الامة الاسلامية في الفروع ، وكانت في هذا ترجح تلك المذاهب بالدليل أحياناً وبرعاية المصالح أحياناً ما دامت لا تعارض نصاً من النصوص الشرعية .

(٢) التعارف الاسلامي :

١٤٣ — نقصد بالتعارف الاسلامي أن يعرف كل مسلم في أي اقليم من الأقاليم الاسلامية . أو على الأقـــل يمكنه أن يعرفه في دراسة للكتب أو برحلات يقوم بها ، أو نحو ذلك من طرق التعارف المختلفة ، وان السبيل لذلك أن تكون عند كل اقليم اسلامي دراسة كاملة لغيره من الأقاليم ، كما يدرس الاقليم ذاته ، فان كل أرض الاسلام ملك لكل المسلمين ، ولا يجوز أن يجهل انسان أرضه ، فان جهل أرضه فقد سفه نفسه .

وإنه لذلك يجب أن تدرس تاريخ دخول الاسلام في كل اقليم اسلامي ، وكيف كانت حاله ، وما أقامه فيه من حضارات عادلة ، ومـــا قوضه من عادات أو تقاليد لم تكن عادلة ، فيعرف تاريخ الاقليم في جاهليته واسلامه .

وتعرف حال كل اقليم ، وما فيه من ينابيع الثروة والخير ، وحال هذا الاقليم في معاملاته الخارجية ، وما ينبغي أن تكون عليه بعد الوحـــدة ، الجامعة ، فمثلاً تعرف المنافع الطبيعية للثروة في اندونيسيا ومـــا فيها من خيرات الأرض مـــا لو تسابق اليه المسلمون لعمت فائدته لهم بدل أن يكون لاعداء الاسلام في البلاد التي تتربص للاسلام بالمكيدة تدبرهـــا ، وبالشديدة تنزلها .

ان كل معدن أو ركاز في باطن أرض اسلامية هو للمسلمين أجمعين ، وليس لأهل الاقليم الا حصة فيه بمقدار نسبته في تعداد المسلمين .

وانه لأجل أن يكون هذا التعريف كاملاً يجب :

(أ) أن يكون من ضمن مناهج التدريس في المدارس الاعدادية والثانوية موضع لدراسة تاريخ كل اقليم اسلامي وجغرافيته الطبيعية والاقتصادية، وماتصدره من خيرات ، وما تكتنزه أرضها من فلزات وانه لمـــن التخاذل الاسلامي الذي يعد عاراً أن يدرس الطالب المسلم جغرافية انجلترا وفرنسا وامريكا وتاريخ هذه البلاد ، ولا يعرف تاريخ باكستان ولا اندونيسيا ، ولا تعدادهما .

لنا ان نقول ليس العار في دراسة البلاد الاجنبية ، لأن هذه الدراسة علم ولا عيب ولا عار في تعرف عام من أي جانب كان ، انما العيب كل العيب ، والعار أن يجهل تاريخ بلاد الإسلام ، وإذا ذكرت لا يعرفها المثقف إلا عن طريق الفرنجة ، وعلمهم في ذلك شانه تحري كتابة ألا يذكروا الحقائق كاملة ، أو لا يذكروها سليمة كل السلامة ، بل انهم ينقصون عدد المسلمين فيها ، ويطففون فيهم .

لقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا التقى المسلمان فلم يتعارفا نقص من ايمانها » فكيف تكون الحال، ونحن نجهل اهل الاسلام، وهم أهلنا، وأرضهم وهي أرضنا .

إن الدين الاسلامي دين التعارف، ولقد روينا من قبل أن النبي ﷺ قال: « خير الاسلام أن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وللحديث معنى يؤدى من لفظه ، ومعنى يفهم بالاشارة وهو أن التعارف الاسلامي واجب .

وان الطلبة يجب أن يهيأوا وهم صغار على أن يفتحوا عيونهم إلى المسلمين، ليكون الإسلام واهدافه في قلوبهم منذ نعومة أظفارهم .

(ب) وانه من طريق التعارف الاسلامي ايفاد بعوث علمية من علماء المسلمين أهل الخبرة في طبائع الاشياء ليدرسوا أراضي الاسلام ، وما عساه يكون فيها من خير ينفع الجميع ، ولا يقتصر نفعه على الاقليم ، وانه يجب مع ذلك القيام بتقويم للبلاد الاسلامية ، تحصى فيه مواردها ، وسكانها،وتبين احوالهم الاجتماعية ، وقد همت بذلك بعض الجماعات، وأن تنظم رحلات مستمرة من شباب الأمة وكهولها ، ليعرفوا اخوانهم في أقاليم الاسلام، بحيث يوجد إحساس عام ، باللقاء المستمر . إن كثيرين من المسلمين يتجهون إلى المصايف الأوربية ، والاثرياء ينفقون اموالهم اسرافاً وبداراًهنالك في فرنسا وسويسرا اليهودية في منزعها ، وفي تعصبها ، وايطاليا ، وهكذا .. بينما في البلاد الاسلامية مصايف ومشات تهواها الانفس ، وفيها متعة الرحلة، ومتعة السياحة والاصطياف ، ومتعة اللقاء الاسلامي .

ونريد أن نذكر أمراً جديراً بالاعتبار ، واستخلاص العبرة والموعظة هو أن الأوربيين والأمريكان يستمتعون بالذهاب الى اسبانيا ، حتى ذكروا أنها أكبر بلد يستفيد من السياحة ، حتى قدروا مورده من السياحة بنحو مليارمن الدولارات أو يزيد ، وما الذي يستمتع بـه الامريكيون في اسبانيا ، انهم يستمتعون بأمرين – أولهما – جمال الآثار التي تركها العرب وربما يكون ذلك بالمحل الثاني ، لا بالمحل الأول – وثانيهما – وهو المحل الأول أن يستمتعوا بأنهم أخرجوا العرب ، وحولوا مساجدهم إلى كنائس، ومآذنهم إلىأجراس ، وهذا النوع من المتعة هو بالمحل الأول لا بالمحل الثاني فاعتبروا يا أوليالأبصار.

(جـ) وهناك طريق للوحدة والتعارف مفروض في الاسلام ان أدركنا معناه ، وعرفنا مغزاه ومرماه ، وهو الحج الى بيت الله الحرام ، فانه فريضة محكمة باقية الى يوم القيامة والحج كما أشرنا من قبل هو طريق للتعـــارف الاسلامي لو نظم على وجهـــه الشرعي الصحيح ، وكان المسلمون الأولون حريصين على أن يجعلوا منه سبيلاً للتعارف الاسلامي ، والروايات للاحاديث النبوية والدراسات الفقهية ، وانك لترى أن أبا حنيفة يلتقي بمالك في موسمه ويتذاكران مسائل الفقه ، ويلتقي بالأوزاعي في سوق الخياطين بمكة ، واحمد ابن حنبل يلتقي بالشافعي ويلقي عليه فقهه في البيت الحرام ، وكان ابو حنيفة يلتقي بالامام محمد الباقر ، وابنه الامام جعفر الصادق ، ويأخذ عنهما ، وهو يحج الى بيت الله الحرام .

وقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على أن يرأسوا موسم الحج بأنفسهم ، وظل عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه حريصاً على أن يلتقي بعمال الأمصار في موسم الحج طول خلافته ، وكان يتعرف أحوال الحجاج ومن وراءهم من أهالي الأقاليم ، وكان ينزل إلى الحجاج من كل اقليم اسلامي يتعرف شؤونهم وأحوالهم ، ومعاملة الولاة لهم ، وكان يخطب في عرفات خطبة جامعة ، يبين فيها علاقة الحاكم بالمحكوم ، وقد سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في خطبة الوداع سنة التعريف بالاسلام وبحقائقه في موسم الحج .

وكان أئمة الفقه كما أسلفنا حريصين على حضور موسم الحج فيلتقي علماء الامصار بعضهم ببعض فيتذاكرون مسائل العلم وأحوال المسلمين وقد ضربنا على ذلك الامثال فيما ذكرنا من بعض لقاء الائمة ، وهكذا كان الحج في الماضي مثابة للتعارف الاسلامي ، فهل لنا أن نطلب إلى حكام الاقاليم الاسلامية الالتقاء فيه ليتشاوروا فيما بينهم ، وانه لن تكون لنا قوة في الأرض إلا اذا حققنا مقاصد الاسلام في عباداته .

واننا نطالب الحكومة التي تتولى الآن ولاية البلاد في الحجاز ، وسدانة

الحرمين الشريفين أن تعمل على أن تمكن المسلمين من أن يتعرف بعضهم ببعض، وأن تتعرف بالعلماء الذين يقومون بفريضة الحج ، وتقيم ندوات علمية بينهم، فالفقهاء يجتمعون في ندوات تتدارس الفقه الاسلامي ، والاقتصاديون يجتمعون في ندوات لدراسة الاقتصاد الاسلامي ، والعمل على تنفيذ أحكام القرآن ، وكذلك المهندسون والأطباء ، وبذلك يكون الحج طريقاً للتعارف والمعرفة كما كان البيت الحرام مثابة للناس وأمناً ، وبذلك يشهد المسلمون منافع لهم .

ان هذا أمر يمكن تنفيذه من الآن ، وانه سينظم على وجه أكمل ، اذا قامت الجامعة الاسلامية .

(٣) اللغة العربية :

١٤٤ - انمعرفة الداء سبيل معرفة الدواء، وقد علمنا أن إماتة اللغة العربية في الأقاليم الاسلامية ، واحياء اللغات الاقليمية كان هو الداء الذي عمل على تفريق المسلمين ، وذهاب ريح الدولة الاسلامية ، وان ذاك يشير حتماً إلى أن من الأصول الاولى للجامعة الاسلامية إحياء اللغة العربية في كل الأقاليم الاسلامية ، لقد كان المسلمون مجتمعين يوم ان كانت لغة الدولة ، ولغة الحكومات في الاقاليم ، فكان حقاً عليها أن تردها الى مكانتها ، لأنها لغة القرآن أولا ، ولغة الاجتماع الاسلامي ثانيا ، ووعاء العلم الاسلامي ثالثاً ، فلا بد أن نعد هذا الوعاء ليكون للمسلمين أجمعين .

وانه مع هذا الاعتبار التاريخي لا يتم التعارف بين المسلمين إلا إذا وجدت لغة جامعة بينهم ، بحيث ينزل المسلم في أي اقليم اسلامي ، فلا يتعذر عليه أو يتعسر الخطاب مع أهله ، ولا يستعصي عليه البيان الا بمترجم .

ولا نقصد بذلك إماتة اللغات الاقليمية التي انبعثت مع الشعوبية في القرون الخوالي ، كما أسلفنا في اسباب التفرق ، حتى لا تتحرك العصبيات الاقليمية التي يحاول أعداء الاسلام أن يحاربوا بها الوحدة الاسلامية بتأجيج نيرانها وانما

نريد أن يتعلم المسلم المثقف بجوار لغة اقليمه اللغة العربية التي هي الجامعة بين المسلمين ، وهي لغة القرآن ، اننا نرى الشباب المثقف في البلاد الاسلامية يتعلم مع لغة قومه لغة اوربية أو لغتين ، فلو قلنا ان على المسلم المثقف أن يستبدل باحدى اللغتين الأوربيتين لغة تجمع بينه وبين اخوانه المسلمين لا يكون في ذلك شطط أو ارهاق ، ولا نكون قد اعتدينا على قوميته ، وان كان يجب أن يكون نظره الى قومه من وراء نظره الى الاسلام ، فلا يصح أن يعين قومه على خفض كلمة الاسلام ، وتعارف المسلمين ، اننا لنرجو أن يكون في قلبه موطن لدينه فوق تعصبه لقومه، والا كان معيناً قومه على الظلم وتلك هي العصبية الجاهلية ، واذا كنا لا نعارض في انبعاث القومية أو في بقائها فانا نريدها قوة للمسلمين ، وبذلك يكون قومه في حماية المسلمين ، لا في حماية أجنبية لا تريد به الا الخبال ، والضياع ، كما ضاع من قبل .

اننا ننزل في أي بقعة من أرض الاسلام فنجد من يستطيع التكلم بالانجليزية أو الفرنسية ، ولذلك لا يكون الانجليزي أو الفرنسي غريباً في أرض الاسلام بينما العربي اذا نزل في أرض اسلامية يكون غريباً اذا لم يجد الانجليزية أو الفرنسية أو يجد مترجماً بينه وبين أخيه المسلم .

واذا دخل الانجليزي أو الفرنسي اقليماً اسلامياً وجد من المسلمين من يسارع بالتحدث اليه بلغته مفاخراً بذلك ونحن لا نريد أن نلغي تعلم الانجليزية أو الفرنسية كما لا نلغي اللغة القومية للاقليم ، ولكن نريد أن يكون للغة العربية مكان مثل الانجليزية أو الفرنسية ليتمكن المسلم من أن يخاطب أخاه المسلم المثقف من غير توسط مترجم ، أو توسط لغة أخرى .

أليس من العار أنه في البيت الحرام ومهبط الوحي في موسم الحج ، حيث يلتقي المسلم العربي بالمسلم الهندي ، لا يستطيع احدهما أن يخاطب الآخر إلا بالانجليزية أو الفرنسية .

وأليس من الغرابة أن يدعو الله عالم السر واخفى باللغة العربية ،ويخاطب

اخاه المسلم بالانجليزية أو الفرنسية ، وإذا لم يكن العربي مجيداً لهاتين اللغتين كان المترجم بينهما .

إن وجود لغة جامعة أمر لا بد منه في تكوين الجامعة الإسلامية ، وإذا كان لنا أن نختار لغة فأي اللغات نختار ؟ إن البداهة تقول اللغة العربية،بل ان بعض القراء -- يجد غرابة في توجيه هـذا السؤال ، إذ لا موضع له ، لأن الأمر المتيقن الذي تقره البداهة لا يسأل عنه ، ويكون السؤال عنه غريبـاً في المنطق والعقل .

ولسنا ندعو إلى العربية إحيـاء للعصبية العربيـة ،أو لأي معنى يتصل بذلك ، ولكن ندعو اليها ، لأنها أولاً لغة القرآن ، ولغة السنة ثانياً، ولغة العبادة الإسلامية ثالثاً ، فهل من المسلمين من يصلي بغير قراءة الفـاتحة بالعربية ، وهل من المسلمين من يكبر تكبيرة الاحرام في الصلاة بغير العربية، وهل في المسلمين من يحرم في الحج ، ويلبي بغير اللغة العربية ، وهـل من المسلمين من يتلو القرآن بغير اللغة العربية ، ويعتبر تلاوته عبادة .

لقد أوجب الامام الشافعي كما ذكرنا على كل مسلم أن يعرف قـدراً من العربية يصحح به دينه ، وعلل ذلك بنزول القرآن باللغة العربية ، لا بلغة غيرها ، لأنه كيف يسوغ لشخص لا يعرف العربية أن يقرأ سورة الفاتحة من غير أن يفهم ما اشتملت عليه من حمد لله وضراعة اليه ، وبيان وحـدانيته ورحمته ، وكمال سلطانه ، وكيف يسوغ له أن يقول : الله أكبر من غير أن يعرف معناها وكيف يسوغ لخطيب أن يخطب على منبر خطبة الجمعة بالعربية من لا يفهمونها ، بل كيف يسوغ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يتلو القرآن أويستمع اليه من غير أن يعرف آيات الترغيب والترهيب ، والآيات الكونية ، والآيات التي تبين الاحـكام الشرعية من نـكاح وطلاق وميراث ، ومعاملات ، وحدود وقصاص .

لذلك نجد أن اللغة العربية هي تجمع المسلمين في الحاضر ، كما جمعتهم في

الماضي ، فلسنا والحمد لله ندعو للعربية تعصباً للعرب ولكن ندعو اليهاتعصباً للاسلام ، ورغبة في الوحدة الإسلامية .

وإن المسلمين المخلصين في كل بقاع الأرض يدركون هذه الحقيقة ويؤمنون بها ، والمثقفون منهم يعلمون ذلك علم اليقين إلا أولئك الذين طمس الله على بصائرهم فعموا وصموا ﴿ انهـــا لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ .

إن بعض هؤلاء الأعاجم الذين لا يعرفون من العربية شيئاً سوغوا لأنفسهم الاجتهاد معتمدين على القرآن وحده ، وهم لا يعرفون كلمة واحــــدة عربية وانهم قوم بور ، أو كما قال الفخر الرازي مقتبساً من القرآن لأمثالهم : «انهم قوم سدى ، لم يهتدوا ولم يستمعوا إلى كلمة الحق التي تهديهم » .

إن اللغة العربية ليست لغة القرآن والسنة فقط ، بل لغة التراث الاسلامي كله ، فالفقهاء على شتى مناهجهم ومذاهبهم قد دونوا علمهم باللغة العربية ، وكذلك الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي ، وتفسير القرآن والحديث كل اولئك كان باللغة العربية .

وكيف يترك مثقف اسلامي علوم فخر الدين الرازي وعلوم الغزالي ، وعلوم محمود جاد الله الزمخشري ، وعلوم أبي بكر الرازي الشهير بالجصاص ، وغيرهم من كبار علماء فارس وخراسان ، وعلماء ما وراء النهر الذين دونوا باللغة العربية كنوزاً من العلم وآثار الفكر الاسلامي ، سواء أكانت في المعقول أم كانت في المنقول .

نعم إن بعض الآثار العلمية أو الأدبية كان يصدر بغير اللغة العربية ، ولكنه نادر ندرة تجعله غير مذكور في الحساب ، وكان في عصر محاربة اللغة العربية ومحاولة احياء اللغات القومية ، وليس على أي حال شيئاً مذكوراً .

١٤٥ – إن إهمال اللغة العربية اهمال لصدر تاريخنا ، وما ينبغي لمثقف

مسلم أن يجهل تاريخ الاسلام ، ولا يليق بمثقف مسلم أن يقرأ عـــدة تراجم بالانجليزية لخطباء اليونان والرومان وخطب الانجليز ، وكتاباتهم ، ولا يقرأ خطب رسول الله ﷺ ، وخطب علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب، وخليفة رسول الله صديق هذه الأمة .

ولكن هذه الأمور الغريبة صارت أمراً مألوفاً عند أولئك الذين استضعفوا أنفسهم وارتضوا أن يكونوا تابعين لاعداء الإسلام ، وذيولاً لدولهم .

إن الشعوب الإسلامية على تباعد أقطارها كل لغاتها متأثرة باللغة العربية ، فالفارسية فيها الفاظ عربية كثيرة والأردية لغة باكستان أو لغة الهنود عامة، فيها الفاظ عربية تبلغ نحو ستين في كل مائة أو تزيد .

وذلك لأن اللغة العربية كانت هي اللغة الجامعة في الماضي ، حتى كان الافتراق ، فعندئذ ضاق ظلها ، أو تقلص ، واقتصر على من يتكلم العربية صحيحة أو عامية ، وإن ندر الأول .

ولا أقول ذلك لأنها كانت المظهر الاجتماعي والتلاقي فقط، بل أقول ذلك، لهذا ولأن تعلم العربية للمسلم اسهل من تعلم أي لغة اخرى بالنسبة لتلك الاقاليم ، لكثرة الألفاظ العربية في تلك اللغات ، ولأنهم يتلون القرآن ، بل منهم من يحفظونه وهو باللغة العربية .

ولذلك قال بعض أهل الخبرة : « إن الباكستاني يستطيع أن يتعلم العربية وينطق بها في مـــدة لا تزيد على ستة أشهر مهما تكن سنه ، ومهما يكن مقدار ثقافته .

ولقد حاولت باكستان أن تجعل اللغة العربية لغتها الرسمية بدل الانجليزية التي لا تزال الآن اللغة الرسمية لهذه البلاد المسلمة ولكن حـــال دون ذلك أولئك الذين لا يزال يعشش في رؤوسهم الأجنبي بتفكيره ونزوعه .

وانه بجوار أولئك الذين تملأ رؤوسهم الحضارة الأوربية ونزعاتها يوجـد

وهم مضعف يتوهمون معه صعوبة تعلم العربيـــة ، وغواش من الحواجز التي تحاجز بين الباكستاني ، وبين دينه الذي توجب حقائقه المقررة معرفة العربية لمن يريد أن يتعرف شؤون دينه من مصادرها العربية ، من القرآن والسنة النبوية،والفقه الذي استنبطه الأئمة الاعلام،وغير ذلك مما يتصل بالدين معرفته.

وانه مما يثير السرور في بعض النواحي الإسلامية بالنسبة للغة العربية أن كثيرين من العلماء المتخصصين في الدراسات الإسلاميـــة من الهند وباكستان وفارس وافغانستان وغيرها يعلمون العربية ويدرسونها .

ولقد وجدنا ليبيا عندما خلعت نير الاجنبي ، وقـذفت به في البحر ، واستعانت جامعاتها ومعاهدها بمن يدرس العلوم الإسلامية في ذلك البـلد العربي ، كان ممن استعين بهم بعض الشبان والكهول من علماء الهند المسلمين ، وبعضهم من تلاميذنا الذين كانوا يؤثرون أن يدرسوا العـــلوم الإسلامية باللغة العربية .

١٤٦ – إذا كان حقاً على كل مسلم أن يتعلم حظاً من العربية يصحح به دينه ، كما قرر الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وكما شرحنا من قبل فانه حق على كل من يعرف العربية أن ينهض لتعليمها ، وان تعليمها لمن يجهلهـــا من المسلمين فرض كفاية على جماهير العارفين بالعربية عامة ، فعلى غير العرب أن يهيئوا الاسباب لتعلمها ، وعلى العرب أن يتقدموا لتعليمها .

إن كثيرين من البلاد الاسلامية يريدون معرفة العربية لغة دينهم ليفهموا القرآن العظيم من لغته وليتصلوا بمصادر الشرع من غير وساطة تتوسط .

وهناك الجماعات الكثيرة التي ندبت نفسها لهذا العمل الجليـــل ، واني لأعرف أن بعض العلماء من الهند وباكستان يقومون بوضع معجم للقرآن باللغة الأردية ، ليسهل على من يحفظ القرآن أن يعرف بلغته معنى مـا يقرأ ، وان حفظة القرآن فيهم عدد كبير يضمن تواتر القرآن حفظاً وتلاوة في الأجيال .

وان وجود هذا المعجم بلا ريب يفيد من يتكلم الأردية ، ويسهل تعـــلم

العربية ، فإنه بهذا يحفظ عدداً كبيراً من الالفاظ ، ومقابلها العربي في أفصح وأبلغ كلام في الوجود .

إن جماعات في الباكستان تنشىء المدارس بإمداد أهل الخير ، ولكنها لا تجد العدد الكافي من مدرّسي العربية ، فعلى البلاد العربية مجتمعة أن ترسل المعلمين اليها فإن تعلم العربية وتعليمها فريضة محكمة ، قال عليه السلام : « تعلموا العربية وعلمَوها الناس » . ولا تسقط هذه التبعة إلا إذا أجبنا أمر النبي ﷺ : وهي لسان القرآن . قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ .

(٤) ترجمة العلوم الى العربية :

١٤٧ – قد يقول قائل ان تعلم اللغات الحية في البلاد الإسلامية أمر لا بد منه ، لأنها لغات العلم الكوني والإنساني وهذا العلم في تجدد مستمر ، وزيادة دائمة ، وقد تغلغلت آثاره في كل المجتمعات الإنسانية ، ومما انتهى اليه العلم غرائب ، لو ذكرت لأهل القرن الماضي لكانت من العجائب المعجزات ، ولا يزال يخطو إلى الأمام ، والتخلف عنه تخلف عن ركب الإنسانية ،وما يسوغ أن تتخلف الجامعة الإسلامية عن الركب السائر، وإلا كانت مأكولة لا محالة، وكأنها تجتمع لتؤكل ، ولتلتهم ، فلا بد من دراسة اللغات الحية بين المثقفين فيها ، وإذا كان العلم بالعربية فرضاً كفائياً ، فإنا نحسب أن العلم الكوني فرض كفائي أيضاً ، لأنه لا تستغني عنه الجماعات ، ولا بد أن يتولى كل اقليم من يتابع الزيادة المستمرة في علم الكون وعلم الإنسان ، والصناعات ، وما يستخرج من المواد الخام التي أودعها الله تعالى باطن الأرض ، إن ذلك أمر لا بدّ منه وليس لنا أن نخالفه ، وإن ذلك لكائن في كل البلاد المتحضرة .

ولكنه لا يكفي أن يكون بين المسلمين متخصصون في هذه العلوم ، متتبعون لما يزاد فيها ، وما تكشفه العقول الباحثة بل لا بد مع ذلك من أن

تترجم هذه العلوم الى اللغة العربية لنستفيد منها إنماء وحيوية ، ونجدد في علمها ، ولقد كان الأقدمون من اسلافنا يقومون بنقل العلوم إلى العربية ،وقد أبلى في ذلك غير العرب من المسلمين بلاء حسناً ، فابن سينا والفارابي وابن رشد وابن طفيل ، وغيرهم من العلماء ، جعلوا اللغة العربية تزخر بالعلم ، حتى صار العلماء المسلمون أساتذة الغرب ، في ذلك ، فنقلوا لهم منطق أرسطو ، وسياسته ، وسياسة افلاطون فيما سموه المدينة الفاضلة .

ولقد كانت دار الحكمة ببغداد، مملوءة بعلماء الفلسفة ، والترجمة لكل العلم الهندي في تصوفه، والعلم اليوناني في منطقه ، وموازين البيان ، كما نرى في كتاب الشفاء لابن سينا، كانت الترجمة قائمة على قدم وساق ، حتى حالت عليها الحال ، كما قال تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾

وما ضعفت العربية إلا يوم ضعف المسلمون ، وتخاذلوا عن نصرتها ، وعن القيام بحقها وانمائها المستمر ، كما فعل السلف ، وقد تركوا لنا في ذلك تركة قوية مثرية بالعلم الفلسفي في كل نواحيه .

إن اللغات الحية تتبادل العلم وما ينتجه العلماء ، فانه لا يظهر كتاب علمي في لغة من اللغات ، حتى تجده فيها قبل أن تنتهي طبعته في لغته .

وإن أهل كل لغة عندهم قسم قائم بالترجمة يتتبع الجديد من الكتب التي تحمل جديداً من العلم فيسارعون بنقله الى لغتهم ، ان لم يكن بالترجمة المتتبعة المتقصية فبالتلخيصات الوافية ، ويتولونه بالدراسة والفحص ، وان العلم لا يصح ان تقوم الحاجزات الاقليمية دونه ، وكما قال صاحب كتاب اصيل القرن التاسع عشر الذي ترجم الى العربية بعنوان التربية الاستقلالية « ان العلم كالماء والهواء لا يقع في قبضة أحد ، فهو حق شائع للانسانية كلها »

لهذا يجب أن يجتهد المسلمون ، لا فرق في ذلك بين أعجمي النسب وعربيه في تغذية اللغة العربية بالعلم الجديد لنسير في الركب ، ولا يمكن أن يكون لنا مدنية إسلامية تفي وتكفي إلا إذا ذخرت لغة الجامعة الاسلامية بالعلوم.

إن الجامعة الإسلامية يجب أن تتبع ما ينتجه العلم في الطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء ، وعلم الفضاء ، فينقل إلى لغتنا العربية الإسلاميـة التي هي لغة جميع المسلمين ، لا فرق بين عربي وأجنبي .

ولا يقال إن العرب أولى بالقيام بهذا الواجب ، لأنها لغتهم ، لا يقـال ذلك ، لأنها لغة الإسلام ، وليست لغة قوم دون قوم ، ونحن نريد من المسلمين خصوصاً المثقفين أن يكونوا على علم كامل بالعربية ، ونريد لها الثراء بالعلوم الكونية وعلوم الحياة .

ولقد كان الذين تولوا نقل العلم الهندي والفارسي واليوناني إلى العربيـة من الأعاجم في أنسابهم ، وإن كانوا عرباً بإسلامهم ، والأوربيون لا يعبرون عن العلم الإسلامي إلا بالعلم العربي وإن كان الذين قاموا بـه من سلالة فارسية أو بربرية ، أو غير ذلك .

وقد يقال ان اللغة العربية الترجمة اليها قائمة على قـدم وساق ، والجامعة العربية تتولى ترجمة كتب إلى العربية وذلك القول حق لا ريب فيه ، فإن كبار الأدباء يترجمون .

ولكن الكتب المترجمة في الآداب ، لا في العلوم ، وفي البحوث الاجتماعية لا في البحوث الكونية ، والجامعة العربية في قسمها الثقافي لم تخرج عن ذلك النطاق ، بل سارت في ذلك الدرب ، بل انها ترجمت بعض الكتب الأدبية والاجتماعية التي سبق أن ترجمت من قبل ، ولم تجر إحصاء بمـا ترجم ، حـتى يكون عملها إنشاء ولا يكون تكراراً .

إننا نريد أن تزخر لغة الإسلام بالعلم ، وتتولى ذلك الجامعة الإسلاميـة ، ليتحقق الاكتفاء الذاتي بين الأقاليم الإسلامية .

وكما قلت إن تعلم اللغات الحية لا تغني عنه الترجمة ، فإن النقل عن علم لغة يقتضي معرفة هذه اللغة ، ولقد نقل الينا عن المرحوم الأستاذ الشيخ عبدالعزيز

جاويش العالم العربي الأديب أن من ترجم كتاباً من لغة إلى لغـة بلده ، فقد نقل علم أهل هذه اللغة إلى بلده ، وهذا ما نريده .

إن دور الدراسة والإنتاج يجيء دائماً بعد دور الترجمة ، إن ذلك هــو الترتيب الطبيعي .

لقد ابتدأت الترجمة في آخر العصر الأموي ، وازدهرت في العصر العباسي خصوصاً عصر المأمون ، وبعد أن زخرت العربية بالترجمـــة كانت الدراسة والبناء على العلم الذي نقل إلى المسلمين ، ولذلك كان من فلاسفة المسلمين الذين تكلموا في أرسطو وأفلاطون من لا يعرف اليونانية . كذلك نحن في هـــذا العصر إذا زخرت البلاد الإسلامية التي تكون لغتها الرسمية العربية فيما بين أقاليمها وفي داخلها بالعلوم ، إذا أمكن وتحقق ذلك ، فإنه سيكون بعون الله تعالى من بين المسلمين علماء في الكون يكشفون من خـــواص المادة كما يكشف علماء الغرب ، ويغذون العلم ، كما تتغذى لغتهم به .

واننا نلاحظ أن في بعض الدول العربية أراد القائمون على الجامعات فيها أن يدرس الطب ، وأن تدرس العلوم الكونية باللغة العربيـة ليسهل فهمها ، ولتزخر العربية بنتائج علمهم ، ولتتسع الترجمة في هذه ، ولتتكون مكتبة عربية في هذه العلوم .

وقد نفذت ذلك جامعات في الدول العربية ، ولكن استنكرت ذلك مصر ، وما كان استنكارها ، إلا لأنهم استثقلوا ذلك ، وأخفوا هذا بأن قالوا ، ان اللغة العربية عاجزة عن أن تتسع لهـذه العلوم ، وما كان العجز إلا فيهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وان إدخال العلوم الكونية في اللغـة العربية ليس بدعاً أو جديداً ، إنما هو في المدارس الثانوية منذ زمن بعيـد ، ولكن في المدارس العربية ، وخصوصاً بعد أن خرجت من الحكم التركي ، وخلعت الربقة الأجنبية ، ولا يزال بعضها ممن استقل قريبـاً يرزح تحت نير اللغة الأجنبية ، وان الله تعالى منقذ لغة القرآن ، وان ترجمة العـلم الكوني والطبعي إلى اللغة العربية يقتضي أمرين :

أحدهما – نقل كل المعلومات إلى اللغة العربية بالألفاظ التي تتسع لها ألفاظ اللغة العربية من غير إجهاد ولا إعنات .

ثانيهما – الاتجاه إلى تعريب الألفاظ الافرنجية بصقلها بصقل عربي ، فإن ذلك يزيد اللغة نماء .

(٥) جماعة علمية :

١٤٨ – ابتدأت مصر من بين البلاد الإسلامية إلى تكوين مجمع البحوث الاسلامية الذي يدعو إلى مؤتمر كل عـــام منذ سنة ١٩٦٤ ، ولم يتخلف اجتماعه إلا سنة ١٩٦٧ لأحوال كانت خاصة بمصر أو بالأحرى بالبلاد العربية وفي معناها العميق كانت تعم العالم الاسلامي كله، لأنه يتصل بنكسة الجيوش المصرية سنة ١٩٦٧ ،وقد أخذ اليهود أعداء الله وأعداء الإنسانية بيت المقدس وقال طاغوتهم : الآن قد فتح الطريق لمكة والمدينة حيث جثمان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي أعقاب ذلك حرق المسجد الأقصى مسرى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كان الأمر المانع من الانعقـــاد أمراً يهم المسلمين أجمعين .

كانت المؤتمرات الخمسة التي عقدت يدعى اليها ممثلون لأربعين دولةاسلامية لا يتحرى فيها مذهب ، بل انها جامعة في الجملة للمذاهب الإسلامية منحنفية وشافعية ومالكية ، وجعفرية ، وزيدية .

ولقد قرر كل مؤتمر قرارات كثيرة تهم المسلمين جميعاً ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمسجد الأقصى ، وانتهاك الحرمات الإسلامية في فلسطين ، وإيلياء أرض الله المقدسة التي جبن بنو إسرائيل أن يدخلوها في عهد موسى ، وقالوا لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون .

ولقد كانت القرارات تكتب وتحرر ، وارجع اليها في قرارات المجمع من أول مؤتمر إلى الأخير . ولكن لا تنفذ ،ومهما يكن الأمر في ذلك ، فان

عدم تنفيذ قراراته ليس بتقصير من المجمع ، ولكن الذين يجيئون اليـــه من الوفود الإسلامية يحضرون إليه على أنه مؤتمر دعوا اليه ، وساهموا في مناقشاته أو لم يساهموا ثم ينفض ، ويعودون إلى بلادهم .

والحق أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ، لأن فعل أي شيء يوجب أن يكون للحكام رأي فيه ، وأن يكونوا مؤيدين له ولكنهم في جانب ، والذين حضروا في جانب آخر ، وما أحسب أن وفداً منهم حاول أن ينفذ أمراً مما قرره المؤتمر كانشاء صندوق لتأييد المقاومة أو نحوه .

ومهما يكن الأمر في مجمع البحوث الإسلاميـــة الذي أنشأته حكومة القاهرة ، وتولت تكوين أعضائه ، فانه يصلح أن يكون نواة لتكوين مجمع إسلامي شامل ، لا يكون تحت رعاية دولة اسلامية واحدة ، بل يكون تحت رعاية الجامعة الإسلامية ممثلة في مجلسها الذي سنتكلم في تكوينه من بعد.

وان الخواطر التي تجول في نفوسنا بالنسبة لهذا المجمع المرتقب ، أن يكون ممثلاً لكل المسلمين من أقصى الصين الى المحيط ، وأن يكون للأقليات الحق في رفع أمورها وبيان أحوالها لذلك المجمع ، وأن يكون فيه ممثلون لها ، يكون لهم الحق في تعرف أحوال المسلمين ، وبيان أمورهم ، والنظر في رفع الظلم عنهم .

إن الملاحظ أن المجمع القائم ، وكله خير ، وإن لم يكن فيه كل الخير ، أن أعضاءه جميعاً من البلاد العربية فليس فيه عضو من باكستان ، ولا الهند ، ولا افغانستان ولا ايران ، بل ان بعض البلاد العربية غير ممثلة فيه ، فليس فيه عضو من البلاد الحجازية ، ولا من سوريا ، بينما فيه عضوان من لبنان ، وربما يكونون ثلاثة وليس فيه عضو من المذهب الجعفري ، ولا المذهب الزيدي ، وان كان الجعفرية يدعون إلى مؤتمره ، وليس فيه أعضاء من المسلمين في وسط آسيا ، وإن كان يدعى إلى المؤتمر علماء من فضلائهم ، ويكون بهم

التعارف الإسلامي ، وإن لم يكن كاملاً ، لأنه لم يكن بين كل المسلمين أو كل علمائهم .

١٤٩ - إن مجمع البحوث الإسلامية كان في الاصل الباعث عليه أن يكون جامعاً للدراسة العلمية الإسلامية في كل البلاد الاسلامية ، وليكون حلقة اتصال علمي اسلامي بين المسلمين أجمعين .

وما كان يؤدي ذلك الواجب إلا إذا كان له استقلال في دراسته عن كل الأقاليم ، حتى عن مصر التي أنشأته ، وقد حافظ الذين أشرفوا عليه على استقلاله ، فكانت آراؤه لا تتقيد بالآراء التي تدعو إلى بعضها الحكومة المصرية ذاتها .

وإن ذلك بلا ريب فخر لحكومة مصر ، وللمشرفين عليه ، إذ لم يحاولوا أن يفرضوا عليه آراء معينة ، وان الاستقلال الفكري في جماعة علمية هو طريق نجاحها .

وإذا كان ثمة من تجاهل هذا الاستقلال ، أو تجاهل قراراته ، فان ذلك لا يضير المجمع ، وقد انتهى إلى قرارات علمية أعلنها ، ودرس أموراً أخرى وحاول أن يشْرك فيها علماء المسلمين في كل البلاد الاسلامية ، فله قرارات في نظام الفائدة ونظام التأمين بكل ضروبه ، وقد أرسل إلى العلماء نتيجة هذه الدراسة في التأمين ، فلم يجد مجيباً إلا بين عدد قليل ، لا يمكن أن نقول : إنهم يمثلون الفكر الإسلامي تمثيلاً كاملاً .

وان ذلك المجمع أراد أن ينشىء له مراكز اسلامية في كل بلد اسلامي ، وتتولى هذه المراكز دراسة الاسلام والمسلمين دراسة علمية ، كل مركز يدرس حال الاسلام في بلده ، ويعمل على تثقيف شعبه والشعوب القريبة منه بالاسلام .

ولكن لم يتم شيء من ذلك ، لأنه يجب أن تتوافر مع رغبة الشعب ارادة الحكومة ومعاونتها وقرر أن ينشأ في كل بلد اسلامي صندوق مالي ليمد

المجاهدين من الفدائيين المرابطين حول الأرض المقدسة ليجعلوها سماً زعافاً على محتليها ، وهم يريدون منها أن تكون لبناً وعسلاً .

وأردنا أن ننشىء مكاتب للدعوة العامة إلى الجهاد، لأن العدو احتل جزءاً من أرض الاسلام بل من أقدسها على المسلمين ، فأصبح الجهاد فرض عين على كل قادر على حمل السلاح ، بل على كل مسلم ومسلمة كل في حدود مايستطيع فالكاتب بقلمه ، والخطيب ببيانه، وذو المال بماله، ومن يستطيع حمل السيف بسيفه استجابة لقول النبي ﷺ : « جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم » واننا إن تقاعسنا عن الاستجابة لله ولنداء رسوله ﷺ القينانحن المسلمين بانفسنا إلى التهلكة ،أو لم نستمع إلى أمر الله تعالى في قوله :﴿وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ،وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾.

لقد دخل العدو بيت المقدس ، وتحقق نبأ الله تعالى في القرآن : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ .

لقد دخلوا المسجد وتبروا ما علوا تتبيرا ، بل حرقوه ، فهل نعود إلى الله تعالى ونجتمع ؟ هل ننتظر إلى أن يذهبوا إلى الروضة الشريفة ، والمسجد الحرام بعد المسجد الأقصى ؟.

قرر مجمع البحوث الاسلامية أو قرر مؤتمره الاخير وما قبله انشاءمكتب لبيان ذلك ، ولكن لم ينشأ المكتب ، ولم يبدأ العمل .

١٥٠ — ولقد ذكر من قبل في ذلك البحث أن مجمع البحوث الاسلامية نواة لمجمع أوسع شمولاً ،وأعم نفعاً وأكثر عملا ، ولكن ثمة معوقون لايؤمنون به ، فقد حدث أن أحد المسؤولين ذهب إلى أحد المؤتمرات الاسلامية في آسيا ودعا إلى نقيض ما قرر المجمع في مصر ، نعم إن المؤتمر لم يوافق على ما طلب

ولكن هذا صور أن المجمع في مصر يوجد من لا يؤمن به، وبعضهم من المشتغلين بالمسائل الاسلامية ومن له إشراف عليه .

وإذا كان نواة للمجمع المرموق المطلوب، فانه بلا ريب يجب أن يكون في ظل الجامعة الإسلامية ، ومجلس إدارتها الذي سنتكلم عنه قريباً ، لكي يكون له الاستقلال الكامل ، وإن كانت حكومة مصر قد راعت استقلاله ابتداء ، ولم يمس استقلاله إلا أخيراً ، وان كان مساً خفيفاً .

وانه إذا كان في ظل الجامعة الاسلامية ، وقد تكونت ، فان قراراته ستكون موضع التنفيذ ، إذ أن الحكومات الاسلامية ستكون منفذة لقراراتها ، وقرار الهيئات المستظلة بظلها الوارف .

وإنه يجب أن يكون له فروع في البلاد الإسلامية كلها تتولى دراسة الاقليم وحاله الحاضر ، وما يحتاج العلم الاسلامي فيه ، ويكون لفرع المجمع نوع إشراف على الدراسات الدينية في تلك البلاد ، وتوجيهها بحيث لا تكون مجانبة لما تدعو إليه مقاصد الجامعة الاسلامية التي هي القوة المسيطرة على الثقافات كلها .

وغير بعيد ما ذكرنا من أنه يجب أن يكون ممثلا لكل الامم الإسلامية في مركزه العام ، بحيث يكون المركز العام له أعضاء ، ممثلون للمجامع الفرعية

وإن المجمع الرئيسي وفروعه يجب أن يعنى عناية خاصة بالأقليات الإسلامية في كل البلاد ، بحيث يمدها بالثقافة الإسلامية ، ويعينها على رفع الظلم إن كان، ويسهل لها الانتقال إلى بلد اسلامي قريب إن لم يتيسر رفع الظلم ، لكيلا يعيشوا مستضعفين في الأرض ، والله تعالى يقول : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيمَ كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً ،

ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾

وانه يجب على المجمع بعد دراسته أن يبلغ مجلس ادارة الجامعة الاسلامية حيال هؤلاء المستضعفين ، وليستعد لعمل ما ينبغي عمله سياسياً ودولياً ، بل حربياً إن أوجبت الحال ، حتى لا يخذل مسلما في موضع يحتاج فيه الى النصرة ، فإن رفع الضيم هو سبيل العزة .

وقد سارت الدولة العثمانية تتحدر نحو الهاوية من وقت أن تركت الاندلس تأكلها ذئاب الانسانية ولم تمنعها قوتها الحربية من التردي وإن حاول حكامها ، أن يسموا أنفسهم أمراء المؤمنين .

الجماعة العلمية أوسع شمولا :

١٥١ – إذا كان المجمع الاسلامي واسع الشمول في الاتصال بالبلاد الاسلامية وهو المنبه لما يجب من الدراسات الدينية عامة ، واليه ينتهي التجمع العلمي الديني للاسلام ، إذا كان كذلك ، فإن الجماعة العلمية اشمل في موضوعاتها من مجمع البحوث وفروعه ، وإن شئت فقل إن مجمع البحوث الاسلامية مع شموله هو وفروعه ، عندما توجد ، شعبة من الجماعة العلمية ، إذ هو شعبة العلم الاسلامي واحياء تراثه ، ونشره ، وتثقيف المسلمين بالثقافة الاسلامية الصحيحة ، والجماعة العلمية يدخل في عموم موضوعاتها ، إذ انها تشمل على كل علوم الحياة والدين.

فهي التي تنظم الدراسات الاقتصادية ، والدراسات الهندسية ، والدراسات الكونية والطبيعية والدولية وهكذا ....

إنه لا بد أن نتسلح بكل ما يتسلح به أعداء الاسلام ، وهم الآن يتسلحون بالعلم ، بل إن سلاحهم ثمرة لعلومهم فاذا لم نعد لهم العدة ضعنا بينهم ، والله تعالى يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ، وقوة هذا العصر العلم ،

فهو قبل شجاعة الشجعان ، بل ان شجاعة الشجعان لا تغني شيئاً بجواره .

وان هذه الجماعة العلمية المكونة من كل خبراء العلم في الهندسة والطب والكون ، والطبيعيات ، والكيماويات ، والفضاء وغيرهم من أهل الخبرة.

وان عمل هذه الجماعة العلمية اولاً دراسة ما تحت يدها من العلوم ونشره في الأوساط العلمية في البلاد الإسلامية ، ومتابعة تنفيذ لدى الجهات ذوات الاختصاص .

ثانياً – متابعة الدراسات المختلفة في اللغات الحية ودراستها والإشارة إلى ترجمةما ينبغي ترجمته منها . وما يكون فيه فائدة للعلم في البلاد الإسلامية في دأب ومن غير قصور .

ثالثاً – تشجيع الدراسات الخاصة ، وتهيئة الاسباب للدارسين الباحثين في الطب وسائر العلوم .

رابعاً – أن يكون لهذه الجماعة فروع في كل الأقاليم الإسلامية توافيها بالبحوث المبتكرة ، والمتبعة ، وما يستجد في البلاد الأجنبية من معلومات في الكون والانسان . اننا يجب علينا أن نساير ركب العلم ، ولا نتخلف عنه ، فان من يتخلف عنه يعيش في ضلالة عمياء ، لا يعرف فيها ما يعوقه وما يحميه .

إنه قد أنشيء في مصر مراكز قومية للبحث العلمي ، وهي بسبيل أن تنتج ، ولكن انتاج التابع ، وأحياناً تجيئنا الصحف السيارة بخبر عن طبيب مصري ينسب إليه اختراع دواء أو مهندس ينسب إليه إبتداع آلة من الآلات . ونتمنى أن يعم ذلك البلاد الإسلامية وأن يكون العمل إسلامياً، والانتاج إسلامياً .

لقد علـّم أسلافنا اوربا علم الطب ، وغيره ، ولا نريد أن نعود معلمين لهم كما ابتدأنا ، ولكن نريد أن نسابقهم في الركب ، ولا نتخلف عنهم ، إنما

يذهب ضياعاً من يكون وراء القافلة التي تسير ، لا يصح أن نرضى بمقام المخلفين عن العلم ، بل نريد السبق اليه ، فلهم عقول ولنا عقول .

إن المتعصبين من الأوربيين ، ومن لف لفهم ينسبون تخلفنا الى ديننا ، ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ ولو عكسوا لكانوا منصفين ، لأننا ما تخلفنا إلا يوم تركنا ديننا ، ولم نتدبر قرآن ربنا ، وهو الذي يحث على العلم ، ويطلب النظر في الكون .

إن أول آية نزلت من القران الكريم الدعوة إلى العلم ، ودراسة الانسان اقرأ قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . ﴾

وان الدعوة إلى النظر في الكون منشورة في القرآن لا تكاد تجد سورة من سوره إلا وجدت فيها دعوة إلى النظر. اقرأ قوله تعالى : ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض .﴾

واقرأ قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها والقينا فيها رواسي ، وانبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾ وهكذا تجد الكثير من تلك الآيات البينات في القرآن الكريم ، ولكنا تركنا التبصرة ، وتبصر أعداؤنا فسرنا وراءهم ، فهل لنا أن نعلم علم الكون ، وأن يكون لنا معشر المسلمين جماعة تقودنا اليه .

الوحدة الاقتصادية

١٥٢ – قلنا اننا نقتبس احكام الوحدة ونظمها مما سنه الفاروق في عصره رضي الله عنه ، فقد كان لكل اقليم شخصيته وأمير المؤمنين مسيطر عليهم ، وموجه أوامره اليهم ، خصوصاً ما يتصل ببيان الأحكام الشرعية ، فكانت مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هي التي يصدر عنها بيان الأحكام الشرعية .

وكان الاقتصاد الاسلامي متصلاً بين أجزاء الدولة غير منقطع ، وقدأشرنا إلى ذلك عند الكلام في حكم الأقاليم الاسلامية في عهد الفاروق ، ومن بعده في عهد عثمان وعلي ، ثم من بعد ذلك في عهد الملوك الذين حكموا باسم الخلافة الإسلامية ، وكانت الوحدة الاقتصادية قائمة حتى بعد تفرق المسلمين ، فلم يكن ثمة جمارك مانعة ، ولا مكوس ظالمة ، إلا مـــا ابتدع من ذلك في عهد العثمانيين .

وإن الارتباط الاقتصادي جزء جوهري من الوحدة الإسلامية ، لأن قوى الأمم في هذا العصر تقوم على الاقتصاد ، فأمريكا مثلاً قوتها قائمة على الاقتصاد الأمريكي ، وإن مواردها أعظم الموارد ، ومصانعها من أعظم المصانع ، والاقتصاد أداة من أدوات الحرب بل هو أقوى عدة .

وهو في كثير من الأحيان يبعث الحروب ، وليست الحروب الآن في أكثرها إلا تنازعاً على ينابيع الثروة في الأرض فحيثما كانت هذه الينابيع

اشرأبت اليها الاعناق ، وتحركت المطامع نحوها ، وكان التكالب للوصول اليها أو الاحتفاظ بها ، والمغالبة المستمرة في خفاء واعلان هي للاستيلاء على ركاز الأرض ومعادنها .

وانه بسبب تفرقنا الذي انتج ضعفنا قد صارت ينابيع الثروة عندنا التي هي في حوزتنا وفي أرضنا وفي ملكنا معشر المسلمين موضع تنافس أعدائنا ، بل قد أخذها الذين يقاتلوننا جهراً وفي الخفاء، يأخذونها منا لتكون قوة لهم يعدون بها أعداءنا ، وحكامنا يصادقون الذين يدبرون قتلنا ويغتالون الخير في أرضنا ، ويأخذونه أخذاً لما، ولا يلقون الينا إلا الفتات المتساقط من أيديهم.

يجعلون منا أدوات الاستغلال ، وآلالات العمل ، والنتائج لهم ، فنحن مسخرون لهم ، وما ابقونا إلا لهذه السخرة ، وأضعفونا وأمدوا اليهودوغيرهم بالاسلحة التي يقتلوننا بها ، وليمكنوهم من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، ويفتحوا لهم الطريق إلى البيت الحرام ، والروضة الشريفة الطاهرة .

لذلك كان لا بد أن يكون لنا اقتصاد موحد لينتفع المسلم بخيرات أرضه ويذهب عنه رق الاستغلال بعد رق الاستعمار ، ورق السخرة التي تجعلنا نحن المسلمين كاننا عبيد الأرض،وإن الوحدة الاقتصادية تتقاضانا أن نتعاون جميعاً على استغلال ينابيع الثروة التي تجود بها ارضنا والتي تكتنزها في باطنها لتكون لنا أولاً وبالذات ، ولا يكون لغيرنا إلا ما يفيض عن الاقاليم الإسلامية ، بعد أن تستوفي حاجاتها منها .

إن الاجنبي يستولي على نفط الحجاز كله وعلى نفط الكويت كله وعلىنفط العراق كله ، وعلى نفط ايران كله ، ولا يعطي أهل البلاد إلا القليل، ويجعل له أصدقاء ممن يطوعون أنفسهم لصداقته ، ويؤثرونه على قومهم ولا يؤثرون قومهم ودينهم عليه.ويتعللون بالتعلات لتبرير تلك الصداقات وانه لمن المؤسف حقاً وصدقاً أن مدخرات الدول المنتجة للنفط ترسل إلى المصارف الأوربية، وتختزن في خزائنها، وتنفق من غلاتها تلك الدول فيما يفيدها ولا يفيدنا ، فهي

تأخذ منا الأصل ،وتأخذ بعض ثمرات الأصل من اموالنا ، وكل هذا يستخدم ضدنا ،ويرسل أسلحة تستعمل للفتك بنا في ميادين القتال ، ولازعاج الآمنين.

وفي المجتمعات الدولية يلوون السنتهم بالباطل، وإن وجد في بعضهم شعور بالحق جمجموا ولم يتكلموا ، لأن العداوة المستكنة في قلوبهم تجعلهم يترددون في الحق . وإن رأينا من بعضهم كلمة ، فليست للانصاف المجرد ، انما هي من قبيل المغالبة في أمرنا أو الرغبة في أمر يريدون أخذه بتلك الكلمات المعسولة.

١٥٣ — إن البلاد الإسلامية قد جمعت خيرات الدنيا ، ففيها معادن الأرض ، فاذا اتجهنا الى استخراج كل هذا من أرضنا لأنفسنا فاقمنا المصانع، حيث يكون وقودها بجوارها ، وجمعنا حصاد الأرض ، وزرعناها بالقسطاس بيننا كانت لنا قوة ، وكان لنا العيش الوفير والخير الكثير ، وما كنا عالة على غيرنا في قوتنا أحياناً ، ولا كلا في ثمرات أرض مثلها عندنا ، وما كنا من بعد ذلك أجراء لغيرنا ، وكأننا الغرباء في ديارنا . اننا لا نستطيع الانتفاع بخيرات أرضنا الا إذا تعاونا جميعاً على استغلال ينابيع الثروة ، ولا يكون لغيرنا منها الا ما يكون فائضاً عن حاجة كل إقليم إسلامي كما أشرنا . لقد كان المسلمون الأولون يعرفون ذلك التعاون في صدر الإسلام ، ومن بعده حتى تفرقوا وتدابروا ، وتدخل عدو الإسلام فيما بينهم ، فصاروا تابعين لغيرهم، ليس لهم ارادة في شؤون أموالهم ولا تصريفها ، يؤكلون، ولا يأكلون ويسخرون لمنافع غيرهم ، ولا ينتفعون ، ويتنازع الأعداء على أرضهم ، كما تتنازع الذئاب على قطيع من الشاء .

إن التعاون الإقتصادي الذي أوجبه القرآن ، وهو الذي يكون الوحدة الاقتصادية ، يتقاضانا أموراً :

أولها — أن يكون أهل الخبرة الذين ينظمون الاقتصاد في أرضنا منا لا من غيرنا ما دامت فينا الكفايات ، وإذا نقصت كفايات رجالنا — زودناهم

بالعلم في بعوث نبعثها ، أو برجال ندعوهم يزودوننا بما ينقصنا من علم على أن يكون توجيههم لنا ، وتحت سمعنا وبصرنا .

واننا إذا اتجهنا مضطرين إلى إحضار خبراء من غيرنا ، نطلبهم من البلاد التي لم نجرب عليها شراً ، أو تكون مصلحتها في أن يقوم الاقتصاد بيننا على أسس سليمة ، وعلى أي حال نشدد الرقابة عليهم ولا نترك الأمر فرطاً.

ثانيها – أن تكون المؤسسات الاستغلالية منا ، وتكون رؤوس أموالها منا ، لا من غيرنا ، فتكون لنا بالرجال والمال، فان الاجانب عنا لايريدوننا الا مسخرين ، ولا يلبثون إلا قليلاً حتى يتخذوا أموالهم سبيلاً للتحكم فينا ، كذلك كانوا يفعلون في الماضي ، وانهم يتربصون بنا الدوائر لنقع فيما وقعنا فيه من قبل، فعلينا أن نتخذ من الماضي عبرة ، وإلا وقعنا فريسة في أيديهم، إن شركات النفط في الأراضي الإسلامية ليست في أرض الإسلام ، انما هي في انجلترا وامريكا ، ويجب علينا أن نجعلها في أيدينا بشركات منا ، فان كسبت هذه المؤسسات نلنا الكسب كاملاً ، وان خسرت خسرنا وعالجنا أسباب الخسارة .

إن هذه الشركات تستمدحكوماتها القوة منها ، وتمدها حكوماتها بالقوة.

ثالثها – إن التعاون الاقتصادي أو الوحدة الاقتصادية التي نتغياها توجب أن يكون للمسلمين نقد موحد ، يكون للتعامل فيما بين الاقاليم الإسلامية بعضها مع بعض ولا يلغى بذلك النقد الاقليمي ، بل انه يبقى ليسهل التعامل بين الشعب في الاقليم .

فيكون بجوار النقد الاقليمي نقد موحد جامع تنسب اليه كل النقود الاقليمية بمقاديرها ، فيقدر فيه الدينار العراقي والكويتي ، والليرة السورية ، وغيرها من النقود الاقليمية .

وذلك ليسهل التعامل بين البلاد الإسلامية من غير أن يتخذ النقد الاجنبي وسيطاً في التعامل الإسلامي فيرفع ويخفض على حسب ما يريده الاجانب فينا.

مصرف إسلامي عام :

١٥٤ – رابعها – يجب أن يكون للمسلمين مجتمعين مصرف كالمصرف المركزي في امريكا ولكن يكون هذا إسلامياً خالصاً ، ويقوم على ما يحله الإسلام ، وما يحرمه يكون ممنوعاً ، وان ذلك المصرف يجب أن يكون خالياً من إيداع النقود بفائدة ، فإن مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية قرر فيما قرر أن فوائد المصارف ربا ، ما دام المقرض يأخذ الفائدة من غير أن يعرض للخسارة ، وقد جاء ذلك القرار في المؤتمر الأول وقد أيده المؤتمرون،وأرسل إلى علماء المسلمين في كل البقاع الإسلامية ، فلم ينكر ذلك أحد من علماء الدين وإن ضج حوله بعض علماء الاقتصاد الذين يؤمنون بالاقتصاد الحاضر المشوب باليهودية أكثر من إيمانهم بالقرآن الكريم ، ومبادىء الإسلام .

وإن المصرف يقوم بأعمال جليلة منها :

(أ) أنه يمد المؤسسات الإسلامية التي تستخرج خيرات الأراضي الإسلامية من ينابيعها ، والمؤسسات التي تصنع هذه الكنوز التي تخرجها الأرض،ويسهل تبادل السلع بين المسلمين .

على أنه في إمداده للمؤسسات الإنتاجية لا يستغلها بالفائدة ، بل يكون شريكا لهذه المؤسسات إن ربحت شاركها بسهم مقدر في ربحها ، وإن خسرت كان عليه من الخسارة بمقدار ما أسهم في رأس مالها المستغل .

وقد حقق ذلك صديقنا المرحوم الاستاذ محمد عبدالله الخولي ، وقد قام في مصر مصرف ابتدأ صغيراً وحرم الفائدة تحريماً قاطعاً ، وسار على نظـــام الاقراض مع المشاركة في الكسب ان كسب من اقرضه ، وعلى تحمل الخسارة معه بمقدار ما أعطى ان خسر .

وقد قام ذلك المصرف بأعمال جليلة ، واتسع نطاقه ، وانتقل من مدينة الى مدينة،ولكن سرعان ما حاربه الذين يؤمنون بالاقتصاد الربوي اليهودي،

أكثر من إيمانهم بالقرآن ، فوئدت فكرته في مهدها ، بعد أن بدا خيرها . ومنشىء ذلك المصرف استدعته المانيا لتستفيد من تجربته وخبرته، فكان خيره لغيرنا .

(ب) ومدار أعمال ذلك أنه يسهل تبادل النقد الموحـــد بين البلاد الإسلامية ، ويكون له فروع في كل بلد إسلامي ، ليسهل التبادل النقدي، ولا يكون ثمة عسر في ذلك التبادل .

(جـ) أنه يسهل نقل حاصلات البلاد الإسلامية بعضها الى بعض ، مـــع الاحتفاظ بقيمتها من غير وكس ولا شطط .

ومن الحق علينا أن نقول: إننا وجدنا بادرة خير تتجه بالمسلمين الى الوحدة الاقتصادية .

فقد كان من قرارات المؤتمر الإسلامي الذي انعقـد في باكستان في الشهر الماضي(شهر ديسمبر من سنة ١٩٧٠) من وزراء خارجية البلاد الإسلامية أو من انتدبتهم الحكومات لحضور ذلك المؤتمر – ، تكوين مصرف إسلامي وعهدوا الى المندوب المصري أن يعمل على إعداد مشروع لإنشاء هذا المصرف مع من يرى الاستعانة به من الخبراء في الاقتصاد .

ونحب هنا أن ننبه الى أمرين لا بد من العناية بهما :

أولهما – أن يكون الخبراء الاقتصـــاديون الذين يعينون برأي المندوب المصري الفاضل من الذين يؤمنون بالقرآن ، أكثر من إيمانهم بالاقتصاد المولود في أحضان اليهود

ثانيهما – أن يكون ذلك المصرف خالياً من المعامـــلات الربوية ، وإلا لم يكن إسلامياً ، بل يكون له من الإسلام الاسم دون الحقيقة .

وصار مصرفاً ككل المصارف ، وفائدته تكون سياسية لا دينية ، والله الهادي الى سواء السبيل .

لا جمارك بين المسلمين :

١٥٥ – وخامسها – أن تزال الحاجزات الجمركية بين المسلمين ، فلا مكوس ولا ما يشبهها تؤخذ من الحاصلات الزراعية ، والمعادن التي تصدر من بلد إسلامي الى آخر ،وذلك لأننا أمة واحدة بحكم الإسلام ، وهو الحكم الذي لا ترضى حكومة غيره ، وإن المكوس أو الجمارك هي نوع من الاحتكار وتؤدي إليه ، والنبي ﷺ قال « المحتكر خاطىء ، والجالب مرزوق » فإذا نحن فتحنا الأبواب ليأخذ كل إقليم حظه من خيرات الإقليم الآخر، فقد فتحنا باب الجلب ، وغلقنا باب الاحتكار، وبحسب المآل فتحنا باب الرزق الحلال، وغلقنا باب الحرام .

وإن عمر بن الخطاب الذي فتحت أول ما فتحت في عهده الأقاليم، ما كان يضع محاجزة بين اقليم وآخر ، لأن خيرات الأرض لمالك الأرض والسموات توزع على عيال الله كل بحسب حاجته .

وإذا كان لا بد من وضع جمارك ، فعلى ما يخرج من الديار الإسلامية الى غير المسلمين ، فإنه لا يصدر إلى غير المسلمين إلا ما يفضل عن حاجات المسلمين جميعاً ، فلا تصدر مادة تكون نادرة في إقليم إسلامي إلا بعد أن يستوفي حاجته ولا يستورد من بلد غير إسلامي مادة تكون موفورة في اقليم إسلامي، ولو كان الاقليم المستورد محتاجاً الى هذه المادة ، فانه يستوردها من الاقليم المسلم .

ولذلك يجب أن تكون دراسة اسلامية شاملة لخيرات كل اقليم ، وما يحتاج اليه مما لا يكون عنده ، ويرسل فائض خيره إلى من يحتاج اليه، ويرسل اليه من فائض غيره ما لا يكون عنده .

وبذلك يتحقق الاكتفاء الذاتي للمسلمين ، وأرضهم تكفيهم ، ويفيض منها فائض يرسل في تنظيم دقيق إلى غيرهم .

إن الأراضي الاسلامية في آسية وافريقية ، وبعض أوربا فيها من الخيرات ما يكفي البلاد الاسلامية الضروري منها والحاجي والترفيهي .

إن الوضع القائم غير سليم ، إن من البلاد الاسلامية كمصر من يستورد القمح من امريكا ، ومن فرنسا ، بل من استراليا ، وهي في أشد الحاجة ، بينما الجزائر وحدها تستطيع أن تمد البلاد العربية كلها ، وهي تتجاوز المائة في الحسبة ، وقمحها أجود قمح ، ولكنها تصدره بالثمن لغير المسلمين ، وقيل لتشتري به أسلحة ، ولعله من بعد ذلك يباع للمسلمين

وهكذا غير القمح مما يحتاج اليه ، ولا يستغنى عنه ، يجتلب من البلاد الاوربية ، ولعله في الأصل مجلوب من أرض إسلامية ، والوسيط يتحكم في المسلمين شراء وبيعاً ، فهو يشتري بأبخس الاثمان ، أو بأقل ما يمكن أن يشتري به ، ويتحكم فيه ، ويضن به على البلاد التي تحتاج اليه من البلاد الإسلامية حتى تخر له صاغرة ، ويشترط لها ما شاء من الشروط لأنها محتاجة اليه ، وهي في الحقيقة غنية بأرضها من الاقاليم الإسلامية إن اتجهت إلى توحيد الغاية .

إن الأرض الاسلامية في كل الأقاليم الإسلامية تكفي أهلها ، ولا تحتاج قط إلى غيرها ، وغيرها هو الذي يحتاج اليها .

إن البلاد الإسلامية فيها كل الأجواء ، ففيها النباتات التي لا تنبت إلا في الاجواء الحارة ، وفيها الدوحات من الأشجار القوية البعيدة الجذور في الأرض التي تكثر في البلاد الباردة وفيها المعادن والكنوز ، وفيها كل ما يتصور أن تنتجه أرض ، ولكن كان الاستعمار في الماضي يحرمها من ثمراتها ويستبد هو بكل خيراتها ، وما يبقيه لا يكفي إلا ما يقيم الأود.

وإنه إذا كانت الوحدة الاقتصادية بين البلاد الإسلامية لا تحتاج إلى غيرها ، وغيرها يحتاج إلى ما عندها وإننا إذا اعتمدنا على أرضنا وعلى أنفسنا اتجهنا

إلى استخراج كل ينابيع الثروة في بلادنا ، فإذا كنا لا نطالب أمريكا بقمحها ولا روسيا بما عندها ، ولم نستجد من هنا وهناك ، فاننا لا محالة واجدون في ارضنا كل شيء وسنعمل على استخراجه ، فنستخرج من السودان ما نطيب به أرضه ونحيي مواته ، وان فيه سبعة ومائة مليون من الأفدنة صالحة للزراعة وفيها أطيب الفاكهة التي تترك من غير جني ، حتى تتعفن ، وتصير مصدر داء ، بدل أن نجني منها ثمراً يانعاً ، وطعاماً شهياً ، والعراق فيه نحو ستة وثلاثين مليوناً من الأفدنة ، لا يزرع منها إلا نحو سبعة ، والباقي واحات شاسعة قد أهملناه ولا نأخذ منه قليلا ولا كثيراً ، ونتكفف مع ذلك أيدي الذين لا يألوننا إلا خبالاً .

اننا حينئذ نحيي موات أرضنا ، ونستنبت نباتها ، ونستغل خيراتها . وانه إذا كان لدينا ، الاكتفاء الذاتي ، وقد صار فينا مهندسون ، وصناع مهرة أقمنا المصانع لتصنيع بلادنا ، وأصبحنا لا نحتاج إلى آلات نستوردها ، ولا إلى معدات نطلبها ، بل نقدم لغيرنا ما يفيض عن حاجات الاقاليم الإسلامية ، ونمد الانسانية بكل طاقاتنا ، ولا نكون فرصة تنتهز ولا منالاً لمن يريدنا اتباعاً له من هذا المعسكر أو ذاك المعسكر ، بل نكون سادة في أنفسنا ، وسادة لما وهبنا الله تعالى من خيرات ، ولا نكون طعمة يتطعمها غيرنا .

الهجرة

١٥٦ – يقول الله تعالى مرشداً هادياً : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ، أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ، فاذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾ يحرضنا القرآن الكريم على ألا نكون احلاس الأرض ، بل نهاجر حيث السعة ورغد العيش ، ويقول سبحانه فيما تلونا آنفاً ﴿ومن يهاجر في سبيل الله ، يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعة ﴾ .

وإنه يلاحظ أن الأمريكان الآن بما لهم يأخذون أبناءنا اليهم ، ليعمروا ديارهم ، ويقوموا بالواجبات التي تتقاضاها الحياة عندهم .

وإنه في الوحدة الإسلامية يجب أن تكون الهجرة الى أرض الإسلام ، فيهاجر أهل الخبرة من الاقاليم التي فيها علم مادي بالحياة وما فيها من مادة ليستخرجوا ينابيع الثروة فيها ، ويمنعوا أن يجيء اليهم الذين يستغلونهم لانفسهم ، ويتعرفون الينابيع ليستلبوها .

نريد أن تهاجر هذه الكفايات العلمية الى الاقاليم الإسلامية ، وفيها الخير العميم ، والنفع العظيم ، وارضاء الله سبحانه وتعالى ، ورضوانه تعالى اكبر .

وإنه فوق هجرة العلماء في داخل البلاد الإسلامية بحيث يتوافر في كل بلد إسلامي رجال من أهل الخبرة في الزراعة والصناعة ، وإدارة الدور المالية ، خصوصاً في الشعوب المتخلفة فيها .

إنه فوق هذه الهجرة العلمية ، يجب أن يفتح باب الهجرة،من البلاد الآهلة بالسكان إلى البلاد القليلة في أعدادها،لأن السكان في البلاد الإسلامية يتكاثفون في إقليم ، ويقلون في اقليم ، وكما يفيض كل إقليم إسلامي بما عنده من فائض إلى الاقاليم ، فخير فائض هو الأنفس البشرية فالبلد الذي لا تتناسب أرضه مع عدده لقلتها نسبياً بالنسبة لعدد السكان تفيض بالأيدي العاملة على البلادالتي تقل فيها هذه الأيدي .

إن كل الأراضي الإسلامية في مجموعها يزيد على ما يحتاجه كل السكان لو تعاونت كل الاقاليم في توزيع سكانها على حسب الحاجات .

اننا نجد بعض البلاد الإسلامية قد اكتظ بسكانه، حتى بلغ أقصى درجات الكظة .

ونجد بعض البلاد الإسلامية خالياً ممن يعمرها ، كما ذكرنا في السودان ، وفي العراق ، ومثلها كثير .

فإذا فتح باب الهجرة ، ونظمت ، وأحس كل مسلم أنـــه إذا انتقل الى أرض من أرض الإسلام،إنما ينتقل الى أرضه ولا يكون غريباً بها ، فإن ذلك يكون فيه الخير،وتستخرج خيرات المسلمين ، ولا تكون مجاعة في بلدإسلامي ويمن الغرب بأنه يسارع الى اغاثته، وهو يأخذ ماله، ويدفعه الى هذهالمخمصة.

وبهذه الهجرة وبما ذكرنا ينتفع المسلمون بكل قواهم ومواردهم من زراعية، وصناعية ، ومعدنية ، وإنسانية اللهم هيىء لنا من أمرنا رشداً ، واذهب عنا الأهواء التي فرقتنا ، واهدنا الى ما يجمع الشمل ، ويكشف الغمة .

وحدة السياسة الخارجية

١٥٧ — نقصد بوحدة السياسة الخارجية أن تكون علاقة الأقاليم الإسلامية متحدة في عداوتها وولائها ، وذلك يقتضي أمرين :

أحدهما — ألا يكون بين أي اقليم وآخر من الأقاليم الإسلامية خلاف سياسي يجعل أحدهما يناوىء الآخر في سياسته بالنسبة للعلاقات الخارجية ، ولكل سياسته الداخلية ، ونظمه الدستورية والقانونية بشرط ألا تكون على خلاف القرآن والسنة فالاحكام الثابتة بالقرآن والسنة من غير تأويل عامة بالنسبة للمسلمين اجمعين ويتبع ذلك بلا ريب أن تكون الشورى هي أساس النظام وعلى أساسها يكون النظام ، ومن غير تدخل في أصل الحكم أيكون في بيت واحد ، أم يكون من غير تعيين ، وسواء أكان هذا أم ذلك ، فانه يجب أن يتحقق مبدأ الشورى في الاختيار وفي الأحكام ، وتنفيذها ، فلا استبداد ولا ما يشبهه ولا ما يؤدي اليه بأي صورة من الصور .

ثانيهما — ألا يدخل أي اقليم من الاقاليم الإسلامية في أي اتفاق سياسي منفردا ، لأن ذلك قد يؤدي الى أن يتخالف المسلمون في اتفاقاتهم ، فيوالي هذا دولة يعاديها اقليم آخر من الاقاليم ، فسداً للذريعة لا يجوز الاتفاق الانفرادي لأي ولاية أو اقليم إسلامي ، حتى يكون الجميع على ولاء واحد ، وإننا في وحدتنا الإسلامية نتبع التجربة التي حدثت في عهد الراشدين ، ثم في عهد ملوك المسلمين : عندما كانت الوحدة الإسلامية قائمة، وإن لم يكن النظام

إسلامياًمن كل الوجوه على ما أشرنا من قبل ،إننا نريد وحدة فيها حرية الاقاليم في إدارة شؤونها ، ولكن لها وحدة جامعة هي الجامعة الإسلامية وقد يكون لهذا استثناء جزئي بأن يكون اقليم ناء وقد اضطرته الأحوال لأن يعقد عقد عدم اعتداء مع الدولة التي تجاوره ، فإن ذلك يجوز أن يقع ولكن يجب إعلام مجلس إدارة الجامعة الإسلامية . ولمجلس الإدارة أن يوافق عليه ليكون موثقاً من الجامعة الإسلامية ، ويشترط لموافقته ألا يكون فيه ما يمس اقليماأو ولاية إسلامية .

وإن الوحدة في السياسة الخارجية توجب أن يكون المسلمون مجتمعين قوة دولية موحدة ، فلا تشذ واحدة منها عن الأخرى .

وقد يكون من الخير أن يكون لكل إقليم صوت مستقل في المجتمعات الدولية ولكنهم عند التصويت في أي أمر يجب أن يكون صوتهم متحداً ، ليكونوا قوة مرهوبة يحسب حسابها ، وإن ذلك التكتل يقع في المجتمعات الدولية على بقاء كل دولة من الكتلة بصوتها الذي تبديه ، فدول أمريكا الجنوبية تكون كتلة دولية ، ولكل دولة صوتها المستقل مع اتحادها جميعاً، وهي تتفق قبل التصويت ، والدول الاشتراكية تكون كتلة دولية ، ولكل دولة صوتها ، ولكنها متحدة في السياسة العامة والاتجاه السياسي العام .

وإن ذلك المبدأ يسيرعلى أساس أن الوحدة الإسلامية ليست دولةواحدة، ولكن لكل إقليم شخصيته مع الاتحاد العام في العمل والغاية ورقعة البلاد .

الأحلاف :

١٥٨ - أساس السياسة للوحدة الاسلامية أن تكون محايدة في الجملة ، لأنه معتنازع المآرب والغايات فيدول العالم لا يصح أن تنحاز لمجموعةمنالدول ضد مجموعة أخرى ، لأنها لا تكون عاملة للإسلام ، بل تكون عاملة لمن انحازت إليه .

ولذلك لا يصح أن تشترك الوحدة الإسلامية في أي حلف ، وذلك لما يأتي :

أولا – انها ان اندمجت في حلف فقادة الحلف ، والدول العظمى فيه هي التي تسيره ، وتوجهه ، وفي هذه الحال تفقد جزءاً من استقلالها السياسي ، ولأنها تكون سائرة مع القوي ، ظلم أو عدل ، استقام أو اعوج ، واعتبر ذلك بحال بعض الدول الإسلامية التي دخلت في حلف الاطلنطي ، فإنها لا تسير سياسته ، وليست عندها الطاقة لأن تسير سياسته ، أو يكون لها دخل في تسييرها ، ولقد حدث أن أسلحة الاطلنطي كانت مسخرة لضرب البلاد الإسلامية التي تريد أن ترفع نير الاستعمار عنها ، كالجزائر ، فإن أسلحة ذلك الحلف هي التي كانت تضرب ثورة الجزائر التي انتهت بأن ألقت بالاستعمار في البحر المتوسط .

وانه عندما أراد اعداء الحق انشاء حلف سموه حلفاً إسلامياً كان المقصود منه أن يجعل المسلمين جميعاً في قبضة الأمريكان الذين لا يرجون للإسلام وقاراً ، وسياستهم ضد الإسلام على خط مستقيم .

وثانياً – ان الاحلاف تجعل الجامعة الإسلامية تتعرض للهجوم ممن كان الحلف ضدهم .

وثالثاً – ان هذه الاحلاف في واقعها في هذه الايام تناقض مبدأ الاسلام في الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ ويقول سبحانه تعالت كلماته : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ وفوق ذلك فإن الاحلاف العسكرية في حروب هذا العصر الذي أساسه التغالب ، ولا يتحرى العدل ، بل يقع في الظلم ، هو تعاون على الاثم والعدوان ، والله تعالى يقول : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾ .

ورابعاً – ان الاسلام دعا إلى ألا يقاتل المسلمون من لا يقـــاتلون ، بل يكون غير منحاز ، ولقد قال تعالى بعد الأمر بقتال المعادين للاسلام الذين يمتدون على المسلمين قال سبحانه : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينــكم وبينهم ميثاق،أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم ، أو يقاتلوا قومهم، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، والقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لـكم عليهم سبيلاً ﴾ ويأمر المسلمن بألا يقاتلوا من يلقي السلام ، فيقول سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله ، فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام : لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ، فتبينوا، إن الله كان بما تعلمون خبيراً ﴾ .

وهكذا نجد النصوص القرآنية واعمال النبي ﷺ تدل على أن التحالف الذي يدعو إلى التكتل ، وأن يكون المتحالفون ضد طائفة من الناس ، ولا يكون أساس التحالف دفع الظلم ، ومنع الأذى ، بل يكون الأساس هو المغالبة بين مذهبين ، أو اتجاهين ، أو نوعين من الناس ، ويكون فيه خروج عن الإسلام وبذلك يفترق الحلف عن الميثاق الذي يكون للمودة والمعاونة .

العهود أو المواثيق أو الأحلاف الفاضلة :

١٥٩ – إذا كانت المحالفات مع غير المسلمين لا تجوز ، فالمعاهدات تجوز، وفرق بين الحلف والمعاهدة ، لأن الحلف اتفاق على الحرب ، والاتفاق على الحرب مع غير المسلمين يجر الإقليم الإسلامي إلى أن يحارب ، سواء أكانت الحرب جائزة في الإسلام أم لا ، لأن الحرب في الإسلام لا تجوز إلا لدفـــع الاعتداء ، أو لدفع الفساد في الأرض كما قال الله تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العـالمين ﴾ فالحرب الاسلامية حرب فاضلة تدفع اليها الفضيلة وتظلها الفضيلة ، وذلك غيرمضمون

في الأحلاف المطلقة التي تكون ضد مذهب ، أو ضد جماعة ، أو تكون عوناً للقوى في الأرض غربية وشرقية ونحو ذلك .

وان هذا يدفعنا إلى أن نقول إن نوعاً آخر من المحالفات العادلة يجوز ، كالمحالفة التي تكون للعمل على معاونة الضعفاء ، كحلف الفضول الذي عقد في مكة قبيل البعثة المحمدية ، فقد عقد في دار عبدالله بن جدعان حلف قوامه أن المتحالفين يتحالفون لينصرن الضعيف على القوي ، وليأخذن على يدي القوي، ما رسا حراء وثبير ، وما بل بحر صوفة .

فان هذه محالفة دفعت اليها الفضيلة والنخوة العربية ، وهو فضيلة في ذاته ولذا قال فيه النبي ﷺ « حضرت بدار عبدالله بن جدعان حلفا ، ما يسرني به حمر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت ، فهذا النوع من الأحلاف لا يوجد مع الأسى والأسف ، انما الذي يوجد هو الأحلاف الآثمة التي يتحالف فيها الاقوياء ، ليجتازوا العالم ، ويفرضوا على الناس ما يفرضون، وهي أحلاف في أساسها كما ذكرنا تعاون على الاثم والعدوان .

وهذا النوع الذي نستنكره ، وندعو الجامعة الاسلامية إلى ألا تؤيده غير الحلف الفاضل الذي أقره النبي ﷺ ، وندعو الجامعة الاسلامية أن تكون الجامعة الدولية التي تحث على الفضيلة في الجماعات ، كما يحث الإسلام على الفضيلة بين الآحاد.

وان نصرة الضعفاء ولو كانوا غير مسلمين أشد انواع البر تقريباً إلى الله تعالى فلقد قال ﷺ : « ابغوني في ضعفائكم ، فانما تنصرون وترزقون بضعفائكم لأن العدل خلق الإسلام ، والله تعالى يقول : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

هذا هو الأمر بالنسبة للاحلاف حلالها وحرامها .

أما العهود الموثقة ، فانها تكون انهاء للحرب ، أو تنظيما للسلم وانه كان لا بد للإسلام من أن يضبط العهود والمواثيق ، لأنه جـــاء لنقض ما يكون باطلا ، وسن ما يكون حقاً ، وينظمه .

وان المعاهدات قبل الإسلام كما هي الآن يتخذها القوي لفرض سلطانه على الضعفاء ، حتى إذا قوي الضعيف نبذها ، وقاتل لاخراج نفسه من ذل الضعف إلى غطرسة القــوة وهي الآن كذلك كما أشرنا من قبــل ، والإسلام دين العدل لا يفرض المعاهدات إلا لمنع الحرب ، أو لانهاء القتال ، أو لتنظيم سلم عادل .

وإذا كان الإسلام قد قرر فيما قرر أن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هي السلم ، حتى يكون اعتداء أو فساد يجب دفعه ، فالمعاهدات تكون لانهاء حرب عارضة ، والعود إلى حال السلم الدائم وإقرار بها وتثبيت لدعائمها لكيلا يكون بعد ذلك اعتداء إلا أن يكون نقضاً لعهد .

ولقد كان رسول الله ﷺ يعقد العهود والمواثيق لتثبيت السلم فعقد مع نصارى نجران وعقد مع اليهود الذين كانوا ينقضون عهد الله من بعده ميثاقه.

ولقد جاء في كتاب كتبه لليهود يثبت فيه عهده ، جاء فيه :

« لـكم ذمة الله وذمة رسوله ، على أنفسكم، ودينـكم ، وأموالكم، ورقيقكم وعلى كل ما ملكت أيمانكم، لا يطأ أرضكم جيش ولا تحشدون ولا تحشرون، من سافر منكم فهو في أمان الله ، وأمان رسول الله ﷺ « لا إكراه في الدين » .

وهذا عهد تفيض معانيه بالأمان والحرية ، ولكنهم نقضوه ، وتآمروا مع المشركين ، والشديدة ، تحيط بالمدينة ، والبلاء بلاء ، وما جزاء الخيانة إلا أن ينزل بهم ما كانوا يريدون أن ينزلوه بخياناتهم لله ولرسوله ، وللحق والذمة وقد كان الصحابة من بعـد رسول الله ﷺ يعقدون المعـــاهدات للموادعة

والمسالمة ، ولمنع الحرب ، ومن هذه المعاهدات معاهدة الإمام عمر رضي الله تعالى عنه لأهل ايلياء « بيت المقدس » وقد جاء فيها ما نصه: هذا ما اعطى عبدالله عمر بن الخطاب أهل ايلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم، ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ، ولا من حيزها ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء أحد من اليهود .

المعاهدات لا تقر الظلم :

١٦٠ – إن المعاهدات الاسلامية تكون لأمرين . أولهما تثبيت السلم والعمل على استمراره ، وثانيهما – اقامة العدل ومنع الظلم ، ولذلك لا يقرر الاسلام إطلاق أيدي من يعاهدونه من الملوك أو الكبراء في ظلم الرعايا وارهاقهم .

وإن الفقهاء المسلمين قد نظروا في المعاهدات التي تعقد مع الملوك أو الحكام وقرروا أنها تكون على أساس العدل ، ومصلحة الرعايا قبل مصلحة الملوك والحكام ، ولذلك كان العهد قائماً على أن يعدلوا مع رعاياهم ، ولا يرهقوهم ، ولقد جاء في كتاب المبسوط للسرخسي من فقهاء الحنفية ما نصه:
« إذا طلب ملك الذمة العقد على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء ، من قتل أو صلب أو غيره مما لا يصلح في دار الإسلام ، لم يجب الى ذلك ، لأن التقرير على الظلم مع إمكان المنع حرام ، ولأن الذي يلتزم أحكام الإسلام فيما يرجع الى المعاملات فشرطه بخلاف موجب عقد الذمة باطل ، فإن اعطى الصلح والذمة على هذا بطل من شروطه مالا يصح في الإسلام ، لقوله ﷺ : « كل شرط ليس في كتاب الله باطل »

وهكذا نرى أن فقهاء المسلمين عند إقرارهم العهود والمواثيق التي تسوغ بقاء الملوك على عروشهم يحكمون في رعاياهم مع بقائهم في عهد مع المسلمين يشترطون

العدل ، لأن الشروط التي تقبل في المعاهدات هي الشروط العادلة وكل شرط فيه ظلم للرعايا يكون باطلاً ، وفي موضع اللغو ، ويبيح للمسلمين التدخل لمنعه .

وإن ذلك هو الذي يجب أن تعطيه الجامعة الإسلامية في عهودها لتضرب الامثال للناس في إقامة العدل ودفع الظلم ، ولتكون جامعة أسست على تقوى من الله ورضوان ، ولينتشر العدل ، ويذهب الظلم ، ولتملأ الدنيا عدلاً ، كما ملئت زوراً وظلماً .

الوفاء بالعهود :

١٦١ – الوفاء بالعهود أمر أوجبه الإسلام ، وحث عليه، ولو كان صاحب العهد مشركا، ولقد قال تعالى في ذلك ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين .﴾

ولقد جاء الأمر الصريح بالوفاء بالعهد في قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسؤولا ﴾ .

وإن دين الفضيلة والعدالة يوجب الوفاء بالعهد، ولقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ والوفاء بالعهد في ذاته فوق أنه عدالة وفضيلة هو قوة ، والنكث في العهد ضعف، ولقد قال تعالى مؤكداً وجوب الوفاء بالعهد: ﴿ وأوفو بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن الله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ولتسألن عما

كنتم تعملون ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم ﴾ .

وإن هذا النص فيه تشديد على وجوب الوفاء بالعهد ، وتغليظ لنقضه ، ونشير الى أن أشد النقض ما كان بين شعب وشعب ، ويريد الناقض أن يزداد قوة ، أو أن تكون رقعة أرضه أقوى .

وإن الآية الكريمة تدل على أمور :

أولها — أن العهد الذي يذكر فيه اسم الله ، أو يعقد باسم الإسلام هو عهد الله تعالى ، فمن ينقضه ، فإنما ينقض عهد الله تعالى وميثاقه ، فجرمه عظيم ، وليس اعتداؤه مقصوراً على من نقض عهده .

ثانيها — أن العهد في ذاته قوة ، والتزامه قوة ، لأنه يأمن فيه جانب الاعتداء ، وأمن الاعتداء يثبت دعائم السلام ، والسلام تطمئن فيه الشعوب ، وتستقر ، ولذلك شبه من ينقض عهده بحال الحمقاء التي تغزل غزلها تحكمه ، وتقويه ، ثم بعد ذلك تنقضه انكاثا أي اجزاء صغيرة متفرقة مشعثة ، وذكر أن النكث فيه زلل للقدم بعد ثبوتها ، إذ أنها تثبت بالسلم الذي أوجده العهد ، وفي السلم قوة وثبات ، والنقض إزالة للأمن وللثبات المستمر ، والاطمئنان الدائم .

ثالثها — أن النص الكريم يشير الى ما يدفع الى النقض من طبائع الملوك الذين لا يبغون سلاماً ، وهو ارادة إتساع رقعة الملك ، ونماء القوة على أساس من الظلم والارهاق .

ولذلك قال تعالى : ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ أي لا يصح أن تدفعكم الرغبة في زيادة الرقعة ، وكثرة عدد المحكومين ، وقوة العتاد على النقض ، لأن النقض زلل يؤدي الى الضعف ، وإلى الانزعاج المستمر ، والى الخوف ، والى التعرض لتهلكة الحرب ، وضعف ثقة الناس ، ومتى ضعفت ثقة

الناس في دولة لا يطمئن اليها، ولقد وصفت احدى الدول الكبرى المعاهدات بأنها قصاصات أوراق ، فلما احتاجت الى عقد المعاهدات لم تجد من يطمئن الى عهودها فنفرت منها كل الدول، وكل القوى وإنه يجب على المسلمين ألا ينقضوا العهد إلا إذا ظهرت بوادر الخيانة ، ولا يصح النقض لمجرد خوف عدم الوفاء من غير بوادر الخيانة، ولقد روي أن المؤمنين شكوا الى النبي استعداد المشركين بعد صلح الحديبية ، فقال لهم ﷺ : « وفوا لهم واستعينوا الله عليهم » .

ولكن إذا ظهرت الخيانة ، وقامت اماراتها وجب أن ينبذ اليهم عهدهم، ويعلنوا بذلك وهذا ما يدل عليه قوله تعالى ﴿وإما تخافن من قوم خيانة، فانبذ إليهم على سواء﴾ أي يرد عليهم عهدهم ، ويعلنون .

الخلاصة :

١٦٢ – أما بعد ، فإنه يجب أن تتحقق الوحدة الإسلامية في السياسة الخارجية، وتقوم على أساس من الحكم الإسلامي الصحيح ، والمصلحة الإسلامية التي يدعو اليها الإسلام ، وأن يكون العدل أصلا من أصول هذه العلاقات ، فإنه الميزان للحق والمقياس، والميزان الذي لا يخطىء ، وهو مبدأ الإسلام في المعاملات الانسانية آحاداً وجماعات .

وإنه يجب التنبيه هنا الى أمر ذي شأن ، وهو مبدأ من مبادىء الإسلام المقررة الثابتة .

ذلك الأمر أنه إذا حصل اعتداء على الأقليات الإسلامية من الدولة التي تعيش فيها فانه يجب على الجامعة الإسلامية ، أن تتصل بهذه الدولة لتمنع الظلم الواقع على تلك الأقلية المسلمة ، فإن المسلم أخ المسلم لا يحقره ولا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه ، كما صرح النبي ﷺ .

وإن النبي ﷺ قرر ذلك المبدأ الجليل ، فلا مناص منه، وذلك أن النبي ﷺ أرسل الجيوش الإسلامية لمقاتلة الروم ، عندما تبين أنهم قتلوا من دخلوا

في الإسلام من الغساسنة في الشام ، فكان القتال المرير في غزوة مؤتةوتبوك ، ثم جهز جيش أسامة في آخر حياته ، وأوصى بأن ينفذ بعد وفاته .

وان ايذاء المسلمين ، كما هو واقع في بعض البلاد الافريقية فتنـــة لهم في دينهم ، وقد قاتل النبي ﷺ قريشاً ، لأنهم كانوا يفتنون المؤمنين في دينهم والفتنة أشد من القتل ، وقـــد قال تعالى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ﴾ .

انه يجب أن تكون الجامعة الإسلامية عزاً للمسلمين في قلتهم وكثرتهم ، ليكونوا أمة وسطاً للخير في هذا العالم الذي يموج بالفتن ويموج بالشر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ فلنكن تلك الأمة الوسط ، وهي المثلى .

وحدة الجيوش

وحدة الجيوش في الجامعة الاسلامية :

١٦٣ – لسنا من رجال الحرب ، ولا من العارفين لأساليبه ، ولا ممن عنوا بدراسة تاريخ الحروب العالمية من عهد نيبال إلى عهد هندنبرج ، ولم ندرس إلا تاريخ الحروب الإسلامية في غير استقصاء لمناهجها ، ولا تعرف دقيق لأساليبها ، ولذلك نترك الكلام في ذلك إلى أهل الخبرة في الحروب الذين مارسوا بعضها ، ودرسوا جلها ، ولهم في ذلك بحوث في مجالاتها ، وكلامهم فيها هو المجدي في مثل هذا الموضوع .

ولكننا نريد أن نقول كلمة صغيرة في هذا المقام فيما يتعلق بالوحدة الإسلامية ، وما تتبعه الجامعة الإسلامية مشيرين غير مبينين ، لأننا لا نملك البيان ، ولكيلا نكون كحاطب ليل .

(أ) انه يجب أن يكون للمسلمين وحدة رئيسية لجيوشهم ، هي التي تدبر ، وهي التي تهيء ، وهي التي تجيب عند أول هيعة ، وتكون قوة الجيش للمسلمين جميعاً ، لا لقوم دون قوم ، ولا اقليم دون اقليم .

(ب) وانه يجب أن يكون في كل اقليم اسلامي قوة تحمي الإقليم من غارات من يجاورونه حتى لا يراد بسوء ، وأن يكون في كل إقليم وزارة للحرب .

ولكن يجب أن يكون نظام هذا الجيش الاقليمي خاضعاً للجامعة الاسلامية ، وأن يكون تحت اشراف مجلس جامعة الدول الاسلامية والجيش الكبير الجامع لكل القوى .

(جـ) ويجب أن تزود القوى الاسلامية كلها ، بالمواد الفتاكة التي تكون في قدرة كل دولة ، فان ذلك يدخل في مضمون قوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ، فان القوة تختلف في الحاضر عنها في الماضي وان تزويد القوى الاسلامية بكل ذلك فرض كفاية ، لا يصح أن تتخلى عنه الجامعة الاسلامية ، وان ذلك يقتضي أن يتجه علماء البحث والدراسة الى متابعة ما تتسلح به الجيوش في البلاد المختلفة ، ولا يني علماء المسلمين عن هذه المتابعة ، على أن تصنع في الديار الاسلامية ، انه لا يمكن أن تكون الأمة حربية اذا كانت تستمد اسلحتها من فضل غيرها ، فقد يعطي ، وقد يمنع ، وهو في العطاء والمنع لا يلاحظ إلا مصلحته هو وان هذا الفرض الكفائي يجب على الأمة مجتمعة ، وممثلة في مجلس ادارة الجامعة الاسلامية ، ويجب على الخصوص على العلماء الباحثين الذين يؤهلون لذلك وعلى الأمة الاسلامية مجتمعة أن تهيىء لهم الأسباب ، بأن تعد لهم المعامل التي يجرون فيها تجاربهم ، والمواد التي تتكون منها ، والمال الذي يحتاجون اليه .

إن البلاد الاسلامية أرضها غنية بكل ما يمكن أن تكون منه تلك الاسلحة المختلفة ، وان البلاد التي تستخدم الذرة بكل انواعها ، يأخذون من افريقية ومن غيرها المواد المكونة لها .

ولسنا نطلب ذلك ليكون من الجامعة الاسلامية اعتداء ، بل هو لدفع الاعتداء والمحارب مأخوذ بسلاح محاربه فيجب أن يكون في يده ما يماثل ما في يد خصمه ، وان المعتدي ان شعر بذلك تردد في اعتدائه ، أو امتنع عنه ، فالاستعداد أنفى للاعتداء ، ويجعل المعتدي يتردد فيه .

واعتبر ذلك بما بين أمريكا وروسيا ، فكلتاهما لا تفكر في الاعتداء على

الأخرى مع شدة التنازع المادي ، واختلاف المذهب الاجتماعي ، لأن كاتيهما تخشى ما عند الأخرى .

فنحن نريد السلاح لا لنعتدي ، ولكن نريده لنكون في أمن منه ، وان الشر يدفع بمثله ، وكما قال علي رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه في الجنة . « ادفعوا الحجر من حيث جاء فانه لا يدفع الشر إلا شر مثله » . وبعبارة أخرى لا يمنع الشر الا الاستعداد لدفعه ، وابلغ أنواع الاستعداد هوالاستعداد العلمي في تلك الحرب العلمية .

وان وجد شر قاتل ، وهو الحرب بالمبيدات ، لأن الذين فقدوا سلطان الضمير الانساني يحاربون بالآفات التي تهلك الحرث والنسل ، وتبيد الزروع في منابتها ، فيجب علينا أن ندرس هذا لنعاملهم بالمثل إن أقدموا عليه .

واذا كنا في بعض كتاباتنا قررنا أن الإسلام لا يعمل على الاعتداء على الشعوب الآمنة ، ويمنع إتلاف الزرع وإتلاف الحيوان من النعم في غير مأكلة ، فان ذلك كان في الحروب الماضية التي كانت لا تتجاوز معسكر السلطان ، أما الآن فان الحرب حرب شعوب ، ولأننا نريد أن نمنع الأذى عن الشعوب الاسلامية ، بل نريد أكثر من ذلك أن نمنع التفكير في الأذى .

مجلس للقيادة

(د) وانه يجب مع ما سبق أن يكون ثمة مجلس للقيادة الحربية الاسلامية يجتمع فيه أولئك القواد من الأقاليم الاسلامية يمثل كل اقليم عضو أو عضوان أو أكثر ، وأن يكون هناك قائد اسلامي عام ، يضع الخطط بالاشتراك مع أهل شورى الحرب .

(هـ) وانه يجب مع ذلك أن تكون في الجامعة قوة للأمن داخلية فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وليكن من بين الشعوب الاسلامية في التكوين السياسي مجلس للامن مكون من أعضاء يمثلون الأقاليم الاسلامية وأن يكون لهذا المجلس قوة قائمة تمنع اعتداء اقليم على اقليم .

فإذا اعتدى إقليم على إقليم كان لمجلس الأمن ، أو عليه أن يتدخل لمنع الاعتداء ، بل انه يجب أن يتدخل عند حصول الاختلاف الاقليمي ، وذلك تحقيق لقوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ .

فهذه القوة الإسلامية التي تكون تابعة، لمجلس أمن الدول الإسلامية تكون لتردع الجاني ولتحمله على الجادة ، ولتفيء إلى أمر الله .

إننا لا نضمن إخلاص كل الحكام ، ولا نضمن الدخيل المفسد ، فلا بد من قوة رادعة ، والله سبحانه بكل شيء محيط .

مجلس الجامعة الاسلامية :

١٦٤ — هذه العناصر المختلفة من تنفيذ احكام الله تعالى التي وردت بها النصوص الشرعية ، ووحدة السياسة الخارجية وتنظيم العلاقات بين الأقاليم الإسلامية ثم تنظيم الحرب ، وكل ما يتعلق بها ، ومنع البغي من إقليم على إقليم كل هذا يحتاج إلى رياسة موجهة ، تتفق مع بقاء شخصية كاملة لكل اقليم في أرضه ودائرته .

وإن هذه الرياسة لا يمكن أن نجعلها لواحد منفرداً عن أهل الشورى، فقد جربنا ذلك في حكم الملوك الذين تسموا باسم الخلفاء إذ انهم كانوا ينفردون بالأحكام ، ومن حولهم ظل لهم ، لا إرادة لهم بجوار إرادتهم ، وإذا كانت لهم إرادة ، فانما يحطون بها على هوى هؤلاء الملوك الذين سموا أنفسهم خلفاء وأمراء المؤمنين .

وإذا كانت خلافة كخلافة أبي بكر وعمر، فانهم كانوا يستشيرون، وما كان أهل شوراهم يقولون غير الحق مرضاة لهوى أحد وكان لعمر نوعان من الشورى.

أحدهما – الشورى الخاصة، وهي التي كان يصطفي بها كبار علماء الصحابة مثل علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وعبدالله بن مسعود وعبدالله ابن عباس وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل، وهؤلاء كانوا يستشارون فيما يستغلق من الأمور .

وثانيهما – شورى عامة ، كان يدعو فيها الى ظاهر المدينة كل البالغين الراشدين من أهل المدينة ، وذلك في المسائل التي لا تعالج حالاً خاصة ، بل يكون فيها تقرير لأمر دائم ، أو تكون علاجاً لحال لها خطر وشأن .

ومن ذلك ما دعاهم لأجله عندما أراد أن يترك أرض العراق وفارس في أيدي زراعها ، فقد جمع أهل البلاد وقال لهم رأيه ، واستمعوا الى رأي مخالفيه الذين كانوا يريدون تقسيمها كغنيمة .

وقد استمرت المناقشة بثلاثة أيام، وانتهت بالخضوع لرأي عمر رضي الله عنه عندما ساق لهم الآية الدالة على أن الأرض تبقى في ايدي الزراع ، وخراجها يكون للمسلمين ممثلين في ولي الأمر وبيت مال المسلمين .

ومن شوراه رضي الله عنه العامة أن بلغه تكاثر أهل فارس على المسلمين ، فأراد أن يخرج بنفسه الى الغزو فجمع أهل المدينة ليستشيرهم في ذلك ، فتكلموا في ذلك ، وأشار عليه علي رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه في الجنة بأن يبقى ، حتى لا يكون ما يدع وراءه من العورات أشد مما يلقى المسلمون، وحتى لا يشتد كلبهم على الجيوش الاسلامية ويقولوا هذا أصل العرب ، إن قتلناه ، تفرقوا ، فنزل عمر رضي الله عنه عند ذلك الرأي .

١٦٥ – من بعد أن جاء ملوك بني أمية ، ثم ملوك بني العباس ، وان تسمى ملوك الدولتين بأسماء الخلفاء وأمراء المسلمين – من بعد ذلك أهملت الشورى فتحكم الفرس والترك . وانحلت الوحدة الإسلامية ، على ما ذكرنا مما أثر في هذا الاجتماع الاسلامي وتفرق بعده المسلمون .

لذلك كان لا بد أن تكون الرياسة الإسلامية لغير واحد . وقد تنتهي الى واحد يختار من بينهم لمدة ، وليس لمدى الحياة ، وقد نعد هـــذا هو خليفة المسلمين ، ونعده أمير المؤمنين ، ويكون أميراً لهم حقاً وصدقاً .

ولكن كيف يتكون هذا المجلس الذي ترجع إليه أمور ثمانمائة مليون مسلم موزعين في الأرض ، يتكون هذا المجلس من عناصر ثلاثة .

رجال لهم خبرة في السياسة والادارة ونظم الدول ، ورجال لهم علم في الإسلام ، ورجال لهم خبرة في الحروب .

وهؤلاء يكونون أولي الأمر فينا الذين أمرنا الله تعالى بطاعتهم، إذ يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ،فإن تنازعتم في شيء ، فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ، ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقدأمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾.

وإن أولي الأمر الذين أمرنا بطاعتهم صنفان ، العلمـــاء الذين يتعرفون الأحكام من كتاب الله تعالى وسنة رسوله . والثاني الحكام . وهذا ما يقرره العلماء وابن تيمية في هذا ، إذ يقول « وأولو الأمر في هـــذا صنفان العلماء والامراء ، وهم الذين اذا صلحوا صلح الناس ، فعلى كل منهما أن يتحرى ما يقوله وما يفعله طاعة لله ورسوله ، واتباع كتاب الله تعالى» وليس معنى كون العلماء من ولاة الأمر أن أقوالهم حجة في ذاتها ، فليسوا كالأحبار عند اليهود والنصارى أقوالهم حجة في ذاتها،انما هم مستنبطون مفسرون للكتاب والسنة، وليس كلامهم حجة إلا بمقدار سلامته في استخراج الحكم من مصدره،فالمصدر هو الأصل المتبع ، ولقد كان شيخ الفقهاء أبو حنيفة يقول : « ليس لأحـد أن يأخذ بقولنا إلا إذا علم من أين أخذنا » .

والأمراء هم الحكام ، ويدخل فيهم المحاربون ، فهم امراء الحرب أو ولاتها .

كيف يختار مجلس الادارة :

١٦٦ – يختار غير الحربيين من مجلس الادارة وهم العلماء والذين يديرون السياسة الإسلامية ، ويوثقون الصلات بين الاقاليم المختلفة ، ويعرفون حاجات كل اقليم ، ويراقبون شؤونه ، ويوثقون العلاقات الاقتصادية ، يختارون بالانتخاب ويختارون مدير السياسة بالانتخاب من المجالس النيابية في كل إقليم فكل اقليم يختار مجلسه النيابي واحداً أو اثنين ، ليمثل الاقليم في مجلس ادارة الجامعة الإسلامية .

ويختار المجلس الأعلى الإسلامي في كل إقليم اسلامي اثنين من العلماء أو أكثر ، وذلك للرقابة على تنفيذ القوانين الاسلامية ، في ظل القرآن والسنة وما ينبغي اتباعه في الاقليم .

وذلك ليكون المجلس ممثلاً لكل عناصر التكوين للجامعة الاسلامية .

وان مجلس الجامعة الاسلامية هو الذي يختار من يرى أن يضمهم اليه من قادة الحروب ومن يرى الأمور فيها ويلاحظ أنه ينبغي أن يكون مجلس الجامعة ممثلة فيه كل المذاهب الإسلامية ، فيكون فيه علماء من المذهب الزيدي وآخرون من المذهب الجعفري ، وغيرهم من المذهب الاماضي ، ثم المذاهب الأربعة ، ولا يلزم أن يبعث كل اقليم في مذهبين مختلفين ، بل يلاحظ أن يكون مجموع أعضاء المجلس فيهم هؤلاء الممثلون للمذاهب لا أن يختار كل اقليم ممثلين له من كل المذاهب ، فان ذلك يجعل العدد كثيراً ، وكلما كان في دائرة معقولة من حيث العدد كان الاتفاق أقرب ،

وننبه إلى أمرين جديرين بالاعتبار :

أولها – ان هذا المجلس يختار رئيساً له . ويُعَدُّ ذلك الرئيس هو الامام الاعظم للمسلمين أو هو الخليفة أو هو أمير المؤمنين ، كما أشرنا من قبل ، على

أن يكون اختياره لأمد معلوم كما قلنا من قبل ، ولا يكون مدى الحياة .

ثانيها – أن اختيار هذ الرئيس يكون باكثرية خاصة ، وهي الثلثان للحاضرين على الأقل ، ويعزل بمثلها أيضاً ،

وقرارات المجلس تكون ملزمة لكل المسلمين ، ولا تجوز مخالفتها .

هذا واننا نرى أن يكون مكان مجلس الادارة هو المدينة المطهرة ، حيث جثمان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنها المدينة التي كان يقيم بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الاسلام ، ولأنها كانت موطن الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ، وما خرج علي عنها إلا لأجل الحوادث .

أما بعد :

فهذه خواطر عرضت أبديتها ، وقد دفعني اليها أمران :

أولهما – ما نراه الآن من التدابر بين المسلمين ، حتى انه ينظر حكام القوم من المسلمين الى اخوانهم من المسلمين نظرة من لا يربطه به رابطة ، ويؤثرون ولاء غير المسلم على ولاء المسلم ، وتنزل النازلة بقوم من المؤمنين ، فلا يحس بأنه منهم ، وهم منه ، ونجد هذا الفريق يوالي تلك الدولة من أعداء الله والايمان ، ونجد الآخر يوالي دولة أخرى ، بينها وبين الأولى عداوة ، ونحن تبع لهما في عداوتها . وإن تحابا فليس لنا معهم أمر يراعى ، وخيراتنا لغيرنا ، والله تعالى يقول : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ﴾ .

الأمر الثاني ما نراه في تاريخنا وما أسعفنا به ديننا من وحدة إسلامية مكنتنا من أن نهاجم الباطل في مواطنه، فأزلنا حكم الأكاسرة ، وحررنا شعوبهم ، وأزلنا حكم الرومان في الشرق ، ورفعنا راية الحرية والمساواة :

بالمؤاخاة التي كانت بيننا ، والمحبة التي كانت تربط بيننا ، والتي كان يتألم المؤمن في الشرق لما ينزل بأخيه في الغرب ، حتى تحقق فينا قوله ﷺ : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وإن تلك تلك الخواطر التي سقناها لا ندعي أنها نظام وضعناه ، ولكنا استمليناه من حال المسلمين في عهد محمد ﷺ ، وعهد الراشدين أحيوا السنة وأماتوا البدعة .

وقد يقول قائلون اننا خياليون ، لأن الواقع لا يؤيدنا ، وكان يجب أن نوائم بين ما ندعو اليه وما يمكن تحقيقه .

ونحن نقول ان المبادىء الثابتة لا يمكن أن تستمد من واقع هو الداء الذي تشكو منه ، وإذا كانت دعوتنا الرجوع الى حالنا في عهد النبي والراشدين خيَالِيّة ، فإنه لا إصلاح قط ، ولا سبيل الى الرجوع الى عزة الدين ، وقوة اليقين، وخير لنا حينئذ أن نستبدل بدين العزة دينا آخر نتسربل فيه سربال الذلة ، إن الحكمة القديمة تقول : « إنما يصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها » .

إن العمل يجعل الأمور حقائق واقعة ثابتة ، فلنعمل ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .﴾



فهرست